

رحلة أسير

قصة واقعية حدثت في النصف الأول من القرن العشرين

بقلم

خالد بن عبد القادر الحفيان

الناشر

دار الفلاح

الفيوم - ميدان الجامعة

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٥٢٨٥

الناشر : دار الفلاح لصاحبها خالد الرباط khflah@gawab.com
الفيوم ١٨ ش أحمس حي الجامعة
ت: ٠١٠٦٦١٣٣٦٩ - ٠٠٢ - فاكس: ٠٠٢٠٨٤٣٦٩٦٥٨

تطلب جميع منشوراتنا من
الرياض: ت: ٠٥٣١٠٦٥١٩
الخُبَر: دار الهجرة ت: ٠٣٨٩٨٣٠٠



قصة واقعية وقعت أحداثها في النصف الأول من القرن العشرين

خالد عبد القادر الحفيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد: هٰذِه رحلة أسيرة

المقدمة:

إن لكل أمة أبطالًا إما حقيقيين وإما من نسج الخيال. لتبقى البطولات رمزًا للأمة ومفخرة بين الأمم الأخرىٰ. تضيء الطريق للأجيال القادمة فتبقىٰ محافظة علىٰ تراث أمتها في الدفاع عن كل القيم الجمالية في الحق والعدل والخير.

إن البطولة في معناها الحقيقي، هي اكتشاف ومعرفة هٰذِه القضية التي يجب عليه أن يقدم حياته في سبيلها ليبقىٰ حيًا في حياتها.

قال الله تعالىٰ في كتابه العظيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران ١٦٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة ١٥٤].

ليس كل الرجال يستطيعون ممارسة البطولة واكتشافها ثم تقديم القربان لها.

وإنَّ الأمة العربية في تاريخها الطويل، منذ الجاهلية كانت أرضًا خصبة في صنع الأبطال والبطولات، ومن يعد إلىٰ تاريخ الأمة العربية يجد هٰذِه البطولات الفذة الفريدة بين الأمم.

لم تنجب أمة من الأمم فرسانًا شعراء لا يدبجون القصائد السحرية في الدفاع عن كل قيم الجمال والحق والعدل ونصرة المظلوم والعشيرة. مثل ما أنجبت منهم الأمة العربية والإسلامية.

إن هٰؤلاء الأبطال العرب الأميين قد صقلتهم الصحراء بشدتها وقسوتها وسحرها فصنعت منهم ألطف الرجال رقة وحساسية. وأشدهم

شجاعة وفروسية لا يُدانيهم أحد في صفاتهم الرجولية والفكرية ومكارم الأخلاق.

وجاء الإسلام الحنيف منزلًا علىٰ هٰؤلاء الناس. إذ أرسل الله رسوله من ذروة سنام أمة العرب وأشرفها. محمد ﷺ وقد قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» ﷺ فأي أمة في الدنيا تمت مكارم أخلاقها؟ لم يحدث هٰذا إلا لأمة العرب، ولا فخر.

أما أبطال الإسلام في الفتوح العربية فهم منارة لا تزال تنير الطريق إلىٰ يوم القيامة لا يتسامىٰ إلىٰ مقامهم أحد في بطولة ولا رجولة ولا عدل ولا حرية.

وقد قال أحد المجاهدين الأبطال إلىٰ قائد الفرس رستم حينما سأله ماذا جاء بكم إلينا؟

قال هٰذا البطل الإنساني (لقد ٱبتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله. ومن جور الأديان إلىٰ عدالة الإسلام).

هل توجد في الدنيا بطولة وتضحية تساوي أو تقارب أن تضحي بحياتك في سبيل حرية الآخرين من البشر الذين لا تربطك بهم قرابة؟ لذلك أطلق علىٰ أبطال الإسلام مجهولين ومعروفين تكريمًا إلهيًا ٱسم (المجاهدين) من الجهد والشدة في ممارسة البطولة.

وإني أقدم قصة [المجاهد المجهول] في هٰذا العصر الذي أقفرت وأجدبت أرضه عن إنبات الأبطال. إلا نفرًا ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه. عسي أن يعتبر من يبيعون أنفسهم إلىٰ كل من يدفع لقاء أن يكونوا عملاء لهم مخلصين لقاء عظمة يلقيها إليهم هٰذا السيد أو ذاك. مع نظرة من الرضىٰ فإذا به يبصبص بذنبه كالكلب المسعور راضيًا أن سيده نظر إليه وألقىٰ له عظمة من فتات مائدته.

إن مجاهدنا المجهول ورفاقه قد أخرجوا أنفسهم من زمرة الكلاب

الذليلة إلىٰ موقف الأبطال. بل ذروة البطولة. وهل بعد هٰذِه البطولة بطولات؟

إن من يثور يحفظ كرامته وحريته وإرادته ويخرج ثائرًا علىٰ طاعة سيده الظالم يأبىٰ أن يكون كلبًا. إذا مات فميتته الكلاب النجسة. وإذا عاش، عاش مذمومًا إلى الأبد. خرج عن طاعة سيده في ساعة الشدة. وثار لنصرة الحق والعدل ورفع الظلم عن أهله وقومه.

إن هٰؤلاء الأبطال عاشوا في الشدائد والمحن ولكنهم حافظوا علىٰ رجولتهم أمام الموت ليعتبر كل من باع جسده وروحه لقاء عظمة من فتات السيد فأصبح كلبًا.

إلىٰ هٰؤلاء الذين أرخصوا قيمة أنفسهم فهانوا وعاشوا أذلاء يعضون أقرب الناس إليهم في طاعة الظالمين مقابل فتات الموائد تلقىٰ إليهم لإشباع بطونهم الجائعة، انحطوا إلى الحضيض، فأصبحوا هملًا يخدمون كل من ألقىٰ إليهم عظمة يتلهون بها.

إلىٰ هٰؤلاء أسوق قصة الرجال الذين طواهم الموت أعزاء يحترمهم العدو ويحسب لهم حسابًا. فيرفع من شأنهم عند الحساب.

أما الكلاب الجائعة فقد شبعوا حتى التخمة من القذارات وماتوا كلهم. فمنهم من مات خسيسًا وهو يقاتل أهله وعشيرته لقاء ملء بطنه. ومنهم من عاش عيشة الذل والهوان ثم أورثها أبناءه من بعده.

رحم الله البطل: خالد بن الوليد حين قال وهو علىٰ فراش الموت قولته المشهورة: (ما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح. وهاأنا أموت علىٰ فراشي كما يموت الصيد فلا نامت أعين الجبناء)

إنها والله القمة العليا من البطولة بل تاجها وجوهرها.

خالد عبد القادر تركماني آل الحفيان

الفصل الأول

الزمان- عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين.

المكان- مدينة حماه في القطر السوري.

البداية:

أول مرة رأيته كان يدخل مسجد الحي عشاءً، وقد لفت نظري بأناقته الإفرنجية غير المألوفة لدىٰ رجال ذلك الزمان لأن اللباس العربي الفضفاض كان لباس الجميع.

أما من يتميزون بالبذلة الإفرنجية فكانوا هم الأساتذة والموظفون، وما كان أقلهم.

منظره:

أثار فضولي شكله المميز بطوله الفارع ورجولته الظاهرة علىٰ قسمات وجهه وحركاته المتزنة. وأجمل ما فيه شاربان طبيعيان وقد أضفيا وسامة غريبة جميلة جذابة علىٰ وجهه.

في تلك الحقبة كانت أحياء المدينة شبه مغلقة ٱجتماعيًا. كانت كل حارة كتلة بشرية متجانسة متكافلة في السراء والضراء، وكانت الحجارة تقوم مقام العشيرة أو القبيلة فأنسب إلى الحارة أو الحي نسب دائم أبدًا لا ينقطع.

كان الغريب عن الحارة إذا دخلها فيعني ذلك أنه ٱقتحم حرمة أهل الحارة أو الحي إلا إذا كان يقصد أحد البيوت ضيفًا أو صاحب حاجة عند أحدهم. وكان التقليد والعرف في مثل هٰذِه الحالة أن يتصدىٰ له أحد

رجال الحارة. وبعد السلام والترحيب يسأله عن غايته وماذا يريد وإلىٰ من يقصد. فإذا كان قاصدًا أحد رجال الحي فإنه يرافقه إلى بيت المقصود ثم يطرق الباب ويسأل عن صاحب البيت ثم يقول إن رجلًا اسمه كذا قادم إليكم، فإذا خرج الرجل إلى الطارق وبعد التحية يسلم الرجل الغريب بيده ثم يقول يا أبا فلان هٰذا الرجل قادم إليك ٱستلمه ثم يسأل إذا كانت هناك حاجة للمساعدة ويتركه بعهدة صاحبه ويسلم منصرفًا. وإن كان ضالًا طريقه يرشده إلىٰ غايته. هكذا كان الحال في كل أحياء المدينة ومدن البلاد كلها.

أما نساء الحي وفتياته فموضع رعاية الجميع. فالحفاظ على سمعتهن وسلوكهن واجب كل واحد من رجال الحي، لا فرق بين أمرأة غني أو فقير. فالعار على الحارة كلها رجالًا ونساءً. لذلك كانت الغيرة شديدة جدًا على الأعراض. وكانت أقل شبهة علىٰ أحد من الرجال أو النساء بارتكاب ما يمس العرض أو الشرف مناسبة لاشتراك الحارة كلها من الثأر وغسل العار.

لذلك كان من الطبيعي أن ٱستغرب وجود هٰذا الغريب في الحي بلباسه المستهجن بدون أن يستغرب أحدًا من الرجال وخصوصًا المسنين أصحاب الطرابيش التركية المعممة والذين خاضوا الحرب مع الجيوش العثمانية.

وبما أن لكل حارة في تلك الحقبة من الزمن زعيمًا أو شيخ شباب يشرف علىٰ كل شاردة وواردة في الحارة. وكانت مسؤولياته تشمل تربية الشباب اليافعين وتقويم سلوكهم وفض المنازعات التي قليلًا ما تحدث، ووضع حدٍّ لكل تجاوز بدون حق.

وكان الزعيم يتمتع بثقافة ٱجتماعية شعبية تدعمها رجولة فائقة مزينة بالفقه والشرف ولا علامة لأحواله المادية بهٰذِه الزعامة. إذ كان الوضع

الٱقتصادي للرجال لا ينظر له بكثير من الأهمية. فالغنىٰ هو ما يتمتع به من رجولة وشرف مع طهارة في اللسان قولًا وعملًا.

هٰذِه هيئة المجتمع وتشكيلته الموروثة عن المجتمعات العربية والإسلامية في كل بلاد العرب والمسلمين. فالحارة والمدينة والقرية مهما بعدت البلاد من الملايو والهند إلى المغرب الأقصىٰ واحدة.

وبما أنه لا يسمح لي بالتصدي لهٰذا الغريب المحترم المعروف، لذا لجأت إلىٰ شيخ شباب حارتنا العم محمد الذي غالبًا ما نقضي ساعات طويلة في دكانه الواقعة في قلب الحارة لنتمتع بأحاديثه الشيقة ذات المغزى التربوي مع بعض النكات اللطيفة وولائمه الصغيرة.

بعد ٱنتهائي من الٱمتحانات طرقت باب رفيقي فخري ورافقته إلىٰ مكان العم محمد الذي رحب بنا بدون أن يرفع رأسه عن عمله قائلًا بشروني يا شباب، كيف ٱمتحاناتكم. هل أمنتم النجاح وإلا بهمتم في الفحوص وضحك ثم رفع رأسه المهيب وقال أهلًا ومرحبًا بكم تفضلوا ثم ترك عمله وقدم لكل منا كأسًا من الشاي وقال خبروني فأنا قلق عليكم لأني رأيتكم متهاونين في الدراسة.

طمأنت المعلم وسألته بنزف لم أعهده في نفسي من قبل.

عم محمد التفت إليّ مندهشًا من بهجتي المتطاولة لأول مرة وقال ماذا هناك يا ولد لما أنت علىٰ غير عادتك من الأدب؟ قل ماذا يزعجك كن صريحًا وبدأ الغضب يزحف إلىٰ وجهه.

قلت أريد أن أسألك عن رجل غريب أراه يوميًا في الحي ولم أره إلا من مدة قريبة وكأنه من أهل حارتنا. من هو يا عمي الذي يلقىٰ هٰذا الٱحترام من الجميع ونحن لا نعرفه؟ أجابني وقد ٱهتم قليلًا لسؤالي، معك حق سؤالك في محله وأردفه قائلًا.

من تسأل عن هو من أهل حارتنا الأصليين، ٱسمه فرحان الأحمد

وأمه خديجة أم فرحان التركية التي كانت تداويك من التهاب لوزاتك وتجبر الكسور لمن تكسر له يد أو رجل من الصبيان والبنات جارتكم المرحومة أم فرحان عرفتها يا ولد؟ أجبت مشدوهًا. حق المعرفة ومن لا يعرفها! قلت. ها!

أذن هٰذا ولدها فرحان الذي ترك والدته وذهب إلىٰ أمريكا وتركها وحيدة. لماذا يا عمي لا تعرفنا عليه. أجابني ببرود وهو يعمل بجد. قريبًا يا أحمد غدًا أو بعد غد إن لم يكن اليوم.

في مساء ذلك اليوم ألقيت السلام علىٰ فرحان وهو يهم بدخول المسجد.

مساء الخير يا عم فرحان. نظر إلىٰ طويلًا ورد قائلًا وعليكم السلام، ابن من أنت؟ ابن جيرانكم أنا أحمد. قال ابن ابنه؟ قلت نعم وهلْ تعرف أمي. أجابني وقد ٱفتىٰ ثغرة عن ٱبتسامة جميلة. وأعرف أباك وجدك بلغهم سلامي ودخل إلىٰ صلاته.

كان هٰذا أول ٱتصال بيني وبينه. أما المرة الثانية فكانت في دكان العم محمد الذي أرسل في طلبي رفيقي فخري إلى البيت.

دخلت الدكان وبعد السلام. قال العم محمد ٱجلس يا أحمد هنا بجانب عمك فرحان جاركم وابن حارتنا جلست بجانبه متأدبًا وأنا ٱنظر بتعجب إلى الحلة العربية التي يلبسها فرحان، كان ذا هيبة بهٰذا اللباس العربي أكثر من اللباس الإفرنجي إذ عاد إلىٰ أصله.

صافحته وشعرت كفه الخشنة القوية عندما أطبق بأصابعه علىٰ كفي.

قال العم محمد موجهًا حديثه إلي مباشرة. يا أحمد. إن عمك فرحان قد غاب ستة وعشرون سنة عن أهله وبلده وقد تغيرت الحياة كثيرًا في هٰذِه السنوات، لذا فإني أطلب إليك مساعدته فأنت متعلم وابن

الحارة ولأخيك الأكبر معارف في الحكومة. لذا يجب عليك أن ترافقه إلىٰ كل مكان يلزم لإنهاء أموره إذ هو بحاجة لبطاقة هوية ولا يعرف كيف يحصل عليها، كما أنه بحاجة لعمل يعيش منه لهٰذا طلبتك وهٰذا رفيقك فخري مستعد لمرافقتك وتقديم المساعدة حسب مقدرته، وأضاف بلهجة آمرة غدًا صباحًا رافق عمك فرحان وابدأ بالعمل وبسرعة فهمت يا أحمد.

ناولني كأس الشاي وقد ظهرت صرامة قاسية علىٰ قسمات وجهه. وهٰذا يعتبر أمرًا من المعلم محمد ولا يمكن إهماله أو مراجعته حسب ما تقضي الأعراف.

قلت حاضر أمرك يا عمي والتفت إلىٰ فرحان وخاطبته: غدًا صباحًا إن شاء الله سأعرج علىٰ بيتك صباحًا فجهز نفسك وأوراقك. ثم ٱستأذنت وعدت إلى البيت مهمومًا.

كيف أستطيع أن أقوم بما أمر به المعلم محمد. ولٰكن ما حيلتي سأحاول وأتوكل علىٰ الله.

في الصباح من اليوم التالي طرقت باب العم فرحان الذي طالما دخلته محمولًا على الأكتاف أو بين ذراعي والدتي لتقوم أم فرحان بالضغط على اللوزتين من داخل حلقي بإصبعها القاسي وقد بللته واغمسته في الملح الخشن أو القهوة المحروقة ليخرج الدم منهما علىٰ أثر هٰذِه العملية الجراحية. أو تلف يدي أو رجلي بجبيرة خشبية بعد أن تلفها في قماش مدهون بالبيض والطحين إن كان الحادث كسرًا في اليد أو الساق. تذكرت كل هٰذا قبل أن يفتح الباب.

فتح فرحان الباب وقال أهلًا يا بني أحمد ٱدخل ولما تمنعت أقسم برحمة والدته إلا دخلت بيته خطوت إلى الداخل خجلًا وتوقفت في منصف باصة الدار الصغيرة ذات الغرف الثلاثة والمطبخ المسود من

طول الزمن، وقد عادت بي الذكري إلىٰ ما قبل عشر سنوات إذ كانت أم فرحان لا تزال حية ترزق ٱمرأة صالحة يسألها الجميع الدعاء لرفع البلاء. هٰذا إضافة لحاجة الحارة لطبها الشامل لكل ما يلحق الأطفال والنساء من أمراض وكسور عدا كونها بيت السر والنصيحة للنساء عامة رحمها الله وجزاها خيرًا عن الحارة وأهلها.

أدخلني فرحان إلىٰ غرفة وكان قد أعد الشاي فقدم لي كأسًا وأقسم علىٰ أن أشاركه طعام الإفطار، فاعتذرت محتجًا بأني قد سبقته في بيتنا.

اعتذرني مستأذنًا لبضع دقائق ليتم لباسه الإفرنجي الجميل. أحلت النظر في أنحاء الغرفة الصغيرة النظيفة. كل شيء مرتب وفي مكانه. قلت محدثًا نفسي هكذا يتعلمون النظام في الغرب وقد ٱستوقفني عن هٰذِه الأفكار صورتان بإطار مذهب معلقتان بأناقة في الحائط الترابي ٱقتربت لاستطلع ما فيهما شيء عجيب الصورة الأولىٰ تضم فرحان مع ٱمرأة شقراء طويلة القامة جميلة جدًا وقد شبكت يدها بيد فرحان بوقار يتناسب مع جمالها وقد حملت باليد الأخرىٰ باقة من الزهر، أما الصوزة الثانية فتضم فرحان مع ٱمرأة سمراء ذات شعر طويل جدًا أسودٍ فاحم أما عيونها فكانت كبيرة جدًا تشع منهما البراءة والفرح وقد لفت بكلتاً يديها يد فرحان وكأنها تخشىٰ أن يهرب منها.

انتهىٰ فرحان من ٱرتداء ثيابه واقترب مني متمهلًا وقال أنا جاهز تفضل إن تكرمت، أشرت إلى الصورتين ما هٰذا يا عمي من هاته الجميلات وقد قبضن عليك. تبسم قليلًا وجذبني من يدي إلى الخارج قائلًا بعدين يومًا ما سأقص عليك كل شيء وستعرف حينها من هاته النساء علىٰ كل حال هما زوجتاي.

تقدمت بأوراق فرحان مع طلب رسمي للحصول علىٰ بطاقة الهوية بمساعدة مختار الحارة حتىٰ حصل فرحان علىٰ بطاقته وكان أمرًا سهلًا

في ذلك الزمن وأما المشقة الحقيقية فكانت في إيجاد عمل في تلك الحقبة من مطلع الخمسينات من القرن الماضي، والمصيبة أن فرحان لا يتقن عملًا ولا صنعة ولا يحمل شهادة تؤهله للوظائف مع تقدمه في العمر.

قال فرحان مسهلًا الأمور يا بني أي عمل كان، أنا أتقن الفرنسية قراءة وكتابة وكذلك العربية قلت يا عم إن الفرنسية لا سوق لها بعد طرد فرنسا من بلادنا، فقد قاطع الناس لغتهم لشدة بغضهم لكل ما هو فرنسي أو ما يذكرهم بفرنسا وقلت مازحًا.

يا عم لم يبق أمامك إلا أن نشترىٰ لك حمارًا فتصبح حمالًا لبضائع التجار وحاجات البيوت ما رأيك موافق يا عم وبشدة دهشتني قال ضاحكًا موافق يا بني.

وكان ذلك فقد رافقته إلىٰ دلال الحمير حيث ٱشترينا له حمارًا ٱنتقاه بعناية الخبير ثم قاده من رأسه مستبشرًا وأدخله إلىٰ داره رفيقًا يؤنسه في وحدته كما قال.

سارت أمور فرحان بيسر وكم أضحكني منظره وهو يمتطيٰ صهوة حماره علىٰ طريقة الفرسان.

في أحد الأيام وصل ساعي البريد إلى الحارة يسأل عن بيت فرحان الأحمد وبيده رسالة أنيقة باسمه تطوعت لإيصاله إلى العنوان.

طرقت باب فرحان وعلمت أنه في البيت بدلالة حماره المربوط بالباب. خرج فرحان متسائلًا قال خير إن شاء الله. أخرج الساعي الرسالة ذات الطرف الزهري الجميل والذي لم أرىٰ مثله من قبل وسلمه إلىٰ فرحان بعد أخذ توقيعه على الدفتر الرسمي. نظر إلى الرسالة وقلبها طويلًا ثم ٱنتبه إلىٰ وقوفي ٱنظر إليه. جذبني من يدي وقال: ٱدخل أحمد، ولم أكن بحاجة لأكثر من ذلك. قفزت إلى الداخل قبل أن

يتحرك ويغلق الباب.

أخذت مجلسي وهيأت أسئلتي لألقيها عليه فهٰذِه مناسبة لن أفوتها وخصوصًا أني أصبحت ذا دال عليه. رحب بي وعرض ضيافته فرفضتها بحزم قلت أبدًا لن أتناول عنك إلا الشاي. هٰذا واجبنا يا عمي أحمد وأضفت. أقرأ الرسالة إن شاء الله خير، أقرأها إن لم يكن عندك مانع أحب أن أعرف ما بداخل هٰذِه الرسالة الأنيقة. ضحك ولكزني إنك كثير الغلبة يا ولد ما يهمك ما بداخلها، وكان قد فض الغلاف وبدأ يقرأ بالفرنسية ثم لحظني بطرف عينه. قال.

أتحب أن تعرف ما في هٰذِه الرسالة. هززت رأسي موافقًا. بدأ يقرأ وينقل لي الترجمة وكان محتواها عاطفيًا يخص زوجة فرحان الفرنسية. قلت عم فرحان أسأل أم لا لا أسأل قال أسأل، قلت.

يا عمي فرحان إنك تركت مدينتك هٰذِه ستة وعشرين سنة فما الفارق بينها حين تركتها وبين ما وجدتها عليه الآن هل تغير فيها شيء. تطورت مثلًا في العمران في الأخلاق في الاقتصاد، ممكن أن توضح لي الصورة الماضية خصوصًا. وهل نشبه الغرب أم نختلف عنه وبما نختلف. ضحك وقال: يا بني أنا لست عالمًا حتىٰ أشبع رغبتك العلمية. ولكن سأحكي لك عن حالة وشكل المدينة حين تركتها وعن علاقتنا بالغرب تمثله فرنسا في سوريا والإنكليز في غيرها من البلاد العربية وما يريده الغرب منا باختصار وعلىٰ قدر علمي ومعرفتي القليلة. قدم لي كأس الشاي. ثم قال.

أبدأ من حارتنا هٰذِه التي لا تزال كما تركتها إلا من الكهرباء والماء فهٰذِه الخدمة لم تكن موجودة سابقًا إذ كنا نستعمل مصباح الغاز، انظر إلىٰ مصباحي هٰذا فهو ذاته كما تركته من قبل وأما الماء فكنا نستقي من ماء القاصي بواسطة النواعير. كما أن هناك آبارا في البيوت والمساحات

العامة للشرب وأما المدينة فقد تطورت كثيرًا في العمران. أما الاقتصاد فلا وجه مقارنة مع تلك الأيام، ومن خلال احتكاكي بالتجار وعامة الناس فإن كمية المال المتداول بين أيديها لا أخطئ إذا قدرته بألف مرة أكثر من أيامنا تلك.

أما الأخلاق يا بني فقد تغيرت في كثير من وجوهها فمنها تطور للأحسن والأكثر منها قد انهار وهي علىٰ نوعين:

الأول. لا يزال مستقرًا في نفوس الناس الذين هم من جيلي وما قبله. وهي باختصار الأمانة والصدقة في المعاملة والإتقان في الصنعة. إن أبناء جيلنا وما قبله كانوا دقيقين جدًا في عملهم حرصًا منهم أن لا يكون فيها عيب إذ أنه يعتبر ذلك مخالفًا للشرع الحنيف الذي تربي عليه ونشأ على الالتزام بتعاليمه وتقديسها بالقول والعمل.

الثاني. وهو ظاهرة في جيل الشباب، فقد لاحظت أنهم يتهاونون في هٰذِه المثل العظيم في سبيل الإسراع في الاستيلاء علىٰ أكبر قدر من المنفعة السريعة وهم يحاولون تقليد الغرب الإفرنجي بكل ما يصل إليهم من أخلاق ولباس وموضة وكل ذلك بفضل السينما التي تنقل هٰذِه القيم بطريقة مغرية جذابة. وهٰذِه السينما وقد رأيتها مرات عديدة كذلك علىٰ نوعين:

الأول. أفلام عربية مصرية وهي تصر علىٰ تقليد الغرب مستلهمة أخلاق الطبقة الفاسدة المفسدة من تلك الشعوب مع إصرارهم في قصصهم الغرامية وفي كل ما تعرضه علىٰ إفهامكم أن هٰذِه الحياة بأخلاقياتها هي الصحيحة والتي تحقق السعادة في الحب والمال ولو عن طريق السرقة والجريمة والاحتيال فهم يزينون كل ذلك لجيلكم وما بعده من الأجيال. وأنا متأكد حسب ما أرىٰ من تدمير أجيالكم القادمة واستعبادكم خلال خمسين عامًا من الآن.

يا بني لقد خرجت فرنسا من سوريا ولبنان بجيوشها ولٰكن عادت بقوة الثقافة والفن والموضة والأدوات الاستهلاكية البراقة وأوحت عن طريق أبنائها الذين رتبتهم في مدارسها من بيننا أن من يلتزم بهٰذِه الثقافة وأدواتها وبقدستها هو إنسان متقدم راقي متحضر ويكن له كل الاحترام.

أما من يحافظ علىٰ روح الأمة ويلتزم أخلاقها ودينها ولباسها فهو إنسان غير محترم متخلف لا قيمة له. وهٰذا يبدأ من اللباس أولًا لأنه يميزك إلىٰ من تنتمي.

وقد لاحظت التطبيق العملي الذي يبدأ من موظفي الحكومة بكل مرافقها، من يقلد الغرب يحترمونه ويلقبونه أفندي ومن يحافظ علىٰ تراثه فهو متخلف غير جدير بالاحترام.

وهٰذا ما عملت عليه فرنسا حين دخلت بلادنا مدعية أنها ستحضرنا، فمن أطاعها فقد تحضر وله الوظائف وتسهيل التجارة. أما من رفض وقاتلها غيرة على الحرية والحفاظ علىٰ شخصية الأمة أن تذوب في غيرها فتصبح ذليلة مهانة فهو محتقر منبوذ فقير لا قيمة له في المجتمع المتحضر المقلد للغرب بكل شيء ما عدا النافع منها من العلوم والصناعية.

يا بني ألم تلاحظ معاملتهم معي كيف تتبدل حينما ألبس الثياب العربية وكيف يحترمونني ويلقبوني بالأفندىٰ عندما أرتدي اللباس الإفرنجي.

يا بني إن مستقبلكم مظلم إذا لم يرسل الله لكم من يلزمكم قسرا بالقوة بالعودة إلىٰ قيم تاريخنا وأخلاق أسلافنا النظام فاتحي الدنيا من الغرب والشرق.

يا بني أنا عايشتهم وخبرتهم جيدًا بالمعاملة والأخلاق. إن طرائقهم في الحياة لا تناسبنا أبدًا وإلا فما قيمتنا إذا تحولنا إلىٰ قرود

مقلدة لهم بدون عقل ولا روية.

صدقني إن أول من يحتقرنا هم أنفسهم ثم يحولوننا إلىٰ عبيد نستجدي منهم كل أسباب الحياة من فتات موائدهم.

يا بني إن جيلنا وما قبله كان مستغنيًا عن الغرب وصناعته وفنه وأخلاقه، إذ كانت له قاعدته الأخلاقية الصناعية المتقنة التي يبغي من إنتاجها الثواب من الله ثم الربح الحلال وسد حاجة الأمة من متطلبات حياتها.

في تلك الحقبة لم يكن الغرب قادرًا علىٰ هزيمتنا أبدًا بل يبقينا نهزمه ألف سنة. أما الآن فقد ٱنهزمتم سلفًا.

فاستقلال البلاد الذي جهد جيلنا لاسترداده بالقوة قد ضاع وليس بدون مقابل فقط، بل أنكىٰ من ذلك فقد ضيعتموه وأنتم تدفعون بهم ثمن ضياعه من مالكم وأخلاقكم ودينكم وكل مقومات حياة الأمة.

للأسف يا بني هٰذا ما شهدته ولمسته وصدقني إن الٱنهيار قادم لا محالة. سيأمرونكم فتطيعون وعلىٰ رأسكم قادتكم وحكامكم المطيعون المنفذون بأمانة لكل مصالح الغرب وذلك مقابل وضعهم علىٰ كراسي الحكم والحفاظ عليها.

هٰذا ما رأيته حاضرًا كبداية وأراه سيكبر في المستقبل القريب. وأسأل الله العلي القدير أن يكذب ظني في رؤيتي للحقيقة.

قاطعته وقد أفزعني تشاؤمه وسوء ظنه محاولًا تهدئة غضبه، وقلت: يا عمي فرحان ليس إلىٰ هٰذا الحد من السوء فإن في مجتمعنا المخلصين الوطنيين فلا خوف علينا وعلى الوطن. إن جيلنا نحن الشباب يعشق الوطن والوطنية ويؤمن بكل القيم الخيرة والدينية المقدسة. فلا تخف يا عم. ضحك قليلًا ولا أدري إن كانت ضحكته علىٰ سذاجتي. وقال يا ابني أحمد ٱسمع.

إن جيلك قطعًا مخلص وطيب ومتحمس للتضحية. ولكن عندما تغدرون رجالًا ومسؤولين فإن إغراء المال والسلطة والنساء سيجعل قسمًا كبيرًا منكم يضحي بما يؤمن به الآن ويضع نفسه في خدمة الغرب لينفذ بأمانة كل مطالبهم ولو أدىٰ به إلىٰ محاربة الأمة بكاملها. وقتل أكبر عدد من الناس إذا تطلب الأمر ذلك في سبيل إرضاء سيادة الذين ليس لرضاهم حد أو شبع، وذلك لقاء حمايتهم وتأمين كراسي الحكم لهم ولأتباعهم.

يا بني إن ما تسمعه مني ليس جديرًا أو سيحدث، إن حدث. أسأل عمك محمد فهو رفيقنا ومن جيلنا وأنت تعلم أنه قاتل في ثورة عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين وعام ستة وثلاثين في فلسطين وفي عام خمسة وأربعين وفي فلسطين عام سبعة وأربعون ضد اليهود. جرب وأسأله من الذي كان يطعن الثوار في ظهورهم ويفشل الثورة ويوقفها أو يوصلها إلىٰ أسوأ مصير بعد أن تكون قد قاربت على النصر على الإنكليز واليهود والفرنسيين من هم أسأل عملك أسأله غدًا ثم تابع منفعلًا وقد ٱحمرت عيناه من الغضب.

هم يا بني الملوك والرؤساء العرب وما أكثرهم في وطن واحد مظلوم بهم الوطن العربي يا للعار لو يعرفون العار. كما مزقوا هٰذا الوطن ليأخذ كل واحد منهم فردًا أو أسرة حصته من هٰذا الوطن المستباح ليكون ملكًا أو رئيسًا أو أميرًا يخدم بإخلاص مطلق أسيادة أحفاد الصليبيين أعدائنا التاريخيين.

وأقسم بالله لو أنهم جربوا مرة واحدة أن يكونوا هم الأسياد كأجدادهم العظام لكانوا هم من يملي إرادته على الغرب بأجمعه ولو جمعوا أنفسهم مرة واحدة لكانوا عصبة واحدة وقوة هائلة يركلها الغرب والشرق، يا ليتهم جربوا مرة واحدة.

إن أول من يحمي عروشهم وكراسيهم هم الأمة بأكملها وهٰؤلاء الناس الذين يخافونهم على العروش والكراسي. لٰكن الجبن والخور الأخلاقي وكراهية الأمة وتاريخها ودينها يمنعهم عن هٰذِه المكرمة. إنهم أشد الأعداء على الوطن وعلىٰ أنفسهم. فهمت يا أحمد. هل عندك سؤال آخر. قلت نعم قال اسأل يا ابن أخي. قلت.

يا عم فرحان لقد تركت الوطن ستة وعشرين سنة إلىٰ أمريكا وأنت تجمع المال وقد تركت أمك وحيدة لا معيل لها في سبيل جمع المال الذي لم تستطع جمعه حسب ما أرىٰ فمن أين هٰذِه الوطنية وهٰذِه الخبرة في ما يجري وجرىٰ في الماضي والحاضر. ألست ممن تركوا البلاد وهربت إلىٰ بلاد الغرب لتجمع المال وتعود غنيًا. ولٰكن كما يبدو الحال لم توفق وعدت صفر اليدين. إذًا خبرني يا عم كيف تنتقد من أنت منهم، ومن يهرب لا يحق له أن ينتقد ويهاجم.

إن ما قلته آنفًا يجب أن يقوله عمي محمد الذي شاهدناه ونحن أطفال يحمل سلاحه ويقاتل الفرنسيين واليهود والإنكليز هو من يحق له أن يقول ما قلته أم أنا مخطئ.

اصفر وجهه وجرت مسحة من الغضب الصامت علىٰ وجهه مما أخافني وقد ندمت علىٰ تهوري ومهاجمته مباشرة. إذ أن الذنب ذنبي فأنا سألته وهو أجابني بما يعرف ويعتقد.

ضحك بمرارة ظاهرة ثم قال يا أبن أخي غدًا ألقاك عند عمك محمد لتعرف الحقيقة أما الآن فأترك هٰذا الموضوع وأشرب الشاي وتسير إلىٰ أمك.

بقيت هٰذِه المحاورة تؤرقني لأني لم أسمع بمثل هٰذا التحليل من أحد من قبل. وبما أن سنوات عمري القليلة لم تترك لي ولأمثالي من المراهقين فرصة التفكير بمثل هٰذِه القضايا الكبرىٰ. لذا قررت أن الأحق

فرحان حتىٰ أعرف سره الحقيقي ومن أين واتته هٰذِه المعرفة.

في اليوم التالي دخلت وكان العم محمد خائفًا. ألقيت السلام مراقبًا رد الفعل من ملامح وجهه وعلى الأخص عيناه لأن فيهما تتجلىٰ كل ما يعتمل في صدره. قال أهلًا بالأزعر أحمد أجلس وحدثني بصراحة ما قضيتك مع عمك فرحان. لقد ظلمت الرجل.

قلت وقد ذهب خوفي. حب ٱستطلاع يا عمي لا غير، قال بهدوء متأني.

الحقيقة يا بني يجب أن تعرفها أنت وغيرك من أبناء جيلك الجديد تعال غدًا أنت ورفاقك وكل من تعرفه. ٱحضروا غدًا مساءً ولا تتأخروا مفهوم بلغهم علىٰ لساني.

أحضرت معي من ٱستطعت من رفاقي في الحي إلى الدكان مساءً. وإذا بفرحان قد ٱتخذ مجلسه مواجهة، دخلنا مسلمين وجلسنا.

قال العم محمد: أهلًا وسهلًا مرحبًا بالشباب وتنخع قليلًا ثم قال إن رفيقكم أحمد تعرض لأخي فرحان متهمًا إياه بالهجر إلىٰ أمريكا لجمع المال وأقول: إنه قد ظلمه أقول هٰذا لبيان الحقيقة ولتكون درسًا لكم في المستقبل، طلبتِ من أخي فرحان أن يقص عليكم ما حدث معه خلال هٰذِه المدة الطويلة كما متهمون لتكون عبرة لكم إذا تعرضتم في مستقبل أيامكم لمثل هٰذِه المحنة التي تعرض لها. إن القصة طويلة بحاجة لأيام كثيرة لإتمامها فلا يتهربن أحد منكم وموعدكم هنا يوميًا مساءً ثم التفت إلىٰ فرحان قائلًا أبدأ باسم الله الرحمن الرحيم.

تنحنح العم فرحان وقد عدل جلسته متمكنًا وبدأ حديثه قائلًا:

باسم الله سأبدأ معكم منذ طفولتي في حارتنا هٰذِه.

أنا فرحان ابن أحمد ووالدتي تعرفونها جميعكم بأم فرحان. أما والدي أحمد فقد ٱستشهد في الحرب على الجبهة الروسية العثمانية

كغيره من رجال البلاد العربية. نشأت يتيمًا وحيدًا لوالدتي وكان أقاربي يتحملون أمر معاشنا جزاهم الله خيرًا، إلىٰ أن بدأت أعي ما حول. وكانت الحرب قد قاربت علىٰ نهايتها عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر.

ضرب الجوع فقراء الناس في كل البلاد الشامية حتىٰ وصل مدينتنا هٰذِه التي صمدت قليلاً ثم سحقها الجوع وقد سمعتم من مسني الحي عن تلك الأيام. ولٰكن سأرویٰ بعض مشاهداتي لتلك المأساة أبعدها الله عنا.

كان عمري قد تجاوز الخامسة عشرة بقليل. أما معرفتي فكانت لا تتعدىٰ بضعة أحياء مجاورة لحارتنا وساحة السوق العامة (الحاضر) وقد تعلمت القراءة عن طريق شيخ الكتاب الوحيد في الحارة الذي يجمع كل أبناء الحي والحارة المجاورة. أما الأجرة التي نوقعها لقاء التعليم فكان يوم الأربعاء رغيف خبز وقرش واحد يوم الخميس. وكان الشيخ رحمه الله شديدًا جدًا بما يتعلق بسلوك الأولاد خارج الكتاب وداخله. وكان بعض الأولاد يسعون بالوشاية إلى الشيخ بما فعل رفاقهم من قلة أدب في الحارة. أما العقاب فكان الفلقة المعروفة توضع في قدمي المسيء، والجزاء عشرة عصي على القدمين ثم يتبقىٰ جزاء الواشي بعشرين عصا جزاء وشايته، لأن الوشاية مذهبة للمروءة وحالقة للدين، هكذا كان يعلمنا شيخنا.

كنا نلتزم الأدب في البيت وخارجه حتىٰ ترسخت هٰذِه المبادئ الكريمة في نفوس الأولاد.

لذا ونتيجة لهٰذِه التربية الصارمة من كل مشايخ الكتَّاب في المدينة خفَّ وقع كارثة الجوع إذ تعاون الجميع -كلٌّ حسب طاقته- علىٰ مساعدة الفقراء. فكان الغني يتكفل عددًا من العوائل الفقيرة كلٌّ حسب مقدرته المادية. ولا أنسىٰ كيف أن بعض الجوعىٰ من المهاجرين

الأرمن يصرخون في الطرقات بكلمة جوعان فكنَّا نحن الأولاد نقف علىٰ باب فرن الحي لنخطف من حامل الخبز أو أي طعام خارج من الفرن لنُطعم هٰؤلاء المساكين. فكنَّا نُلاحَق ونُطَارد من صاحب الطعام حتىٰ إذا رأىٰ ما نقوم به من إطعام الجوعىٰ فكان يساهم فورًا ويقدم كل ما يحمله إلينا لنقوم بهٰذا الواجب الموجع.وأذكر يا أبنائي أن بيتنا خلا من القوت أكثر من مرة فلا يكلفني إلا أن أطرق باب أي بيت في الحارة لأطلب ما يستطيعون أن يدفعوه لي مما يتوفر عندهم.

هٰذِه الصورة يعرفها عمكم محمد وكل رجال المدينة، كان الناس يتعاونون على المصائب.

وأقسم بالله بأني لم أشعر أني يتيم أبدًا كل رجل كان أبًا بارًا لي ولأمثالي من الأيتام، وكنا نسمع من الرجال في حارتنا أن الحكومة الاتحادية في تركيا هي التي تجوع الناس، وكانوا يقولون إن الحبوب المكدسة في محطة القطار تطعم المدينة لسنوات، وكان بعض الفارين من العسكرية يرون أن الترك كانوا يحرقون الحبوب المكدسة في محطات القطار قبل انسحابهم منها بحجة أن لا تقع بين يدي الإنكليز ويتركون الناس بلا طعام، وكانوا يترحمون على السلطان عبد الحميد الذي لو كان موجودًا لما دخل الحرب وجنَّب البلاد والعباد ويلات الحرب.

كانوا يقولون إن الاتحاديين يهود غايتهم ضرب الخلافة وتقسيم البلاد وتسليمها إلى الأفرنج ليعطوا فلسطين لليهود، هٰؤلاء الكفار، وكنا نرىٰ كل يوم جنود السلطة تجوب الأحياء بحثًا عن الفارين من الجيش، وكان الجميع يرحب بالفارين وكنا نخبئهم في البيوت والبساتين، وقد شاهدت الكثير منهم، فكان منهم العراقيون والسوريون والأكراد والتركمان.

دامت هٰذِه المحنة حتىٰ قالوا إن الجيش التركي قد ٱنسحب من المدينة على القطار.

وأذكر أنني وعمكم محمد وكثير من رفاقنا -وهم آباؤكم الآن- قد خرجنا إلىٰ محطة القطار لنتفرج علىٰ ما يجري فلم نجد إلا بعض الحراس المحليين وقد ضربتهم الحيرة فلم يحركوا ساكنًا.

وقد وجدنا أكداس الحبوب في المحطة والناس تنتهبها بحيث لم يبق بيت إلا ٱستولىٰ علىٰ ما يكفيه من الخبز والأرزاق المختلفة لمدة سنة.

وبعد أيام من ٱنسحاب الترك دخلت خيَّالة الشريف هكذا قال الناس في الحارة، وقالوا لقد جاء الملك فيصل ابن الشريف حسين ملكًا علىٰ سورية وأصبحنا مستقلين، فرح الناس ونظموا العراضات وكنا نرافقهم ونهرج معهم فرحين غير عالمين بما يخبئ لنا المستقبل من شرور وكوارث.

خطب شيخنا خطبة الجمعة وقال: أيها الناس علىٰ ماذا تفرحون؟ على ٱستقلال سورية أم علىٰ تمزيق بلاد المسلمين؟ لماذا تستقل سورية عن العراق والحجاز ومصر؟ أليسوا بلادًا واحدةً؟ لقد قسموكم بينهم يا مساكين وسلموا رقابكم إلىٰ أزلامهم المطيعين وسترون البلايا تتبعها الرزايا والموت الزؤام وغدًا لناظره قريب ثم بكىٰ ونزل إلى الصلاة.

في تلك السنة أرسل الله الأمطار الغزيرة والثلوج، ولمَّا جاء الربيع الذي لم نر مثله في حياتنا، وقد فرَّج الله على الجوعىٰ والفقراء بما جاءت به من خير وفير فكان الناس رجالًا ونساءً يخرجون إلىٰ أطراف المدينة ويعودون وقد حملوا ما ٱستطاعوا من الخبيزة والكمأة وقرص عرفة وغيرها بما يسد حاجتهم للطعام بدون مقابل.

ثم جاءت الأخبار أن الفرنساوية قد ٱحتلوا الساحل السوري

طرطوس وبانياس واللاذقية وأنهم قد هاجموا جبال النصيرية يريدون الأستيلاء عليها، وبدأ الناس يتحدثون عن الشيخ صالح العلي الذي يقاتل الفرنساوية وينتصر عليهم في الساحل والجبل.

كانت المساعدات تخرج إليهم من المدينة وغيرها من المدن وكان والد عمكم محمد ممن خرج للمساعدة والقتال مع كثير من رجال الأحياء وقد سقط العديد من الشهداء، وقد دامت هٰذِه الحرب قرابة سنتين، حتىٰ دخل الجيش الفرنساوي دمشق بعد معركة ميلون.

بدأت طلائع قواتهم من الخيالة والمصفحات تحتل المدن، وأخيرًا دخلت مدينة حماة من طريق باب طرابلس، وقد طوقت قوات الفرنساوية الجبل بعد ٱحتلال مصياف وقطع المدد عن الثوار، حتىٰ تم خنقها بحيث ٱنتهت بهزيمة كاملة باستسلام الشيخ صالح العلي.

قام الفرنسيون بمطاردة كل من كان يساعد الثورة، ولا أنسىٰ كيف أنهم علَّقوا على المشنقة ثلاثة من المجاهدين في ساحة المرابط، قالوا عنهم إنهم إرهابيون متمردون علىٰ فرنسا المنتصرة، هٰذا ما قاله قرار الإعدام، وحسب ما أذكر أن أحدهم من آل الجلاغي والآخر من قرية الربيعة ٱسمه كامل باكير علىٰ ما أذكر أمَّا الثالث فلم أعرفه، وذلك حتىٰ يكونوا عبرة لغيرهم وهٰذِه أول قافلة من الشهداء.

أما معلوماتي عن تلك الفترة فهي قليلة لأننا كنَّا صغارًا وإذا أردتم معلومات مفصلة فعليكم بالمسنين من الرجال والنساء لأنهم شاركوا بالنفس والمال.

لقد دخل الفرنسيون بجيوشهم قادمين من حمص تتقدمهم الخيالة وعلىٰ رأسهم قائدهم الأعور المقطوع اليد والرجل الجنرال غورو.

وكنَّا ونحن نتفرج على الموكب قد ٱستغربنا من فعل بعض وجهاء حماة المعروفين وقد نشروا السجاجيد على الجدران مبتهجين بقدوم هٰذا العدو الغازي.

اسألوا عمكم محمد كيف تسللنا حينها ومعنا رفيقنا مصطفىٰ إلىٰ دار البلدية، وقد أقام بعض الوجهاء مأدبة عامرة علىٰ شرف الجنرال غورو وضباطه، وذلك لنتفرج علىٰ شيء لم نره قبلًا، وقد عقدت الدهشة ألسنتنا من كثرة الطعام وألوانه التي لم نر مثلها من قبل وكنا نسأل بعضنا عن أسماء هٰذِه المأكولات الغريبة العجيبة ولا نعرفها طبعًا.

قال رفيقنا مصطفىٰ هٰذِه مأكولات الجنة التي يحدثنا عنها الشيخ في دروسه هُرِّبَت إلىٰ هٰؤلاء الناس ٱحتفالًا بهٰذا الصليبي الخنزير، والأغرب من ذلك كيف ألقوا بهٰذا الطعام الذي فاض عنهم في النهر، وكم تمنينا أن نتذوق ما رموه ولو أنهم وزعوه علىٰ أمثالنا من الفقراء لأصابتهم المثوبة من الله قال ذلك مصطفىٰ وهو يشتم هٰؤلاء الكلاب، سكت العم فرحان عن الكلام المباح وقال موعدنا غدًا لإكمال ما بدأت، ثم سلَّم وانصرف مسرعًا.

قال العم محمد وهو ينظر إلينا ويشير بإصبعه مؤكدًا أنه شاهد علىٰ ما رواه عمكم فرحان وإن ما سمعتموه منه يجب أن يرسخ في ذاكرتكم إلىٰ نهاية حياتكم، كما يجب عليكم أن تعلِّموا أولادكم أن يلتزموا مكارم الأخلاق والإخلاص في القول والعمل وأن يلتزموا بعقيدتهم صافيةً نقيَّةً بلا تعصب كما أمر الله ورسوله، قوموا إلىٰ بيوتكم وموعدنا غدًا في الموعد نفسه.

في اليوم التالي حضرنا في الموعد لشوقنا لما نسمعه من قصص فرحان، كان فرحان جالسًا وبيده كأسه، ٱنتظمنا في جلستنا وقلت كلنا آذان مصغية يا عم تفضل مشكورًا.

تنحنح قليلًا ثم قال: كنَّا عصبة من الشباب في الحارة لا يتجاوز عمر أكبرنا مصطفى الثمانية عشر، وقد قمنا بعمل المعجزات أيام الجوع لنسد رمق فقراء حيِّنا، لذا كان الجميع يعاملوننا كأبنائهم محبةً

واحترامًا، كانت جارتنا أم مصطفىٰ ووالدتي متلازمتين دائمًا إذ إن مصيبة الترمل وفقد الزوج جمعتهما وكان ذلك مما يخفف عنهم وقع المصيبة، وكانت لها ابنة صغيرة أخت مصطفى ٱسمها فوزية وقد خطبتها والدتي منها لتكون زوجتي مستقبلًا، لذلك كانت معاملتي لفوزية ونظرتي إليها كمن ينظر إلىٰ شيء يخصه ولا أنكر أنني أحببتها بشدة.

بدأ الحكم الفرنسي وبدأت الأضطرابات في البلاد من مظاهرات وإضرابات وعصيان بعض الشباب وصدامهم مع الدرك، فكنَّا نسمع كل يوم عن حادثة في حماة وغيرها من المدن والقرىٰ، وهكذا ٱضطربت معيشة الناس وقلَّت الأعمال وبدأ كثير من الناس يفقدون مورد عيشهم، والأدهىٰ من ذلك وهٰذِه واقعة لا أنساها لأنَّها حددت مصير حياتي كأمثالي من الشباب الفقراء، وذلك بأن قام الفرنسيون بفتح بنك سورية ولبنان في نفس المكان الحالي للبنك السوري، وقد فرضوا الليرة سورية الورق بدلًا من الذهب، وكانت الليرة الذهبية قيمتها خمسة ليرات سورية ونصف وأجبروا كل من يتعامل مع الحكومة أو التجارة أن يكون الدفع والقبض بالليرة السورية الورقية لذا كان الناس يتوجهون إلى البنك لإبدال ذهبهم بعملة من الورق.

ولمَّا كان سنِّي قد قارب التاسعة عشرة، قالت والدتي: يا فرحان لم تعد طفلًا أنت الآن رجل وعيب عليك أن نبقىٰ بحاجة لمعونة أقربائنا، أنت الآن مسؤول عن إعاشتنا ٱذهب واعمل لتكون رجلًا ولا تنس أن لك عروسة سوف نزفها إليك قريبًا.

كنا عصبة من ثلاثة شباب متلازمين لا نفترق، عمكم محمد ومصطفىٰ والجالس أمامكم، أما عمكم محمد فقد بدأ العمل عند الخياط، وأما مصطفىٰ فقد زاول بيع الخضار في السوق، وأما أنا

فعملت عند أحد تجار الحبوب المعروف بأبوعبدو، صاحب فضل وصدقات كثيرة على الفقراء، رحمه الله.

ساءت أحوال الناس كثيرًا بسبب ٱرتفاع قيمة الليرة الذهبية من خمسة ليرات ونصف إلىٰ حوالي أربعين ليرة سورية وكان أكثر الذهب الذي بين أيدي التجار قد تحول إلىٰ ليرات سورية علىٰ سعر خمسة ليرات ونصف فلما ظن الفرنسيين أن أكثر ذهب البلاد قد صار بحوزتهم رفعوا قيمتها إلىٰ أربعين ليرة سورية ورقية مما سبب الإفلاس العام وأصبحت الناس في ضائقة شديدة، البطالة في كل مكان وضحاياها عادة من الفقراء في الدرجة الأولىٰ.

توقفت أحوال التجارة وبدأ الأغنياء يقتصدون في مصروفاتهم، وبما أني من الفقراء الأيتام فقد كنت ضحيَّة سهلة إذ ٱستغنىٰ عني معلّمي لتوفير أجرىٰ، وقد تكفَّل رحمه الله بحاجتنا الضرورية من الخبز قوام المعيشة بدون مقابل، وهي عادة كانت سائدة في تلك الأيام، القوي يكفل الضعيف كلٌّ حسب مقدرته، فكان الخبز مؤمنًا للجميع.

اقترضت من معلِّمي ما يكفىٰ لدفع قيمة حمار، فكنت أشترى الخضار من البساتين وأبيعها في أحياء المدينة متنقلًا من حارة لأخرىٰ ممَّا أنعشنا قليلًا فاستغنينا عن حصة الطحين من معلِّمي ليوفرها لغيرنا.

دام هٰذا الحال زمنًا طويلًا مما جعل الناس مستعدِّين للعصيان لأقل حادثة مهما كانت صغيرة، ولم نتخلَّف نحن الشباب عن أيَّة مظاهرة أو إضراب، وكنَّا نصطدم فورًا مع البوليس والدَّرك، وهٰذِه

الحالة لم تكن مألوفة أيام حكم العثمانيين، لأن الناس كلهم كانوا راضين عن السلطان ومطيعين له علىٰ رغم ظلم أتباعه من الولاة وأزلامهم، لذلك لم تشهد البلاد إضرابات ولا عصيانًا، وكان القاضي والعلماء ملاذ المظلومين فكان الحق لا يضيع، ولكن الجميع متكافلين

متضامنين يخافون الله إلا من بعض الملَّاك الذين ٱستولوا علي الأراضي الزراعية بالقوة، وهكذا كنَّا نتحرَّش بالشُّرطة والدَّرك لأقل مناسبة ونهاجمهم بالحجارة، وكان جنود الجيش الفرنسي من السنغال والمليس يشتركون في قمع المظاهرات إذا تطلَّب الأمر، وكنَّا نقابلهم بالحجارة.

كان أكثر ما يشُدُّني ويثير إعجابي فرقة من الخيالة الفرنسية تخرج يوميًّا مخترقة ساحة سوق الحاضر بنظام إلىٰ خارج المدينة وعلمهم يخفق أمامهم يحمله فارسًا ذو لحية طويلة حتىٰ صدره وشاربين مفتولان إلى الأعلىٰ وعلىٰ رأسه عمامة كبيرة جدًا ورداء أحمر، فكان منظره ملفتًا للنظر فكنت أتوقف عن الحركة حتىٰ يمر الموكب ويغيب عن ناظري.

علمت من رجال الحارة أن هٰؤلاء الخيَّالة من إخواننا المغاربة والجزائريين، وهٰذا ما يفسر عدم تعرض أحد من الناس لهم بسوء، فكان بيننا وبينهم شبه هدنة فكنا نحترمهم ويحترموننا فلم يستفزوا أحدًا أو يتعرضوا لأحدٍ من الناس بسوءٍ أبدًا.

كان الناس يطلقون عليهم ٱسم الخيَّالة السباهي وهم مسلمون مثلنا كما قال أحد المسنين وهو يحييهم كلما مروا من السوق.

في إحدى الأمسيات وكنا نسهر نحن الثلاثة، قال مصطفىٰ: يا شباب أنا سأتطوع مع الفرنساوية، قال ذلك وحملق في وجوهنا ليرىٰ أثر الخبر الصاعق، قال عمكم محمد: أعد ما قلت يا مصطفىٰ فأنا لم أفهم ما قلت، أعاد مصطفىٰ مقالته مؤكدًا بأن هٰذِه الحالة لا تطاق، فعلى الأقل سيقبض معاشًا ويلبس ثيابًا جديدة بالمجَّان وأضاف: لقد سمعت أنهم يقبلون متطوعين ليدربوهم حتىٰ يحدثوا جيشًا سوريًا للبلاد، حتىٰ إذا ٱنتهت مهمتهم في البلاد فيكون الجيش مشكلًا وجاهزًا

لحماية البلاد، هكذا قالوا لي، وأكثر من ذلك فإن بعض أبناء العائلات الكبيرة قد تطوعوا ضبَّاطًا في الجيش الجديد، فأنا لست بأحسن منهم، وعلى الأقل سأكون صاحب رتبة عسكرية لأني أقرأ وأكتب وسأكون برتبة سرجان هٰذا ما أكدوا لي، قلت من هم هٰؤلاء الذين قالوا لك؟ قال ٱثنان من السرجانية عرب كانوا يشترون الخضار دائمًا من معلِّمي، وقالا إنهما مستعدان للتوسط لإدخالي الجيش، وإذا كان أحد من رفاقي يرغب بالتطوع فهما سيساعدانه فما رأيكم يا شباب.

غضب عمكم محمد فلم يتكلم وإنما أطرق رأسه أرضًا، أما أنا فقلت يا أخي مصطفى ٱبتعد عن هٰذا الطريق لأنه لا يليق بشاب شهم مثلك، ألا ترىٰ أننا كل يوم نصطدم مع الفرنساوية، ما رأيك لو دخلت معهم ثم أرسلوك لمقاتلتنا فما هو موقفك؟ تأكد بأننا سنضربك بالحجارة كما تفعل أنت ونحن دائمًا فما هو موقفك، إن ضربتنا فأنت خائن كافر، وإن لم ترد علينا وعصيت أوامرهم فأنت خائن بالنسبة لهم لذا أنصحك ٱبتعد عن هٰذا الطريق.

قال مصطفىٰ: خير إن شاء الله سأفكر في الموضوع، ثم سألته ما رأي فوزية بالموضوع قال:

إن فوزية صغيرة ولا تفقه مثل هٰذِه الأمور ولٰكن سأخبرها وأخبر أمي ثم أرى النتيجة.

صمت قليلًا ثم ٱنفجر غاضبًا وقال: الحاجة والفقر نكاد نجوع كل يوم أنا محتاج عندي والدتي وأختي فوزية ولي عمة عاجزة أنفق عليها من أين أطعمهم، والله لا يوجد في بيتنا ما نقتات به إلا ما يجود به علينا معلِّمي وبعض الأخيار، وكثيرًا ما نطوي الليل ونحن بلا طعام، الجوع كافر ولا يرحم، أنا لا أحب الفرنساوية فهم أعدائي ولٰكن ما المخرج من هٰذا الضيق، أنت يا محمد وأنت يا فرحان حالكما كحالي ولٰكن

مسؤولياتكم أقل من مسؤوليتي، وما حيلتي ثم بدأ يبكي بحرقة.

ضربت بيدي علىٰ كتفه مواسيًا قال محمد: أنت أدرىٰ بمصلحتن ٱفعل ما تراه نافعًا لك ولأهلك ونحن معك إلىٰ آخر الدهر توكل علىٰ الله وعسىٰ أن تكون نافعًا في يوم من الأيام إذا ٱحتجنا إلىٰ رجال مدرَّبين.

تطوع مصطفىٰ مع الفرنسيين، أما فوزية خطيبتي فكنت غالبًا ما أتكفل مصاريفها من لباس وبعض الحاجات الضرورية كلما وجدت في جيبي بعض القروش الزائدة وما أقلهما.

مضىٰ علىٰ تطوع مصطفىٰ حوالي السنة حيث حمل رتبة كابورال (عرِّيف) وكان يعمل في مكتب المستشارية وقد بدأ يتعلم اللغة الفرنسية، سألته مرة كيف تعلمت الفرنسية بهٰذِه السرعة، أجابني بزهوٍ وهو يهتز فخرًا لقد تعلمت في مدرسة خاصة ضمن المعسكر.

طرأ تحسُّن علىٰ حال مصطفىٰ وأهله بحيث أن خطيبتي فوزية عيَّرتني مرَّات عديدة بأني حمَّال وبيَّاع خضرة وأبو حمار وهي لا ترضىٰ لخطيبها هٰذا الحال.

حسمت أمرها وتجرأت بطريقة مازحة وقالت: فرحان ٱبحث لك عن عمل غير العتالة وبيع الخضرة فأنا لا أرضىٰ بزوج عتَّال ومعشره حمار، كيف ستعاملني في المستقبل، أنا متأكدة إن طبع الحمار سيؤثر عليك، قالت ذلك وأشفعت كلامها بضحكة دلال ثم هربت إلى البيت واختبأت بين أمي وأمها.

كانت أمي تذكرني دائمًا بأن عليَّ واجب إتمام العرس لأن خطيبتي أصبحت صبية والخطَّاب يزورون بيتهم كل يوم، وقالت مؤنبة: إلىٰ متىٰ تتلكأ في جمع مهرها وحاجات العرس، قلت موضِّحًا: أنت تعرفين البير وغطاه وترين كيف أتعب النهار بطوله علىٰ أمل أن يوفقني الله

وأجمع ما يلزم من المال، ولكن وكما تعرفين ندبر أمر معيشتنا بشق النفس ولا يتوفر معي إلا القليل، إن شاء الله سأشتري لها خاتمًا في أقرب وقت.

في اليوم التالي علىٰ حديثنا هٰذا دخلت البيت مساءً وبعد أن ربطت الحمار وقدَّمت له ما يستحق من العلف والماء، ناديت والدتي وأنا أغسل وجهي وإذ بفوزية قفزت أمامي وأخذت من يدي إبريق الماء وبدأت تصبَّه علىٰ رأسي مازحة وهي تقول: نسيت أن تغسل وجه حمارك! ضربتها علىٰ خدِّها وجذبتها بشدَّة قائلًا لها: ٱذهبي واغسلي وجه معلمك الحمار ليدعو لك بأن يرضي عليك خطيبك، تفلَّتت بدلال؛ قالت: إن أخي مصطفىٰ يسلِّم عليك وعلىٰ محمد وهو مشتاق لكم وقال لي ٱذهبي إلىٰ أم فرحان وسلِّمي عليها وقولي لفرحان إذا وجدتيه بأني أدعوه ومحمد إلىٰ طعام الغداء يوم الجمعة عندنا في البيت، ولي معهما حديث طويل، ثم ضحكت بدلال وقالت: سمعت يا فرحان لقد بلَّغتك الرسالة وعليك تبليغ محمد، ويا ويلك إذا لم تحضر، قلت لها: يا شيطانة أظن أن أخاك سيغرينا بالتطوع مثله، قالت جادة: يا ليتك تفعل على الأقل ستكون زوجًا له قيمة لا عتَّالًا على الحمار، ما قيمتك بين الناس فلو كنت (قبضاي) ومعدل كما يقال يعرفك الجميع ولكن صدِّقني لا قيمة لك بهٰذِه الصفة، أنت يا خطيبي لا تعرف قيمة نفسك، غيِّر هٰذِه المهنة أقول لك وإلا فإنِّي سأقبل أول خاطب جديد يتقدم لي.

ضحكت وقرصتني من خدِّي وقالت: معقول أن تترك غيرك يخطبني وتمايلت وهي تزقزق كالعصفور، ٱندفعت الدماء حارة في عروقي فحضنتها وقبلتها، حاولت التملُّص بارتخاء ثم أسلمت نفسها كليًّا لعناقي.

انتبهت من نشوتي علىٰ صراخ والدتي وهي تقول سوده عليك وعليها ما هٰذِه الفضيحة، فوزية أركضي إلىٰ بيتكم وأنت يا فرحان يا قليل الناموس تريد أن تفضحنا، لا تنس أن فوزية أمانة في رقبتي، إذا لم تتعقل بعد اليوم فلن أدعها تدخل بيتنا وسأحرمك منها حتىٰ يوم العرس، أستر علينا عيب عليك هٰذِه عرضك وشرفك.

قفزت فوزية من بين يدي بخفة ورشاقة بحيث أنكشف ثوبها عن ساقيها العاجيتين وقد مرقت كالسَّهم من باب الدار.

نكست رأسي خجلًا إذ مر بذهني أن هٰذِه أول مرة في حياتي أقوم بهٰذا التصرف الشائن نحن تربَّينا على الغيرة علىٰ نسائنا وبناتنا، ولا يليق بشاب من أبرز شباب الحي أن يقوم بهٰذِه الأعمال الشائنة، ولو كانت الفتاة خطيبتي إن كل النساء أمانة في عنق الرجال فكيف تصرفت بنذالة، بدأت ألوم نفسي وقد خجلت جدًا ولكن لعن الله الشيطان فإن طعم القبلة ما زال يراجعني كلما طردت المنظر من خيالي، وقد وطدت العزم علىٰ أن أوبخها بشدة إذا رأيتها في المرة القادمة، إذ لا يليق بفتاة من حارتنا أن تلمس رجلًا ولو كان خطيبها فكيف بأن يقبلها وهي لا تدافع عن نفسها هٰذا والله العار.

حدَّثت نفسي مهوِّنًا من الأمر إذ إن فوزية تربَّت منذ صغرها معي فنحن دائمًا نلعب معًا وكنا نتشاجر لأقل سبب فكانت تضربني بكل ما يصل إلىٰ يدها عصا أو حجر وأنا أعلم بأنها تحبني كما لم تحب فتاة من قبل، إذ إني كل أملها في الحياة كما كانت تصرح لي على أنفراد.

في يوم الجمعة الموعود وبعد أداء الصلاة في المسجد طرقنا باب أم مصطفىٰ، فتح مصطفى الباب وقال مسلمًا أهلًا وسهلًا تشرف البيت بقدومكم من زمن بعيد لم تدخلوا هٰذا البيت، لاحظت لهجة مصطفىٰ وكلماتها المتزنة فهو يتكلم مثل كبار رجال الأحياء، قلت لنفسي لقد

تغير مصطفىٰ وأصبح رجلًا هامًا وعاقلًا ولو أنه لم يتجاوز العام العشرين من عمره.

دخلنا البيت الذي نعرف كل تفصيل فيه مذ كنا صبيانًا أشقياء نلعب في كل بيوت الحارة، جلس محمد علىٰ حصير وجلست جواره، دخلت أم مصطفىٰ فرحة ضاحكة قالت: أين أنتم لماذا لم أعد أراكم يا عيب الشوم علىٰ تربيتي التي ضاعت ألست أمكم ومربياكم لماذا المقاطعة يا محمد وأنت يا صهري فرحان لماذا لا أراك إلا صدفة، أهلًا وسهلًا بكم يا أولادي.

دار الحديث وديًا حتىٰ قدَّمت أم مصطفى الطعام تساعدها والدتي ووالدة محمد المدعوتين وبعد الأنتهاء من الطعام جلس مصطفىٰ وقد أشعل سيجارة أفرنجية وبدأ ينفخ دخانها ذا الرائحة العطرية.بدأ الحديث متبسمًا وقال: أنتم تعرفون كم أنتم أعزاء علىٰ قلبي، أنتم إخوتي وأنا أخوكم وأقسم بالله لا أقول إلا الصدق، لقد تطوعت مع الفرنساوية وأنا أعيش كما ترون في بحبوحة من العيش وأما ما نخافه من الصدام مع الأهالي فهٰذا لن يحدث إذ أني أعمل في مكتب المستشارية ونحن تقريبًا غير مسلحين ومهمتنا تنحصر في الكتابة والحمد لله نظر إلينا طويلًا متفحصًا ثم تابع وقال والآن ما رأيكم لو سهلت لكم التطوع بعد أن أصبح لديَّ خبرة ومعرفة بالأمور، وموقعي في الخدمة يخولني أن أساعد أيًا كان. ضحك محمد وقال: يا أخ مصطفىٰ أنا لن أتطوع فالكافر يبقىٰ كافرًا وعدوًا لله وللوطن فهم أعداؤنا بأي صفة كانوا، ولكن هٰذا فرحان أمامك إذا أراد أن يتطوع مثلك فأنا موافق لأنه بحاجة للمال لتحسين الأحوال وليتم زواجه، ثم قال: يا فرحان توكل علىٰ الله وتطوع لتستفيد فائدتين؛ الأولىٰ: أنك تستر نفسك وتتزوج لأنك علىٰ حالك هٰذا لن تستطيع أن تشتري خاتمًا لعروستك فكيف الزواج.

والثانية: وهي الأهم أن تتدرب على الحرب والقتال وأنا علىٰ ثقة مطلقة بأنك لن تطلق النار علىٰ أهلك ووطنك ولو أصدروا لك ألف أمر بالضرب، ثم وعند الضرورة بإمكانك أن تهرب بسلاحك وتحارب وأنت صاحب خبرة بالحرب، وقد سمعتم مثلي من آبائنا بأن الخبرة في القتال والتنظيم كانت تنقص المجاهدين من جماعة الشيخ صالح العلي وجماعة إبراهيم هنانو.

اذهب يا فرحان وتدرب فلا نعرف ماذا تخبئ لنا الأيام مع هٰؤلاء الملاعين توكل علىٰ الله واجعل نيتك علىٰ ذلك.

وهكذا أقنعني بالتطوع علىٰ هٰذا الشرط أعز ٱثنين عندي عمكم محمد هٰذا الجالس أمامكم ومصطفىٰ رفيق عمري وأخو خطيبتي وحبيبتي.

لا أنكر أن غايتي الأولىٰ كانت الوصول إلىٰ إمكان أن أتزوج بأكبر سرعة ممكنة وذلك لشدة شوقي وحبي لفوزية، ثم قال فرحان: ٱسألوا عمكم محمد هٰذا عن صحة ما أرويه الآن لأن ذاكرتي ٱحتفظت بشدة بهٰذِه الأحداث رغم أني نسيت كثيرًا من الأحداث المهمة وكثيرًا من أسماء الرجال الذين صادفتهم خلال محنتي الطويلة.

قال ذلك ثم ٱستأذن من محمد ومنا ثم غادرنا علىٰ أن يلقانا غدًا في الموعد نفسه والمكان نفسه.

وبعد فترة من الصمت الذي ران علىٰ جلستنا سأل رفيقي فخري العم محمد قال: عمي محمد كيف يتذكر هٰذِه الأحداث بدقة بعد مرور ستة وعشرين سنة من المحن والشدائد، قال محمد وعلىٰ طريقته في الرزانة متمهلًا: يا بني إن لكل إنسان ذكريات تبقىٰ راسخة في ذاكرته مهما تقادم الزمن عليها إذ أنها هي التي تحدد مسار حياته وسعادته أو شقائه، ولا تنسوا أننا في ذلك الزمان كنا صغارًا مثلكم الآن لم نبلغ

العشرين من العمر.

إن ذكريات الطفولة والشباب الباكر لا تنسىٰ أبدًا وخصوصًا إذا كانت متعلقة بمن تحب أو تكره، إن عمكم فرحان كان متعلقًا بمخطوبته فوزية كثيرًا أما هي فكانت تبادله العواطف نفسها بل أشد. سأل فخري قال يا عمي أين فوزية الآن هي وأفراد أسرتها اليوم، فنحن لا نعرفهم رغم أنهم أبناء حيِّنا وكنا أحيانًا نسمع من يتحدث عنهم من رجال الحي المسنين.

قال العم محمد معلِّقًا على السائل: أما فوزية فقد تزوجت من أحد أبناء الحي بعد محنة زوجها فرحان وطلاقها منه ثم غادروا المدينة إلى الأردن بعد أن طرد مصطفىٰ من الجيش الفرنساوي ودخوله السجن لمدة عام عقوبة علىٰ عصيانه الأوامر بضرب أبناء بلده.

سألت العم محمد إذا كان يوافق علىٰ كتابتي لقصة فرحان فأومأ موافقًا علىٰ أن يستأذن لي فرحان وقال: أحضر أوراقك غدًا واكتب ما سمعته أولًا حتى الآن ولا تنسىٰ أني شاهد علىٰ كل رواه عمكم فرحان، قوموا إلىٰ بيوتكم.

* * *

الفصل الثاني

في اليوم التالي حضر فرحان في الموعد بدقة وكنا مجتمعين بانتظار قدومه، وقد أحضرت معي دفترًا وقلمًا لأسجل الوقائع المهمة في هٰذِه الرواية .

أخذ فرحان مجلسه ثم بدأ روايته قال: أقنعني مصطفىٰ بالتطوع بعد أن وافق عمكم محمد كما سمعتم البارحة، وقد حدَّثت نفسي ورسمت مخطَّطًا زمنيًا إذ سوف أنهي خدمتي بمجرد ٱنتهاء مدة الخمس سنوات التي سوف أوقع عليها ولن أمدد الخدمة، علىٰ أن أتزوج مما أوفره من راتبي، ويمكن أن أستطيع توفير مبلغًا إضافيًا بعد زواجي من فوزية ليكون مقدمة لاشتغالي كتاجر صغير.

زين لي الشيطان هٰذِه الأمنيات ولٰكن للصدق فإن قلبي كان يكذبني بصمت، أما والدتي فقد وافقت

لبساطتها وقد رأت ابن جارتها مصطفىٰ وقد ٱنقلبت أحواله من الفقر المدقع إلي نعمة ظاهرة فطمعت أن أكون مثله وينعم الله علينا ونقبر الفقر، وقد دعت لي الله بأن يحميني من كل شر.

أما خطيبتي فقد أظهرت فرحتها لي سرًا وبأن يوم العرس سيكون قريبًا لأضمها وتضمني ورفعت يديها إلي السماء وقالت يا رب ٱحفظ عريسي فرحان وقرب يوم العرس يا رب، ثم ضربتني علي صدري وهربت باتجاه أمي فرحة مسرورة.

وقع المحظور السيئ إذ رافقت مصطفىٰ إلي الثكنة الكبيرة المشرفة علي المدينة وقد كنا نراها من بعيد وعلي بابها الخارجي حارسان

شاهرين حرابهما، كم كنا نشتهي أن نعرف ما بداخلها، أما الآن فقد تحقق ما كنت أشتهي فقد دخلت مع رفيقي مصطفي إلي داخلها ولا أنسىٰ كيف أن قلبي آنقبض مما شاهدته في الداخل، فقد شعرت أني دخلت وكر الأفاعي، إذ رأيت وبنظرة سريعة وبعين البصيرة أن كل شيء هنا يعادي ولا يمت إلينا بسبب.

هنا عالم آخر ولكن الأوان قد فات إذ سحبني مصطفىٰ إلىٰ غرفة كبيرة وقدمني إلىٰ رجال غريبي الأشكال بعد أن كلمهم بالفرنساوي، قال أحدهم بعربية مكسرة: ما آسمك، قلت: فرحان الأحمد، قال: فرهان أهمد، تبسمت وهززت رأسي، قال ناولني هويتك ثم بدأ يكتب في دفتر أمامه، أشار لي أن أجلس علىٰ كرسي قباله فجلست. تركني مصطفىٰ وقال إذا آنتهيت نعد إلى المنزل، سأراك في الحارة وذهب وتركني لوحدي شعرت أن العرق البارد يجري علىٰ ظهري، وقد ظهرت قطرات منه علىٰ جبيني مسحتها بمخرقة كانت معي. بعد ساعة وقد كثر المتطوعين مثلي، خرج من غرفة جانبية عسكري وصرخ، فرحان الأحمد تعال، ثم أخذني من يدي وأدخلني إلىٰ غرفة فيها العديد من الرجال بألبسة مختلفة ووجوه عابسة، أشار أحدهم وكان ذو لحية قصيرة برداء أبيض أن أقف أمامه، أطعت ووقفت حيث أشار، قال مساعده بلغة عربية وكان واضحًا أنه عربي: آخلع ثيابك وقلت متعجبًا لماذا؟ قال إن الطبيب يريد أن يكشف عليك، أجبته بأني لست مريضًا، تبسَّم وكلَّم الطبيب الذي ضحك بهدوء ورزانة وقال بسرعة (آلي آلي) بالفرنسية، صاح معاونه آخلع ثيابك هٰذا القانون كل من يريد التطوع يجب أن يكشف عليه حتىٰ يكون جنديًا صالحًا للجيش، لا تخف آخلع بسرعة. خلعت ثيابي وبدأ الطبيب ينظر إليَّ طويلًا ثم بدأ بفحصي حتى آنتهىٰ، **قال وقد ربت بكفه** علىٰ ظهري (بو بو) قلت للمعاون ماذا يريد

بكلامه هٰذا؟ أجابني إن الطبيب قال جيد جيد جدًا لقد أجب بشكل جسمك الجميل، البس ثيابك واذهب. أخذوني إلىٰ هيئة أخرىٰ وسألوني عما أعرف من الكتابة والقراءة، ثم أعطوني كتابًا قرأت فيه وورقة وقلمًا ٱستكتبوني بعض الجمل ثم صرفوني، قال أحدهم ٱحضر الأسبوع القادم يوم الاْثنين ٱذهب إلىٰ بيتك أنت من المدينة أجبته بهزة من رأسي وانصرفت مهرولًا إلي الحارة. في اليوم الموعود رافقت مصطفىٰ إلى المعسكر ودخلت إلى المبنىٰ ذاته وقد هنَّأني صديقي مصطفىٰ قائلًا لقد قبلوك يا فرحان بدرجة ممتاز وسيكون لك مستقبلًا، ثم أدخلني إلىٰ غرفة فيها ثلاثة ضبَّاط ٱثنين فرنسيين وواحد يتكلم العربية بلكنة معوجَّة، بدأت أسئلتهم توجَّه إليَّ عن طريق الضابط العربي، مثلًا: ما ٱسمك، كم عمرك، ماذا تعمل، كم أخ لك، والدك حي، أمك، وهكذا إلىٰ أن سألني أخيرًا السؤال المهم، لماذا تطوعت في جيش الشرق، أجبته بصدق لأني بحاجة إلي عمل وحياة أفضل. نقل كلامي إلىٰ زملائه الذين ضحكوا، قال أحدهم (بو بو) سألت ماذا يقول ولماذا يقرص في فمه، لقد سمعت هٰذِه الكلمة من الطبيب، ضحك الكابتن وقال إنهم أعجبوا بصدقك، ٱذهب أنت مقبول عد غدًا وأكمل الإجراءات لقد قبلوك بدرجة ممتاز، ونظرًا لفتوتك فقد سجَّلوك لترسل إلىٰ مدرسة المدفعية، ستدرس هناك لمدة سنة ثم تتخرج برتبة كوبرال مدفعي وأمامك المستقبل لترتقي سلم الرتب الأعلىٰ إذا أظهرت إخلاصك والجد في المهنة، مبروك ٱذهب.

عدت في اليوم التالي باكرًا برفقة مصطفى الذي سلمني إلىٰ من يهمه الأمر وتركني بين أيديهم وقد قاما بكامل الإجراءات، وقعوني علىٰ أوراق وصوروني، ثم ساقني أحدهم إلىٰ مستودع الألبسة حيث سلَّموني لباسي العسكري.

قادني عسكري إلىٰ أحد الأبنية الطويلة المسقوفة بالقرميد الأحمر ومليئة بأسرة حديدية صغيرة واختار آخر سرير في الصف الطويل وقال: هنا مكان نومك، بدِّل لباسك وانتظر لتسمع صوت البوق، ثم ٱخرج وخذ معك هٰذا الصحن والملعقة حتىٰ تتناول طعام الغداء، ٱبحث عن صديق بين العساكر فهٰذا ضروري حتىٰ تستأنس ويساعدك في التعرف علىٰ حياة الجنديّة في المعسكر، ودعني وانصرف متمنيًا لي السلامة قائلًا إذا لزمتك مساعدة فلا تتردد في إخباري إن مصطفىٰ صديقي.

وضعت كيس المهمات الكبير وأخرجت لباس الجندي ونظرت إليه طويلًا، شعرت أن هٰذا اللباس قطعة من نار، بدأت بخلع لباسي العربي، حدَّثت نفسي بصوت سمعته آذاني، الآن يا فرحان بدَّلت جلدك العربي المسلم بجلد كلب من كلاب الأفرنج الكفَّار يا فرحان إن أباك قتل وهو يحاربهم دفاعا عَن الوطن والدِّين. وبما أن الندم غير مجدٍ فقد لبست بسرعة وأنا أتأمل نفسي مع كل قُطعة ألبسها، أيقظني من هلوستي بوق يطرق برتابة، حملت صحني وملعقتي من الكيس وخرجت مسرعًا، ٱختلطت بالعساكر وهي تتجمع بنظام، رمقتني عيون لا أدري كيف أصفها لكم، أشكالًا وألوانًا سمعتهم وهم يتكلمون بلغة ركيكة مع همهمات مبهمة، وبعضهم وهم الغالبية من العساكر يتكلمون بلهجة ريفية، طرق علي كتفي عسكري طويل القامة له شاربان طويلان مفتولان، قال: يا رفيق إن لباسك العسكري ناقص وارتدائك له غير صحيح وكأنك تلبسه لأول مرة، أنت جديد هنا؟ قلت: نعم ولٰكن البوق قطع عليَّ إكمال لباسي فخرجت كما تراني وأنا جائع فما رأيك الطعام أولًا أو اللباس، تبسم شاربه فذهبت كل فردة منه إلىٰ جهة معاكسة للأخرىٰ إلىٰ أن وصلا إلىٰ أذنيه قال بلهجة واضحة ثقيلة: الحقيقة يا رفيقي الطعام أولًا معك حق وإلا لما كنا هنا نتدافع لنأكل،

إن الطعام هو الدافع الأول لوجودنا هنا، ثم بدأ يدفعني أمامه في الصف الطويل حتىٰ أصبحت أمام براميل الطعام، مددت صحني إلى الطبّاخ الذي وضع فيه مغرفة كبيرة من الرز ملأ بها نصف الصحن ثم ناولني رغيفًا كبيرًا جدًا لم أرىٰ مثله من قبل.

دفعني صاحبي جانبًا لأقف أمام براميل أخرىٰ، مددت صحني فملأه بمغرفة أخرىٰ من اللحم والمرق الأحمر مع الفاصولياء، تنحّيت جانبًا ووقفت أحمل طعامي حتىٰ لحقني ذو الشاربان، قال وقد جلله العرق، ٱتبعني يا رفيق ومشىٰ مسرعًا إلىٰ مرجة صغيرة من العشب الأخضر حيث جلس وأشار بيده أن أفعل مثله، جلست بجانبه وبدأنا بتناول ما في صحوننا علىٰ مهل، سألني ما ٱسمك يا رفيق ومن أي جهة أو قرية أنت، أجبته وقد توقف عن الطعام متعجبًا وقد رفع حاجبه عندما قلت له أنني من المدينة من حماة، قال وماذا أتىٰ بك إلىٰ هنا هٰذا ليس مكانك؟ أجبته إن الذي أتىٰ بك هو الذي دفعني لسلوك هٰذا الأمر، هز برأسه وتابع تناول طعامه بطريقة لم أر مثلها إلا أثناء المجاعة، قلت لنفسي يا فرحان أكيد أن هٰذا الرجل من بقايا جوعى الحرب وهو لم يشبع حتى الآن فكل جوارحه تنطق بالجوع، كان شكله وهو يبتلع اللقمة غريبًا فهو يصدر كرقعة وصرصرة وكأن حلقه بحاجة إلىٰ تشحيم، ٱنتهينا من ٱبتلاع ما في الصحون وطبعًا قد سبقني صاحبي كثيرًا، وقف فجأة وقال تعال معي وتحرك بهمة ونشاط إلىٰ صفٍ صغير من حنفيات المياه المتدفقة، غسلت صحوني ومعلقتي، وفي طريق العودة ٱستوقفني ونظر في وجهي وقال إذًا أنت من أبناء هٰذِه المدينة وأشار بيده إليها قلت نعم من هٰذِه المدينة وأشرت بأصبعي مادًا يدي عن آخرها باتجاه موقع حارتنا هناك بيتي في آخر الحارة قريبًا من النواعير، نظر إليَّ بنصف عيونه ثم فجأة ضرب بيده الثقيلة علىٰ كتفي ومد يده مصافحًا وقال ما

ٱسمك يا شب عرفني علىٰ نفسك، فرحان الأحمد يا أخ أجبته وقد رددت عليه سؤله ما ٱسمك يا أخ، سالم الخضر من القرى الغربية القريبة من المدينة، وللأسف لم أعد أذكر ٱسم قريته أخذ بيدي ورافقني إلىٰ مبنى النوم حيث أدخلني أمامه وقال: أين سريرك، أشرت إليه قال الآن سأعلمك كيف ترتدي ملابسك بسرعة، قال ٱخلع لباسك، قال أطعته ونزعت عنِّي كل ما ألبس حتىٰ وقفت شبه عاري إلا من سروالي الداخلي، قال وقد حمل القميص الداخلي ٱبدأ من هٰذِه القطعة أولًا ثم أكمل بدأت بارتداء كل قطعة ناولني إيَّاها حتىٰ أكملت لباسي التام، وقف بعيدًا قليلًا ونظر إليَّ وقال جميل إنك عسكري أصلي ما شاء الله لم مثل قامتك الجميلة حتى الآن، ثم صرخ بالفرنسية ولمَّا لم أتحرك لعدم فهمي ما قال هز أصبعه في وجهي، قال ٱحفظ هٰذِه الكلمة يا فرحان لأنك ستسمعها كثيرًا من الآن، إنها كلمة الأستعداد فهمت نعم يا سالم وكررتها أمامه مرارًا حتىٰ حفظتها، قال ٱتبعني فرحان لقد تأخرنا على التجمع أسرع وخطا إلى الخارج بقوة، تبعته وأنا أحاول تقليده وصلنا إلىٰ ساحة كبيرة يتوسطها حوض دائري في داخله عمود سارية حديدي طويل يحمل في أعلاه العلم الفرنسي.

جاء أحد العساكر وبيده بوق أصفر لامع، وقفت بجانب السارية ورفع البوق وبدأ النفخ بنغم سريع وكأنه يستغيث، رأيت العساكر تهرع متراكضة متدافعة من كل جهات المعسكر ثم بدأت الصفوف تنتظم، قبض سالم ذراعي وأدخلني ضمن أحد الصفوف، وقال يا فرحان هنا مكانك مع العساكر الجدد ثم تركني وذهب إلىٰ رتله، توقف البوق فجأة، سمعت أصواتًا حادة تصرخ بالفرنسية، أما أنا فمثل الأطرش في العرس لا أدري كيف أتصرف، لذا وقفت مثل باقي العساكر في رتلي أقلِّدهم بحركاتهم. حضر عدد من الضبَّاط الفرنساوية حمر الوجوه

بعيون زرقاء ثم ٱصطفُّوا نظام جميل يحملون السيوف في مناطقهم، وقف كل ضابط أمام أحد الأرتال، وبعد قليل حضر ضابط كبير في السن يعتمر قُبَّعة مذهبة ومن ورائه ضبَّاط عديدون. بدأ الصراخ كل ضابط علىٰ حدة أمام رتله، وقد رفعوا أيديهم وقد قبضوا على السيوف المجردة بالتحية العسكرية.

اختلط الأمر علي إذ لم أفهم لمَا هٰذا الٱحتفال ولمن، قلت لنفسي هٰذا ليس من شأنك يا عسكري فرحان ٱفعل كما يفعلون، المهم أن أقبض معاشي آخر الشهر والطعام هنا كثيرًا بدون أن تدفع قرشًا ثمن طعامك، إذًا حالي عال العال فخار يكسر بعضه يلعن أبوهم ويلعن أمهم، توقفت عن محادثة نفسي إذ توقف الٱحتفال والصراخ وحركات المجانين، سمعت ضابط رتلي يلقي أوامره إلىٰ من هم أقل منه رتبه، صرخوا بدورهم وإذ بالرتل يتحرك مستديرًا يمنة، بقيت لوحدي بوضع معاكس للصف بشكل مضحك، أدارني أحدهم بعنف، أطعته بسرعة ثم بدأ المسير بنظام واحد ضاربين الأرض بأرجلهم ملوحين بأيديهم إلى الأمام والوراء، مما جعلني أحدث ٱضطرابًا في الرتل، أمر السرجان الرتل بالوقوف، طبعًا كنت لا أفهم معنى الأوامر إنما أحاول أن أقلد الصف بشكل مضحك، ٱقترب مني السرجان وقال بالعربية، تعالىٰ إلىٰ هنا ما ٱسمك؟ أجبته فرحان الأحمد، قال أنت جديد هنا كم يوم لك في الثكنة؟ قلت أنا جديد وهٰذا أول يوم لي هنا، قال ٱذهب إلىٰ تلك الفرقة هناك وأشار بيده مكان هناك أسرع، ثم تركني وعاد إلىٰ صراخه على الرتل وكأني لست موجودًا، ذهبت حيث أشار لي متمهلًا، ولما وصلت رمقني قائد الفرقة الصغيرة وكان يحمل شرائط علىٰ كميه وكتفيه، قال بالعربية ٱقترب، وقفت أمامه، قال ٱسمك يا عسكري؟ كررت ٱسمي للمرة العاشرة في ذلك اليوم، قال ٱذهب إلىٰ تلك الفرقة هناك مكانك

ثم أرفق معي عسكريًا أوصلني وسلمني إلىٰ سرجان حيث أ دخلني في الرتل، قال ما ٱسمك؟ فرحان الأحمد وهٰذا أول يوم لي في الثكنة، قال ٱدخل الصف وحاول أن تقلد رفاقك، الجميع هنا مستجدين لا تخجل ستتعلم بسرعة، ثم بدأ الصراخ بالفرنسية، كان منظره مثيرًا لضحكي وهو يرقص أمام الصف محاولًا تعليمهم الحركات مر علىٰ وجودي في المعسكر شهرًا كاملًا وأنا أتدرب مع الجنود على السير بنظام علىٰ وقع الأوامر بالفرنسية، مما جعلني ٱحفظها جيدًا وقد تميزت على الجميع بسرعة تعليمي، في الشهر الجديد جاء الذي تطوعت من أجله، دفع الرواتب والمعاشات، وقف الطابور للقبض، ولما جاء دوري ناولني سرجانًا كان يجلس وراء طاولة مُلأت بالنقود من كل اللغات.

ناولني معاشي إحدىٰ عشرة ليرة سورية ونصف، وكدت أطير من الفرح وأنا أقلب الورقات الملونة بين يدي نادى السرجان ببعض الأسماء جاء دوري، فرحان الأحمد، إجازة ثلاثة أيام ٱذهب. مررت على الكوبراتيف واشتريت زجاجة عطر ومنديلين ملونين وقطعة من القماش لوالدتي وبعض الأطعمة الغريبة علينا واتجهت إلىٰ بيتي.

أرسلت زجاجة العطر إلىٰ خطيبتي ومنديلًا إلىٰ حماتي وناولت والدتي المنديل وقطعة القماش، ٱنتهت الإجازة بسرعة قضيتها مع أهل الحارة وعلىٰ رأسهم أخي محمد، عدت إلى المعسكر باكرًا ٱنتظمت في طابور الصباح بعد أداء التحية للعلم، وقف كابتن وبدأ يقرأ بعض العساكر من ورقة في يده قرأ فرحان الأحمد صرخت كالعادة أنه موجود. ٱنتهىٰ من القراءة وقال كل من سمع ٱسمه فليتبعني ثم ٱنفتل علىٰ عقبيه واندفع باتجاه المبنى الرئيسي حيث تبعناه بنظام ووقف علىٰ آخر درجة من درجات البناء وقال: أنتم قد وقع عليكم الٱختيار لإرسالكم

إلىٰ مدرسة المدفعية في حمص، جهزوا أنفسكم بعد ساعة ستركبون القطار، اْذهبوا واحضروا أمتعتكم حالًا. ركضت إلىٰ عنبر النوم وعبأت كل ما عندي في الكيس وحملته علىٰ ظهري مسرعًا إلىٰ مكان التجمع حيث قادنا سرجان إلىٰ محطة القطار، ركبنا كلنا في واحدة إذ كان عددنا ثمانية عساكر وقد لاحظت أن أغلبهم من ناصري لبنان ثم صار القطار حتىٰ وصلنا محطة حمص حيث توقف القطار ونزلنا علىٰ رصيف المحطة، كان هناك كابتن أسمر الوجه له جاذبية أخاذة ينتظر وصولنا ومعه بعض السرجانية، سألت أحد الرفاق من الموجودين معي، من هٰذا الكابتن الأسمر الجذاب إنه ليس فرنسي أجابني لا أعرف وعلىٰ ما أظن وحسب ما سمعت إنه مدرب المدافع الكابتن عبد القادر الجزائري وصلنا إلىٰ ثكنة حمص حيث أدخلونا في مبنى النوم والدرس وقد سبقنا عساكر من مدن أخرىٰ للالتحاق بهٰذِه المدرسة حيث وصل عدد الجميع إلىٰ خمسة وستين عسكريًا.

في اليوم التالي بدأ أول درس باللغة الفرنسية لتعليمنا اللغة قراءة وكتابة، وهكذا اْستمرت هٰذِه المدرسة لمدة سنة كاملة حيث تحولت اللغة الفرنسية إلى التفاهم الرسمية ولم نعد نتكلم العربية حتىٰ بيننا في الاْستراحة أو النوم وقد حظر ذلك علينا، وكان التدريب على المدافع نهارًا ودروس اللغة الفرنسية ليلًا، وقد علمت أن هٰذِه المدرسة لتخريج مدافعيين ذوي رتبة صغيرة ثم يبدأ المتطوع بالصعود في درجات الرتب بالأقدمية وحسب براعة العسكري في السلاح والإطاعة وهكذا، وقد رأيت في ثكنة حمص العجب مما لم نألفه في معسكر حماه، إذ اْستغربت جدًا من وجود مبنىٰ مقابل للمعسكر مخصص للعاهرات مع وجود دكاكين لبيع الخمر بجانب بيت العاهرات فكان العساكر يرتادون هٰذِه الأماكن بعد اْنتهاء عملهم، فكان أحدهم يدخل إلى الخمارة

فيشرب ما طاب له ثم يدخل مبنى العاهرات. أظهرت اشمئزازي من هٰذِه المناظر الشنيعة، ولله الحمد لم أقترب من أي منهم رغم كل الدعوات من رفاقي، قال أحدهم وهو لبناني ماروني معلقًا علىٰ سلوكي أنت يا فرحان شاذ عن هٰذا الجيش لماذا تطوعت إن هٰذا الجيش ليس لأمثالك، وأنتم الحمويون أعداء لفرنسا، فكيف انتسبت لهٰذا الجيش متطوعًا، أنا علىٰ ثقة أكيدة أنك ستنقلب عدوًا لهٰذا الجيش وفرنسا في أول معركة تحدث مع أي مدينة أو قرية في هٰذِه البلاد، أما هٰؤلاء الطوائف وخصوصًا اللبنانيين الموارنة كانوا يحملون من الحقد علىٰ كل ما هو عربي ومسلم الشيء الكثير إذ كانوا يعتبرون أنفسهم فرنسيين في الشرق. أما باقي الطوائف المتعددة فكانوا يعتبرون وجودهم جنودًا في الجيش الفرنسي فرصة ذهبية للانتقام من أهل البلاد المسلمين، وكانوا يتقوون في الوجود الفرنسي علىٰ أهل بلادهم من المسلمين قال لي أحدهم شامتًا.

يا فرحان إن فرنسا صديقتنا وقد أنقذتنا من تسلطكم علينا، وسيأتي اليوم الذي نصبح فيه نحن حكام هٰذِه البلاد بعد خروج فرنسا من سورية، أجبته وقد دهشت لهٰذا الحقد الذي لم نكن ندري به قبل اليوم، أجبته وقد تعجبت من كلامه.

لو كنا نحن المسلمين بهٰذا القدر من التعصب الديني كما تقول إذًا فسرلي وجودك حتى الآن نصراني أنت وأمثالك من الطوائف النصرانية وغيرها من الطوائف.

إذا كنا متعصبين كما تعتقد فلماذا لم نجبركم علىٰ ترك دينكم والتحول إلى الإسلام بالقوة ونحن قادرون علىٰ ذلك قبل اليوم.

وكان من أثر ذلك دخولي في شجار دائم معهم، وقد ضربت أحدهم وأظن أن اسمه أنطوان ضربًا مبرحًا حملوه علىٰ إثر المشاجرة

إلى المستشفىٰ، وأدخلوني السجن بعد محاكمة قصيرة حيث دافعت عن نفسي أمام الضباط.

وحتىٰ أضع حدًا لكل من تحدثه نفسه بالتحرش بي، وقفت أمام الجميع متحديًا؛ قلت: إن كل من تحدثه نفسه بالإساءة إلىٰ ديني أو بلادي فسألحقه بأنطوان فورًا وبدون تردد إن لم يكن الأسوأ، وقد أسمعتهم من الشتائم ما لم يسمعوا بمثلها أبدًا متحديًا بذلك مشاعرهم وبما أنهم جبناء فقد أظهر الجميع لي الاحترام، ولا أنكر أن بعضهم كان مهذبًا ومؤدبًا وعلىٰ خلق رفيع ولكنهم قليل بين هٰؤلاء الحاقدين.

انتهت المدرسة بتفوقي على الجميع بدروس اللغة الفرنسية، وإتقان استخدام المدفع وإدارته ونلت علىٰ أثرها رتبة كوبرال مدفعي مع هدية صغيرة ووسام.

أعادوني ورفاقي إلىٰ ثكنة حماة حيث أحدثوا فرقة مدفعية عيار خمسة وسبعون وخمسة وستون مليمتر، وقد عينت في البطارية الثالثة من مدفعية خمسة وسبعون، كان آمر الفرقة الكابتن عبد القادر الجزائري أحد مدربينا في مدرسة المدفعية، كان ضابطًا مميزًا حتىٰ بين الفرنسيين بصرامته وشدته، كان لا يقبل من الرجال الذين تحت إمرته إلا أن يكونوا مثله تمامًا، أما خارج الخدمة فكان أبًا وإنسانًا عظيمًا في أخلاقه وتصرفاته المتواضعة، وكنت محظوظًا أن أخدم تحت إمرة هٰذا القائد العظيم، كان الجيش الموجود في ثكنة حماة مؤلفًا من خليط عجيب من الأجناس والأمم والألوان، وكان السود العنصر الغالب بين العساكر، الجميع يتكلمون الفرنسية ولكن عندما يجتمع اثنان أو أكثر من قومية واحدة أو طائفة واحدة فإنهم يتكلمون بلغتهم الأصلية، وأكثر ما كان يستهويني وأحببتهم من هٰذِه الأمم، الأفريقيين السود وغالبيتهم من السنغال والكاميرون والعجيب أنهم مسلمون متمسكون بدينهم، فكنت

أتقرب منهم وذلك لبساطتهم ولكنهم الظاهر كانوا سريعي التآلف صادقين في مشاعرهم، وبما أني لوني أبيضًا وخصوصًا لون عيوني أخضر كان يحدث لهم بعض الإرباك والحذر، كنت أرىٰ ذلك في وجوههم، وفي النهاية وبعد أن عرفوا أني مسلم ومن أهل المدينة ٱستطعت أن أكسب صداقتهم واحترامهم وقد ٱتخذت العديد منهم أصدقاء مخلصين، أما عنبر النوم الذي كنت رئيسه فلم ٱتخذ منه أي صديق لما شعرت به من الجفاء والخشونة في معاملتي ما عدا صديقي القديم سالم، الذي كان يتودد إلي بشكل واضح، لذا ٱكتفيت به عن مصادقة الآخرين مضىٰ علىٰ وجودي في الثكنة شهر كامل لم أر والدتي بعد آخر مرة عند تخرجي من المدرسة لذا طلبت إذنًا ليوم واحد لزيارة أمي من الكابتن عبد القادر أجابني كوبرال فرحان غدًا ٱقبض راتبك وخذ معك بعض الطعام واذهب إلىٰ أمك لمدة ثلاثة أيام.

في اليوم التالي ٱنتظمت في الصف لقبض المعاشات ولما حان دوري أخذت من المحاسب ظرفًا مغلقًا مُعنْونًا بالفرنسية بعد أخذ توقيعي، فتحت الظرف وأنا أسير الهويني مبتعدًا، عددت النقود إحدىٰ عشر ليرة سورية ونصف بالتمام والكمال، وهٰذا أكبر مبلغ قبضته في حياتي، سرت الفرحة في أوصالي فكدت أرقص لولا أني تماسكت، أفقت من فرحتي علىٰ صوت مصطفىٰ يصرخ أين أنت يا فرحان من شهر لم أرك لماذا لم تسأل عني هل نسيتني؟ أجبته بابتسامة عريضة أهلًا أخي مصطفىٰ، ناولني ورقة مطبوعة بالفرنسية قائلًا هٰذِه إجازتك تعالىٰ معي سنذهب إلى الحارة الآن ثم تأبط ذراعي بود ظاهر مبتعدين عن الثكنة باتجاه المدينة، وصلنا إلى الحي، وقد تجمع حولنا الأطفال وكل يحاول أن يلمسني أو يحاول السلام بطريقة ساذجة مضحكة إنهم أطفال، وكانت النساء تفتح أبواب البيوت وتمد الرؤوس المغطاة وكنا

نسمع كلمة ما شاء الله اللهم صلي على النبي، صرخت إحدىٰ جاراتنا أم محمود، فوزية جاء عريسك يا فوزية.

وصلنا إلىٰ بيت مصطفىٰ فتح الباب بسرعة وظهرت فوزية ووالدتها وقد أطلقت زغرودة عالية شعرت معها بأني أذوب خجلًا، وقد رمقت فوزية بنظرة حادة مع ٱبتسامة غير إرادية، قلت لحماتي غاضبًا ٱسكتي يا خالتي عيب ما هٰذِه التجريصة، صرخت فوزية بصوت مسموع الحمد لله على السلامة يا فرحان، تجاهلت الإجابة وخاطبت حماتي.

كيف حال خالتي أم مصطفىٰ، قالت وقد قبضت علىٰ يدي وجرتني ورائها إلىٰ بيتنا حيث فتحت باب الدار: تعال إلىٰ أمك إنها في الداخل، في تلك اللحظة جذبتني فوزية من يدي وقالت لأخيها، مصطفىٰ قال: نعم يا أختي، قالت: تعال معنا إن خالتي أم فرحان مشتاقة لك، وبما أن هٰذِه الجرأة والحرية التي أبدتها فوزية أمام الجميع قد خرقت العرف والعادة من الحياء المفروض وجوده في تصرف الفتيات والنساء عامة.

و لو أن هٰذِه الحادثة وقعت خارج حينا الصغير المغلق لحدث ما لا يحمد عقباه من النساء قبل الرجال، ولكن الألفة بين الناس في حارتنا التي جمعتهم خصوصًا أيام الجوع وشدته وعرفانهم لمساعدتي للجميع بالاشتراك مع مصطفىٰ وعمكم محمد في حينها إذ إن نساء الحي جميعا كانوا يعتبروننا أبناءً لهم، لذا كنا نحن الثلاثة مدللين جدًا ومعاملتنا تختلف عن جميع الشباب، وللاعتبارات المذكورة فقد كانت معاملتي كأني الٱبن أو الأخ لكل ٱمرأة أو فتاة لذلك لم يبد الأمر شاذًا أو مستهجنًا فقد أظهر الجميع فرحتهم ما عدا محمود ابن جارتنا وجارنا، إذ كان يحاول منافستي علىٰ فوزية ولكن في الخفاء ولم يتجرأ يومًا علىٰ إظهار رغبته تلك إلا أمام والدته التي كانت تمنعه بشدة من

الإفصاح عن طلبه بخطبته فوزية وتذكره بفضلنا عليهم أثناء الشدة وبأن فرحان له الفضل عليه وعلىٰ أهل بيته جميعًا فكان يكتم رغبته بصمت المقهور الضعيف.

زغردت أمي بصوت عال وقد خنقتها الدموع وعانقتني وهي تبكي، أغلق مصطفىٰ باب الدار ودخلنا إلى الغرفة الوحيدة الصالحة في البيت وافترشنا حصيرًا عتيقة كان والدي رحمه الله قد آشتراها لأمي قبل ذهابه إلى الحرب التي لم يعد منها، قبضت أمي بكلتا يديها علىٰ راحتي وهي تشرق بدمعها، قالت ثلاثة أشهر، هكذا كل ثلاثة أشهر أراك مرة واحدة، ما هٰذِه الوظيفة يا بني آتركها ويرزقنا الله يكفيني أني فقدت أبيك والآن أفقدك، ماذا لو أرسلوك إلىٰ حرب جديدة، قلت يا أمي ليس هناك حرب أنا تطوعت لمدة خمس سنوات علىٰ أن لا أغادر بلادي آسألي مصطفى، التفت إليه وقلت: مصطفىٰ فهّم والدتي وقل لها نحن خدمتنا محصورة في بلادنا، قل لها.

صحيح ما قال يا خالتي نحن هنا ولن نغادر بلادنا، بعد أن ينتهي فرحان من التعليم سيأتي كل يوم إلى البيت للمبيت لا تخافي، قالت فوزية بنبرة حادة: متىٰ سينتهي تعليمك كم سنة؟ ضحك مصطفىٰ وأجاب ثلاثة أشهر أخرىٰ وبعدها يتقدم فرحان بطلب زواج وسيكون كل شيء كما تريدين أنت وخالتك أم فرحان أبشروا، ثم التفت إلي وقد ضربني علىٰ عاتقي وقال: أرنا ماذا آشتريت من نادي الثكنة يا حضرة الكوبرال مد يدك إلى الكيس وأرنا، تذكرت وقلت: والله صحيح لقد أنسيتموني، سحبت الكيس الذي ألقيته علىٰ باب الغرفة وفتحته وأخرجت منه خبزتين كبيرتين محمرتين كجنح الدبور، ثم أخرجت بعض العلب المحفوظة والتفت إلىٰ فوزية وأخرجت زجاجة عطر صغيرة وقلت ضاحكًا: هٰذِه هديتك يا أم أحمد، طارت فوزية من الفرح

وخطفتها من يدي.

كانت هٰذِه أول زجاجة عطر تملكها في حياتها، إذ أنها كانت تسمع أن هناك زجاجات عطر فرنساوية جميلة الرائحة يشترونها الذين يملكون المال والدور والأراضي يعني (البكوات) قربتها من أنفها وسحبت نفسًا طويلًا وقالت ما هٰذِه الرائحة، قلت لها مازحًا أبشري يا أم أحمد كل مرة آتي بها سأشتري لك واحدة، ثم تذكرت فجأة، مددت يدي إلىٰ جيبي المغلق جيدًا، ففككت الذر وأخرجت محفظتي الصغيرة التي ٱشتريتها من محل البيع في الثكنة وقد ملأتها بالليرات السورية وناولتها لوالدتي، قلت خذي يا أم فرحان هٰذا معاشي ٱعطني منه ليرة ونصف تكفيني والباقي لك ولفوزية ٱذهبوا إلى السوق وخالتي أم مصطفىٰ وٱشتروا ما يلزم من أجل العرس، كل شهر سأعطيكم ستة ليرات سورية حتىٰ تجهزوا كل ما يلزم للعروس، مدت والدتي يدها وحملقت بالليرات تتفرج عليهم لأنها لم تعرف شكل الليرة الصحيحة قبل الآن، كل ما تعرفه القروش والبارات العثمانية، قالت بتعجب هٰذِه الليرات الجديدة؟!، نعم أجابها مصطفىٰ وأخرج من جيبه وقال ضيفي الليرتين مع الليرات لأنهم هدية لفوزية مني، قالت أم مصطفىٰ خذيها يا أم فرحان كلها دين ووفاء، بعد زواج فرحان سنخطب لمصطفىٰ وسيدفع فرحان ما عليه من نقوط إلى ابني، ثم نحن بيت واحد وأنت أختي الحقيقية وابنك ابني وصهري، قالت والدتي: النقوط ورفعت يديها إلى السماء بالدعاء الحار إلىٰ الله أن يحفظنا ويحفظ كل ولد لأمه، أمنت أم مصطفىٰ بصوت عال وقد رفعت كفيها، آمين يا رب العالمين.

أمي هل نسيت الضيافة، قلت لها ذلك لأغير الموقف الحزين من هٰؤلاء الأرامل، تحركت أمي ووقفت لتقديم الواجب قائلة، يا عيب

الشوم والله نسيت لا تآخذونا يا جماعة نحن أهل والعتب مرفوع بيننا، أسرعت إلىٰ غرفة المؤنة الصغيرة وأشعلت موقد الغاز ثم وضعت عليه إبريق الشاي المسود نتيجة الدخان الذي أحال لونه مع الأيام. مددت يدي إلى الكيس وأخرجت علبة من الشاي وكيسًا صغيرًا من السكر ناولتها إلىٰ فوزية التي ٱنطلقت بسرعة البرق إلىٰ جانب أمي، خذي الشاي يا خالتي أحضره فرحان، حملت فوزية الإبريق وقامت بالخدمة وتقديم الشاي، دار الحديث بيننا وقد ألحت والدتي علي لأقص لها كل ما حدث معي منذ اليوم الأول لدخولي الثكنة وافقتها حماتي أم مصطفىٰ، وقد ألحت بشدة.

قصصت كل ما جرىٰ معي وعن مدرسة المدفعية وتعلمي الكلام الفرنساوي، وسردت لهم معاناتي مع بعض المتطوعين الغرباء عن هٰذا الوطن، وأنواع الطعام المقدمة لنا وعنابر النوم وقد ٱختصرت حتىٰ أنهي جلستنا لأرتاح قليلًا وأنفرد بأمي.

انتهىٰ شرب الشاي إيذانًا بانتهاء الجلسة، وقف مصطفىٰ مودعًا وأشار إلىٰ والدته وأخته بالتحرك إلى البيت، قال مودعًا: أهنئك لسلامة فرحان يا خالتي السلام عليكم ثم خرج تبعته أمه وفوزية في المؤخرة وقد أدارت رأسها باتجاهي مبتسمة وقد علا خديها الاحمرار ثم غمزت لي بعينها وأشارت بيدها مودعه، ثم خرجت مهرولة. ٱنفردت بأمي وقد تمددت على الحصير وأسندت رأسي إلىٰ وسادة وضعتها أمي تحت رأسي وقالت إن أهل الحي سيأتون مساءً للسلام عليك، خذ قسطًا من الراحة سأقوم بإعداد العشاء وخرجت من الباب إلى المطبخ وكأنها نسيت شيئًا إذ أطلت من جانب الباب وقالت إن محمد ابن جيراننا سأل عنك كثيرًا، إنه لم يتركنا في غيابك أبدًا أقول لك ذلك حتىٰ تعرف ترد له جميله فهمت يا ابني. فهمت يا أمي إنه الأخ الثاني

وكما قال المثل (رب أخ لم تلده أمك).

في المساء بدأ الشباب من أهل الحارة يطرقون الباب، وقد تواعدوا لزيارتي بوقت واحد وذلك بإشارة من محمد الذي نظم وقت الزيارة ومدتها، رحبت بالجميع يتقدمهم محمد، وقد فرشت لهم عدة حصر في أرض الدار حيث قعد الجميع وعيونهم ترمقني بإعجاب، بعد السلامات المعتادة بدأت الأسئلة تنهال علي، قال أحدهم: كيف العسكرية يا فرحان خبرنا هل تنصحنا بالدخول في هٰذا السلك؟ أجبت مؤكدًا لا والله لا أنصح أي شاب منكم بالاقتراب من هٰذا السلك أقسمت لهم بالله أني صادق معهم، إذ أن هٰذِه الصناعة هي للجائعين الذين سدت بوجوههم سبل العيش من أبناء هٰذا الوطن، أما ما ترونه من العساكر من غير أبناء بلدنا فهم إما مرغمين أو فقراء مثلنا ما عدا بعض الناس الحاقدين علىٰ وطننا وبلادنا فإنهم اغتنموها فرصة للانتقام مما يدعونه من ظلم قد لحق بهم وهٰذا ادعاء باطل، وأخبرتهم عن الأجناس التي رأيتها في هٰذا السلك اللعين وقلت صدقوني كلهم جائعون في بلادهم وإلا من يترك أهله وبلده ليذهب كالعبد الذليل إلىٰ حيث يشاء الفرنساوي، ثم يعرض نفسه للقتل في الحروب التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل، لولا لقمة العيش وسد البطالة التي أوجدها الفرنساوي المستعمر والألعن يا شباب قلت مكملًا، أنك تصبح بين أيديهم كالعصا يضربون بك من شاءوا من الناس لا حيلة لك إلا أن تضرب ولو كانوا أهلك لأن الأوامر يجب أن تطاع ومن لا يطع يعدم رميًا بالرصاص إذا كان العصيان أثناء الحرب أو السجن في الحالات العادية، لذلك والله يا أخوتي أنصحكم ابعدوا عن هٰذا الطريق، قلت مؤكدًا.

اسألوا مصطفىٰ فهو أعرف مني لأنه في مركز القيادة، أما أنا

فجديد في هٰذا السلك ولكن كل يوم يمضي علي في التدريب أشعر كأن رجولتي ونخوتي تضيع مني وأصبح عبدًا مطيعًا للأوامر، إضافة إلىٰ أن الفرنساويين الأصليين ينظرون إلينا باحتقار ولا يختلطون بنا أبدًا إذ لا نراهم إلا قليلًا في الصباح عند تحية علمهم وبعدها يلقون الأوامر إلى السرجانية والرتب الصغيرة من أولاد العرب المغاربة ثم يذهبون وهٰؤلاء السرجانية يتحكمون بنا، وكنت أحيانًا أتذكر كيف أعامل حماري فأشعر بأني ٱنقلبت حمارًا مثله أطيع الأوامر وأحمل الأثقال بدون ٱحتجاج، إذ لا يصح أن أشعر بالتعب أو الملل وإلا فالمصير معروف في هٰذا النظام الصارم اللعين من العبودية، شيء واحد يمكن أن يستفيد منه الرجل وهو معرفته كيف يحارب ويستعمل السلاح هٰذِه هي الحسنة الوحيدة، كان الجميع ينظرون إلي بانتباه وهم يشربون كؤوس الشاي التي صنعتها والدتي لهم.

قال محمود ابن جارنا بخبث ظاهر، إذًا لماذا لا تترك وظيفتك هٰذِه وتعد لحياتك السابقة إذا كان الحال بهٰذا السوء كما تقول؟ أجابه مصطفىٰ وقد دخل البيت فجأة، يا محمود إذا كان ما سمعت من فرحان، صدقني سأتوسط لك غدًا لأدخلك في هٰذِه الوظيفة أما بعدها لا تلوم إلا نفسك، إن هٰذا العمل لا يتحمله إلا من كان مثل فرحان في رجولته وقوة بدنه وفهمه للأمور، ثم أكمل خمسة سنوات ستمضي إن شاء الله ويعود فرحان إلىٰ بيته وأسرته، أما أنت يا محمود فإنك ستهرب من الأسبوع الأول لأني أعرفك قليل الهمة ولسانك طويل وحقود.

تكلم عمكم محمد، ٱسكت يا محمود (رحم الله رجلًا عرف حده فوقف عنده) قال ذلك محمد وقد ظهر الغضب واضحًا علىٰ وجهه.سكت محمود وقد ٱحمر وجهه من الحياء والإحراج ثم بدأ يتلهىٰ بإدارة كأس الشاي والنظر إليه، ٱنقضت سهرتنا وذهب الجميع إلا

مصطفىٰ وعمكم محمد، جلست والدتي بجانبي وهي تكاد تحضني، قال مصطفىٰ إن الشباب في الحي قد أعجبوا بمنظرك العام،لذا ٱتجه تفكيرهم نحو تقليدك واللحاق بك وقد سألني العديد منهم مساعدتهم للانتساب والتطوع والتوسط في ذلك، وأضاف، ولكن لن أرتكب خطيئة أخرىٰ، يكفي أنت وأنا من هٰذِه الحارة.

أما أنت يا فرحان فإني أعرف بأنك تستطيع التحمل وتفهم الأمور واللحظة المناسبة لتصرفك أما هم فمساكين قد عضهم الفقر وألجأتهم الحاجة، ولكن لن أخطأ مرة أخرىٰ أبدًا.

قال عمكم محمد وقد وقف مستعدًا للانصراف آخذًا بيد مصطفى، ٱنس ما سمعت من محمود فهو يحسدك وهٰذا في طبعه فهو يحسد الجميع لا تآخذه، ثم ٱنصرفوا مودعين.

في اليوم التالي دعانا مصطفىٰ للغداء عنده وقد ذهبت والدتي قبلي لمساعدة أم مصطفىٰ وفوزية في الطبخ وتحضير ما يلزم، وقد فاجأني مصطفىٰ بأنه دعى الكابتن عبد القادر الجزائري للغداء، وقد لبى الدعوة وحضر في الموعد بدقة الضباط المقاتلين.

قضيت إجازتي في الحارة لم أخرج منها إلا لزيارة شيخي ومعلمي أبوعبدو في محله، في نهاية الإجازة عدت إلى الثكنة وقدمت نفسي إلى الكابتن عبد القادر وقد رحب بدعوتي وقال فرحان ٱذهب واستلم سلاحك الفردي من مخزن السلاح وناولني ورقة مختومة بالأحمر وفيها أمر التسليم، ٱستلمت سلاحي بعد الإجراءات المعتادة ووقعت علىٰ ذلك، وقد هالني ما رأيت في مستودع الأسلحة من سلاح متعدد، الصفوف الطويلة من البنادق المتعددة والرشاشات الثقيلة وصناديق الذخيرة والقنابل اليدوية.ذهبت إلى الكابتن عبد القادر وقلت نفذت الأمر سيدي الكابتن وهٰذا سلاحي، قال ٱذهب إلىٰ عنبر النوم وضع

لبندقية بجانب سريرك كغيرك والبس حزام الذخيرة وعد بسرعة لحلقة لتدريب، نفذت بسرعة ما أمرني به الكابتن وعدت متمنطقًا بحزام الطلقات الجلدي وٱنضممت إلىٰ حلقة الدرس، ثم أمرني الكابتن بأن أدرب مجموعتي على ٱستعمال المدفع عيار خمسة وسبعون مع تحفيظهم أسماء قطع المدفع والفك والتركيب والإدارة بسرعة قصوىٰ.

بعد شهور عديدة أكملت والدتي تجهيز ما يلزم لإقامة العرس وإتمام الزواج من فوزية، تقدمت بطلب الزواج من القيادة وقد جاءني الجواب بالموافقة مع إجازة شهر كامل وإعانة مالية خمسة ليرات كاملة.تنهد العم فرحان بصوت مسموع وسالت دمعتان من عينيه تدحرجتا على الخطوط العميقة المرتسمة علىٰ خدَّيه، صمت طويلًا وقد سرح ببصره إلى الفضاء الواسع من خلال باب الدكان. سكتنا جميعًا ٱحترامًا لذكرياته الأليمة. مضت بضع دقائق على الصمت المطبق، وفجأة وكان العم فرحان ٱنتبه إلىٰ ما نحن فيه وقد ٱستعاد نفسه ثم تبسم بحزن وقال لا تآخذوني إن شاء الله سنتابع غدًا وقام بقامته المديدة وغاب بسرعة عن أنظارنا وكأن شبحًا يطارده. ٱستمر الصمت لفترة ليست بالقصيرة ونحن نحاول أن نتحاشى النظر إلىٰ بعضنا إلىٰ أن قال العم محمد مؤنبًا قاتلكم الله يا زعران لقد فتحتم له جروحه بغنىٰ عن هٰذا العذاب، سأطلب منه أن ينسى الموضوع، وأحذركم من أن تطلبوا منه إكمال قصته ٱرحموا الرجل فهمتم، أجبناه بصوت واحد، نعم يا عم فهمنا ولن نطلب منه شيئًا بعد الآن، قال العم محمد وقد عقد حاجبيه علامة الغضب: ٱنتهت الجلسة قوموا إلىٰ بيوتكم صحيح أنكم أولاد. خرجنا من الدكان نركض ندفع بعضنا، قلت لرفيقي المفضل فخري سأمر عليك مساءً لنذهب إلى السينما لا تخرج من البيت.

مضىٰ أسبوع من تاريخ ذلك اليوم عند المعلم محمد لم أذهب

خلالها إلى الدكان إلىٰ أن طرق باب بيتنا صباح يوم الجمعة، فتحت الباب ظنًا مني بأن صديقي فخري هو الطارق. فاجأني فرحان وهو يلقي تحية الصباح، صباح الخير يا أحمد هل أدخل ضيفًا ٱرتبكت من هٰذا الطلب تفضل يا عم أهلًا وسهلًا البيت بيتك، قال أين أنت يا بني لماذا قاطعت عمك محمد، أنا لم أقاطعه وهل أتجرأ عليه، ولكنه طردنا بحجة أننا أثقلنا عليك، ضحك فرحان ضحكة سرور ودخل ورائي إلى المضيفة وهو يقول سنذهب مساءً إلى الدكان معًا وإن عمك محمد يريدك اليوم وسيكون فخري موجودًا لأني أبلغته علىٰ أن يبلغ الجميع تناول ضيافته وقد رحبت به والدتي من وراء الباب قائلة خطوة عزيزة يا أخي فرحان الحمد لله علىٰ عودتك سالمًا أهلًا وسهلًا رحم الله والدتك فهي أم الجميع في الحارة.

مررت مساءً علىٰ فرحان ورافقته إلىٰ دكان العم محمد كان يمشي بخطوات طويلة متزنة وقد أجهدت نفسي لأستطيع الاحتفاظ إلىٰ جانبه.

وصلنا إلى الدكان حيث دفعته أمامي برفق. ولما ٱستقر بنا المقام لاحظت رفاقي وقد وصلوا مبكرين. دخل محمد من الباب الداخلي الذي يصل الدكان بالمنزل وقد حمل صينية الفتة ثم وضعها على الطاولة بعد أن أزاح ما عليها من المعدات وقال تفضلوا يا زعران هٰذِه حلاوة الصلحة ثم ناول كل واحد من الحاضرين ملعقة. بعد ٱنتهاء الطعام حمدنا الله علىٰ نعمته بتذكير من العم محمد، إذ قدم الشاي وقال ٱخدموا أنفسكم. قال فرحان وقد وضع كأسه أمامه: ذكروني يا شباب أين وصلنا في القصة. سكتنا جميعًا ما عدا العم محمد الذي فاجأنا بقوله لقد وصلت إلىٰ مأذنية العرس أكمل من هنا إذا أردت وأطلب منك أن تسكت حين تجد نفسك لا تستطيع تمالك عواطفك، حينها ٱسكت وسأغير الموضوع فهمت يا أخي فرحان. ضحك فرحان بسرور، أمرك

يا أخي محمد وبدأ الحديث مكملًا قصته.قال لن أطيل عليكم؛ تزوجت بعرس له طنة وزفة وقد ٱشترك كل أهل الحارة برجاله ونسائه في تلك الليلة وقد حضر العرس الكابتن عبد القادر وجمع من رفاقي في المعسكر لم أعد أذكرهم لطول الزمن إلا سالم ذو الشاربان. خلوت بعروسي أسبوعًا كاملًا لم أخرج من البيت وكانت أمي رحمها الله تهيئ لنا الطعام وتدخل إلينا وتجلس بيننا ودموع الفرح تهطل من عينيها. كانت تقبلني وتقبل عروستي وهي تدعو بحرقة إلىٰ الله بأن يرزقنا خليفة ولدًا أو بنتًا لتملأ عليها البيت وتفرح بخلفتي، أما حماتي أم مصطفىٰ فكانت لا تفارق والدتي وقد نامت معها ثلاثة أيام ثم ذهبت إلىٰ بيتها بعد أن أوصتني بأن فوزية أمانة في عنقي.

أما ما حدث بيني وبين عروستي فلن أقص عليكم فهٰذا من الأسرار الشخصية وسيأتي اليوم الذي تتزوجون فيه، حينها ستعرفون بأنفسكم ما حدث معي وأرجو أن تتذكروني وتكملوا فراغ القصة بأنفسكم، المهم يا شباب ٱنتهىٰ شهر العسل الذي لن أنساه ما دمت حيًا لأن سعادتي بدأت في أوله وانتهت في آخره.

عدت إلىٰ عملي في الثكنة وإلى التدريب اليومي، وكنت قد حصلت علىٰ إذن بالمبيت الليلي في البيت بعد ٱنتهاء العمل، فكنت آوي إلىٰ عروسي وقد ظننت أن سعادتي لن تنتهي، مرت ثلاث سنوات ولم تحمل زوجتي وهٰذا مما حمل التعاسة لأمي.

في أحد الأيام سمعت صوت البوق يدعو إلى التجمع السريع، قطعنا التدريب وهرولنا بنظام إلى الساحة العامة حيث ٱنتظمت الصفوف، تدفق جمع الضباط الفرنسيين فوقف كل منهم أمام فرقته وإذ ساد الصمت والترقب بدأت أصوات الأوامر الصارمة بالاستعداد لتقديم السلاح إذ حضر القائد، وقف أمام الطوابير ورد بتحية من يده

فانعكست أشعة الشمس علىٰ رتبه العسكرية وقبعته المزخرفة بخيوط الذهب، ثم وبعد تقديم السلاح طلب منا الأستماع لما يقوله القائد. تكلم بشدة وكانت العصبية تبدو علىٰ حركاته وعضلات وجهه، قال بما معناه، إن عصابات إرهابية بدأت تهاجم القطعات العسكرية، وبأن شرف فرنسا العسكري يوجب الرد بشدة متناهية والضرب بيد من حديد علىٰ كل من يساعد هٰذِه العصابات، ومن واجبنا الدفاع عن شرف فرنسا التي شرفتنا بالخدمة تحت ظل علمها، وتابع إن فرنسا تنتظر منا نحن جنودها الدفاع بقوة عن وجودها في هٰذِه البلاد لتقوم بواجبها في نقل الحضارة والتقدم إلىٰ هٰذِه البلاد المتخلفة لتكون أهلًا للاستقلال في المستقبل ثم ختم خطبته بالهتاف تحيا فرنسا المنتصرة، صاح الجميع بصوت واحد تحيا فرنسا ثلاث مرات أنفتل علىٰ عقبيه بعد أداء التحية وابتعد يحف به جمع من الضباط الكبار. طلب منا الأنصراف والأستعداد أنتظارًا للأوامر بالسلاح الكامل، تجمع المدفعيون بإمرة الكابتن عبد القادر وقد بدأنا نهيئ مدافعنا الأربعة وقد نقلوا لنا الذخيرة من القنابل إلىٰ جانب المدافع، وجهنا مدافعنا حسب الأوامر الصادرة لنا باتجاه المدينة كانت المدينة مستلقية أسفل المرتفع الشديد الأنحدار الذي أتخذناه موقعًا للمدافع والجنود هادئة لا تعرف ما يخبئ لها، سرحت ببصري لأرىٰ أين يقع بيتي، قدرت بعد حساب قصير أين ستقع القنابل التي سنطلقها لو أمرونا بالضرب، تضاربت الأفكار في رأسي وشعرت أن شعر رأسي وقف حين تخيلت قنبلة تسقط فوق بيتي لتسحق والدتي وزوجتي أو تدمر بيت مصطفىٰ أو عمكم محمد وغيره من أهل الحارة، أفقت من تأملاتي علىٰ صوت الكابتن عبد القادر، حاولت أستعادة نفسي ووقفت مستعدًا أمام مدفعي وحولي باقي الطاقم.

نظر الكابتن في عيوني مباشرة وقد رأيت الدماء المحتقنة في وجهه

تكاد تنفر من عينيه وكان يحاول أن يغطي ٱرتباكه والرجفة الخفيفة في يديه، ألقىٰ بأوامره بحدة ظاهره وعصبية واضحة بدت من كلماته وحركاته، سألني وقد أدار نصف وجهه إلى الجانب الآخر: أنتم على ٱستعداد؟ أجبته ببرود ظاهر: نعم كابتن نحن مستعدون وجاهزون للعمل، فاجأته لهجتي الباردة الهادئة وكأنه لم يصدق عينه وما سمع مني إذ قال: ٱتبعني كوبرال فرحان وتحرك بعيدًا عن المدافع، سرت وراءه بحركة نظامية. توقف فجأة واستدار باتجاهي وصرخ: قف. وقفت باستعداد، تقدم نحوي وقال: ٱسترح فرحان. بلهجة بدت هادئة وكأنه ٱستعاد نفسه من الموقف السابق، وقال: فرحان أراك هادئًا وكأنك لا تعرف ما سيحدث لو أمرونا بإطلاق القنابل على المدينة؟! سألته ببرود أعصاب: أتسمح لي بالرد علىٰ سؤالك؟ قال بتلهف: نعم نعم تفضل وإلا لماذا أتيتُ بك إلىٰ هنا، أجب وبسرعة. قلتُ: بدون مسؤولية؟ قال: لا أحد يسمعنا تكلم، قلت: سيدي الكابتن بكل بساطة سأعطل صواعق القنابل لأني أنا المسؤول عن وضعها في مكانها، ولكني لن أعصي أوامرك وأحملك المسؤولية. قال: أحسنت فرحان أنا لم أسمع منك شيئًا ولا تخبر أيًا كان عن سرك بارك الله فيك. قال: عد مكانك.

تحركتُ باتجاه مدفعي بانتظار ما سيحدث، مر الوقت طويلًا فدخل الليل إذ رطب ببرودته الموقف المشتعل في نفسي. في الصباح التالي أمر الكابتن بفك المدافع وتخزينها لأن الأزمة ٱنتهت علىٰ خير والحمد لله بقيت في الثكنة خمسة أيام إذ سمح لي في اليوم السادس مساءً ترك المعسكر. ذهبت بسرعة إلى البيت إذ قصت والدتي وزوجتي تقاطعها بما حدث وبالرعب الذي أصابهم. شرحت لي فوزية كيف دخل الثوار المدينة ومروا بحينا، وكيف وقع الصدام مع الفرنساوي وإطلاق الرصاص كرخ المطر حسب تعبيرها، وذلك لمدة يومين، وقالت:

فرحان لقد ساعدت الثوار أنا وأمك مع أهل الحارة، حيث قدمنا لهم الطعام والماء والمأوىٰ وكل ما يلزمهم، وقمنا نحن نساء الحي بتضميد جراحهم بمعرفة والدتك إذ أنها ماهرة جدًا في هٰذا العمل، وكيف ٱنسحب الثوار بعد وصول نجدات من عساكر الفرنساوي. قالت: كم خفنا عليك وعلىٰ مصطفىٰ وكم دعينا الله أن يحميكم وأن لا تكونوا مع العسكر، الذين نزلوا إلى المدينة. قلت أطمئنها هي ووالدتي، لا تخافي علينا فنحن لا يرسلونا إلى المدينة لأن عملي أن أطلق عليكم المدافع من بعيد، قالت: يا لطيف صحيح يا فرحان. أجبتها مازحًا وقد حضنتها وقد خبأت لك قنبلة كبيرة لك وحدك ما رأيك ضربتني علىٰ صدري وسحبتني إلىٰ غرفتنا وأقفلت الباب ثم ٱرتمت علىٰ صدري. قالت: لو ضربتني بألف قنبلة فأنا أحبك وضرب الحبيب زبيب كما يقول المثل. توقف فرحان عن الحديث بعد هٰذِه العبارة وتهنج صوته، قال العم محمد: يكفي اليوم يا أخي فرحان وخذ هٰذا الكأس من الشاي، ضحك فرحان وقال أنا نسيت أن عندي موعد مع البستاني لأنقل الخضار إلى السوق السلام عليكم، وغادر مسرعًا. قال العم محمد ٱتركوا الرجل بحاله وارحموه، قلت: يا عمي لقد عاهدت نفسي علىٰ كتابة قصة هٰذا الرجل ونشرها إن ٱستطعت حتىٰ يعلم كل من يقرأها أن هناك رجالًا مجهولين ضحوا بسعادتهم وبحياتهم كلها مقابل إخلاصهم لأمتهم ووطنهم حتىٰ يكونوا قدوة للأجيال القادمة، ثم غادرت الدكان مع رفاقي.

مضت أيام عديدة لم أرىٰ فيها فرحان وقد عزمت علىٰ أن أبحث عنه في السوق، بعد أيام مضت علىٰ آخر جلسة لنا ذهبت إلى السوق لأبحث عنه ولما توسطت الساحة الرئيسية وإذ بحمار ضخم الجثة قد ٱعترضني، رفعت رأسي منزعجًا إلىٰ راكبه وإذ بالعم فرحان ممتطيًا

صهوة الحمار كأنه فارس همام، تبسم وقال معاتبًا أين أنت يا ابن أخي لو لم أراك صدفة لكنت ذهبت إلىٰ بيتك لأراك. قلت بعد السلام: يا عم أدعوك إلىٰ طعام العشاء في بيتنا غدًا وسأدعو المعلم محمد وباقي رفاقي لأن والدي يريد أن يراك. وهكذا ٱفترقنا علىٰ موعد الغد في اليوم التالي.

حضر المدعوون إذ ٱفترشنا حصيرًا كبيرًا غطت أرض العلية المرتفعة عن صحن الدار. وقمت بإحضار ما ٱستطعت من الطعام الذي قدمته والدتي لنا، بعد الٱنتهاء من الطعام ٱستأذن والدي للذهاب لشأنه وبقينا نحن الشلة ذاتها مع العم محمد وفرحان، وكان الهواء منعشًا يغري بالنوم. تنحنح فرحان وقال: سأكمل القصة إذا رغبتم بذلك، قلنا بصوت واحد: موافقين. قال: أين وصلنا في الحديث أجبته بسرعة وصلت يا عمي عند ضرب الحبيب زبيب قالتها لك زوجتك فوزية، ضحك بفرح وقال: ٱسمعوا. كلنا آذان مصغية قالها العم محمد متحمسًا هات ما عندك لأن معلوماتي توقفت عند هٰذا الحد لأننا لم نعد نراك بعدها.

بعد هٰذِه المعركة بين الفرنساوي والثوار تقرر الٱستعداد والاستنفار مرات عديدة وكنا ننام ونحن أمام مدافعنا، ولٰكن سلم الله إذ لم يطلبوا منا إطلاق النار، ولٰكن التوتر يلف الجميع، وخصوصًا الضباط الفرنساوية، كانوا نشيطي الحركة بوجوههم الحمراء وهم يركبون الخيول التي تخب بهم بين كل قطعة وأخرىٰ كان الكابتن عبد القادر يتلقىٰ من القيادة الأوامر الدائمة التغيير كل ساعتين أو ثلاث وكنت أزور زوجتي وأمي مرة أو مرتين في الأسبوع عندما تهدأ الأحوال قليلًا.

كان مصطفىٰ هو الذي يهيئ لي الإذن بالخروج من الثكنىٰ برفقته،

ٱستمر الحال أشهر عديدة ونحن على ٱستعداد تام ليلًا ونهارًا، كنت أحيانًا أرىٰ بعض قطعان المشاة بلباس المعركة يتركون المعسكر ويتجهون إلىٰ محطة القطار القريبة منا وهم يحملون معداتهم وذخائرهم. كنا نراقبهم من مكاننا وهم يركبون القطار المتجه إلى الجنوب ولا نعلم وجهتهم. في أحد أيام تموز الحار وكنا نيامًا بلباسنا الكامل، إذ بصوت بوق التجمع السريع وهو يطرق الآذان طرقًا، هب الجميع إلى النداء وتجمعنا بسرعة بالغة. كان القمر بدرًا يضيء الساحة بنوره الشاحب بحيث أضاء الساحة مما سهل التجمع. قفزت إلىٰ جانب مدفعي وبدأت أنادي أسماء طاقم المدفع، أجاب الجميع بالحضور وقد لاحظت أن ذا الشاربين وقف ورائي مباشرة صرخت بصوت مرتفع، ٱستعدوا وسمعت صوت أقدامهم تدق الأرض بقوة ٱنتظرت ساعة ولما لم أتلق أية أوامر أمرت رجالي بالاستراحة وقد سمعتهم يتنفسون ملأ صدورهم. طلب ذو الشاربان الإذن بتدخين سيجارة فنهرته بشدة طالبًا منه التخلص من هٰذِه العادة الكريهة وقد التزم بالأمر ولم يعد إلى التدخين أبدًا. مضىٰ أكثر الليل وبدأ الصبح يتنفس وقد أخذ مني النعاس فاتكأت علىٰ ماسورة المدفع أدافع النوم ما ٱستطعت، وقد أيقظني من نعاسي وقع حوافر خيول وهي تخب في أرض المعسكر وأصوات الضباط تلقي الأوامر للقطعات التي حولنا من المشاة، ٱقترب أحد الفرسان وتوقف أمام الكابتن عبد القادر الذي ٱستعد وحيا برفع يده إلىٰ خوذته، تكلم معه الضابط ثم أدار حصانه وانطلق باتجاه محطة القطار. أما الكابتن عبد القادر فقد دعانا نحن الثلاثة مع السرجانية الٱثنين المسؤولين عن المدافع وألقىٰ أوامره بأن نفك المدافع ونحملها على البغال ونتجه إلىٰ محطة القطار في غضون ساعة ونصف من الآن ثم أخرج ساعته ودق الوقت نفذنا الأوامر وبدأت بمساعدة العساكر

بفك المدفع وقد أحضر سالم ذو الشاربان بغلين ضخمين مخصصين لمدفعنا إذ كان هو مسؤول البغال حملنا مدفعنا واتجهنا إلى المحطة القريبة المواجهة للثكنة وكان صفًا من البغال والعساكر يسيرون بنظام أمامنا، وصلنا إلىٰ عربات القطار المتوقفة علىٰ رصيف التحميل أنزلنا مدفعنا وأدخلناه إلى العربة المخصصة لنا مع البغال حيث ركبنا معها. وهكذا رأيت باقي المدافع تصعد إلى العربات الأخرىٰ مع بغالها وعساكرها. كان قائدنا عبد القادر يراقبنا ويلقي أوامره لمن يبطئ من الرجال.

تقدم نحو الضابط الكبير وحياه ثم تكلم معه بحيث لم أسمع ما دار بينهما لبعد المسافة ولٰكن الكابتن عبد القادر عاد بسرعة وركب عربتي بعد أن أصعد حصانه إليها.

كانت الشمس بدأت تلقي بأشعتها على الحشود المصطفة علىٰ رصيف القطار، نظرت إلىٰ عبد القادر وإذا به مغمض العينين مستندًا بظهره إلىٰ جدار العربة وقد مدد ساقيه إلىٰ آخرها وكان الإرهاق باديًا عليه، أشرت إلى العساكر بالسكوت.

صفر القطار صفارات متتالية سريعة منذرًا المتسكعين على الرصيف بالركوب ثم صفر صفارة طويلة وبدأ يتحرك ببطء شديد وقد اهتزت عربتنا قليلًا مما جعل عبد القادر يستيقظ من نومه، مسح وجهه بكفيه ثم نظر إلينا طويلًا وكان الصمت والترقب يلف الجميع، رأيت عيون العساكر المركزة علىٰ قائدها، وهٰذا طبيعي في مثل هٰذِه الحالة الخطرة ونحن لا نعلم إلىٰ أين مصيرنا ولا عدونا الذي سنقاتله ومن هو الذي يقتل منا أو يجرح، فكان القائد المباشر دائمًا بمثابة الأم الحنون بالنسبة لأفراد الفرقة.

وبما أني لا أعرف من البلاد إلا مدينتي حماة وحمص وما حولها

من البساتين والقرى القريبة ولم يسبق لي أن رأيت مدنًا أخرىٰ فكنت لا أعرف وجهتنا إلا بأننا نتجه باتجاه مدينة حمص. سألت قائدنا وقد ٱقتربت منه وجلست بجانبه أين نتجه يا سيدي؟ همس بصوت خافت ٱسكت يا كوبرال فأنا لا أعرف، ثم سأل العساكر إذا كان أحدهم يريد شيئًا ثم أمرهم بأن يرتاحوا بالطريقة التي يرونها مناسبة وعاد إلىٰ رقاده. ٱقتربت من نافذة العربة الصغيرة وسرحت ببصري إلى الحقول والقرى التي يمر بها القطار وقد هزتني مناظر الريف الجميل من أعماقي ما هٰذا الجمال الساحر أين كنت أعيش حدثت نفسي يا مسكين ماذا تعرف من بلادك لا شيء قلت لنفسي جهل مطبق كنت أسمع من معلمي أبوعبدو بأن هناك مدنًا تأتينا منها البضائع مثل دمشق وحلب وبيروت وغيرها، أسماء لا معنىٰ لها بالنسبة لي، قلت وبصوت مسموع: تغير الحال يا فرحان ولكن ٱنظر كيف وبأي طريقة تتعرف على البلاد وأنت عسكري عند الفرنساوي، أفقت من تأملاتي علىٰ صوت صافرة القطار الطويلة معلنًا وصوله إلىٰ محطة، ولكن أي محطة سأعرف بعد قليل. بدأ القطار يهدئ من سرعته ثم دخل ببطء شديد إلى المحطة وقد عرفتها فورًا إنها محطة حمص إذ كم ركبت منها وإليها.

أفاق الكابتن عبد القادر من نومه وأمر العساكر بالاستعداد فوقف الجميع، فتح باب العربة وقف إلى الرصيف وبدأ يتفقد باقي العربات التابعة لفرقته.

اجتمع الضباط الصغار على الرصيف كل أمام عرباته وقد لاحظت أن حشودًا من العساكر قد ملأت أرصفة المحطة والأراضي حولها. حضر المزيد من الضباط الفرنسيين واصطفوا أمام المبنى الرئيسي للمحطة باستعداد ونظام خرج ضابط كبير له شاربان كبيران أبيضان وقد لمعت أشرطته المذهبة، حيا الجميع وتقدم إلىٰ أمام الضباط وتكلم

معهم بصوت عال لم أسمع منه إلا صرخات بعيدة، ثم حياهم واختفىٰ في المكان الذي خرج منه. أسرع الضباط بالعودة إلى القطار، بدأ المسير من جديد، غابت الشمس وساد الظلام في الخارج أما العربة فكان يضيئها مصباح كهربائي شاحب الضوء مثبت في ثقف العربة الخشبي. جلست أمام قائدنا واستأذنت منه لتناول طعامي الجاهز الذي زودنا به عند ركوبنا القطار أول مرة، أمر القائد العساكر بتناول الطعام، جلس الجميع وبدأوا الطعام علىٰ صوت العربة الرتيب واهتزازها الدائم.

قال الكابتن عبد القادر: حان وقت النوم، ٱرتاحوا ما ٱستطعتم وكونوا على ٱستعداد فلا نعرف ما ينتظرنا غدًا لذلك خذوا أكبر قسط من الراحة، ثم أمر سالم بأن يخرج إلىٰ سلم العربة لإبلاغ السرجان الذي يلينا في العربة التي خلفنا علىٰ أن تبلغ كل عربة التي تليها بأوامر الكابتن، نام الجميع وبقيت مستيقظًا لعدم ٱستطاعتي النوم إذ كانت صورة والدتي وزوجتي لا تبرح مخيلتي، ٱقتربت من النافذة ٱنظر إلى الظلام المخيم الذي كانت تقطعه بعض أضواء القرى الضعيفة التي كنا نمر بها. مر القطار علىٰ عدة محطات لم يتوقف فيها، حاولت النوم مرات متعددة وأخيرًا غرقت في ثبات عميق لم أستيقظ منه إلا علىٰ صافرة القطار الطويلة حيث أفاق الجميع. توقف القطار في محطة رياحة المكتوبة علىٰ واجهة صالة المحطة بوضوح حيث سمح لنا بالنزول لقضاء الحاجة لمن يريد، نزلت للتفرج وكانت تشبه غيرها من المحطات، لا جديد إلا كثرة العربات والقطارات. أمر الكابتن عبد القادر بنقل أمتعتنا وسلاحنا والبغال إلىٰ قطار آخر حيث ٱنهمك الجيش بكامله بالانتقال حيث أمرونا. صفر القطار إيذانًا بالرحيل، صعد الجميع وصار القطار وعدنا إلىٰ ما كنا عليه نأكل ثم ننام وكان كل واحد

منا يحاول أن يتفادى التحدث إلىٰ رفاقه أو النظر في عيونهم.

مر يوم آخر ودخل الليل من جديد، حاولت النوم فلم أستطع ولا أعرف كم مر من الليل إذ سمعت صوت القطار ينذر بالوصول ٱستيقظ قائدنا وطلب الاَستعداد من الجميع للتهيؤ للنزول عند توقف القطار. بعد ساعة من الزمن بدأ القطار ينذر بالوصول مطلِقًا صفارته علىٰ آخرها ثم بدأ يهدئ من سرعته حتىٰ توقف بعيدًا عن المبنى الرئيسي. بدأ الصراخ من الضباط والسرجانية آمرين العساكر بالنزول من العربات وإنزال الأسلحة والعتاد. مر عبد القادر علىٰ عربته وأشرفت علىٰ إنزال المدافع والبغال والذخائر، ولما تم تنفيذ الأوامر ٱصطف الجميع باستعداد للسير حسب الأوامر التي ستصدر إلينا. غادرنا المحطة المجهولة بصمت نظرت حولي فلم أرىٰ إلا بساتين ليس لها نهاية سواد بالغة السواد، فكنا نسير علىٰ ضروب ضيقة، واستمر بنا الحال إلىٰ أن أرسلت الشمس بأول أشعتها الذهبية فكشفت عن منظر خلاب إذ كانت البساتين قد أصبحت وراءنا وهي تبتعد كلما مر الزمن إلىٰ أن ٱختفت وراء الأفق البعيد. تابعنا مسيرنا بصف طويل من البغال والرجال بخوذهم الحديدية وأمامنا بمسافة بعيدة كانت صفوف المشاة تسير مسرعة ومعها عربات الذخيرة والإعاشة في مؤخرتها. مرت بجانب صفوفنا مصفحات مسرعة إذ تجاوزتنا إلىٰ أرتال المشاة المتقدمة في الأمام، أما الفرسان فكانوا يسيرون بمحاذاتنا وقد تركوا مسافة تفصلهم عنا ليكونوا حراسًا لكل طارئ مع تمتعهم بحرية الحركة إلىٰ جهة يظهر منها الخطر، هكذا قدرت الأمور حسب مفهومي القليل للحركات العسكرية. أين نحن سألت نفسي ومن هو عدونا الذي سنقاتله هل هم الإنكليز، قلت يمكن أن ذلك لأن هٰذا الحشد من القوات يُقدَّر بجيش كامل التجهيز والتسليح لا يمكن إلا أن يكون موجهًا ضد جيش منظم

مثله، وٱستمر المسير بصمت لا يقطعه إلا حوافر خيول الضباط الذين يمرون مسرعين وهم يلقون الأوامر للضباط الصغار، وكان قائدنا لا يفارقنا وهو علىٰ صهوة جواده يراقب ويشرف علىٰ جميع رجاله.

اقتربت ساعة الظهيرة وبدأ العرق يتصبب من الرجال والبغال، ظهر الإرهاق على الجميع وشمس تموز الحارقة تلسعنا مع كلِّ حركة نقوم بها. سمعنا صوت البوق آمرًا بالتوقف، صاح الكابتن كغيره مصدرًا أوامره بالاستراحة والتجمع علىٰ شكل دائرة يسهل الدفاع عنها. أنزلنا العتاد والأسلحة عن البغال لتأخذ قسطًا من الراحة ولنقدم لها العلف والماء، فكنت ترى الصف بطوله وهو يعمل بنشاط على الفك والإنزال، جمعنا أسلحتنا علىٰ شكل هرم أمامنا وجلسنا لتناول الطعام والاستراحة وانتشر الفرسان حولنا للحراسة، بعد الطعام تمددنا علىٰ الأرض وقد نام بعض العساكر من شدة التعب.

بدأ بوق المسير يعلن الٱستعداد أمرنا القائد بتركيب المدافع وجرها علىٰ عجلاتها، نفذنا ذلك بسرعة وأصبحت المدافع جاهزة للمسير أو العمل، في غضون خمس دقائق بدأت الطوابير من أمامنا وخلفنا بالتحرك علىٰ خط طويل مع الأمر بالتغطية والاستعداد لدخول المعركة في كل لحظة. ٱقترب مني سالم وقد تهدل شاربيه، قال يحدثني والقلق بادٍ بوضوح علىٰ قسمات وجهه: كوبرال فرحان إلىٰ أين نحن نسير ومن سنقاتل هل تعرف؟ فنهرتُه بشدة: ٱسكت سالم تابع مسيرك وانتبه إلى البغال هل تخاف من الموت؟ أجابني وقد ٱصفر وجهه: نعم كوبرال فرحان أنا أخاف أن أموت هل هٰذا عيب أو عار؟ قلتُ مهدئًا من قلقه: سالم لا تخف أنت عسكري ومهنتك الحرب والقتال يعني أن تقتل عدوك أو يقتلك هٰذِه مهنة الجندية وعلىٰ ذلك تطوعت وأكلت وشربت وتقبض آخر كل شهر معاشك لترسله إلىٰ أهلك، وهل ظننت أن

الفرنساوية قبلوك في جيشهم ليطعموك ويدللوك؟ قال: كوبرال فرحان أنا تطوعت معهم لأشبع من الطعام وألبس الجديد من الثياب والأحذية، أما أن أحارب وأموت فهٰذا ما لا أريده لذا أنا لن أحارب، ثم أردف يكلم نفسه الله يلعن أبوهم وأبوها اللقمة المغموسة في الدم. أمرته بالانتباه للبغال وعدم التكلم حفاظًا علىٰ حياته.

غابت الشمس وراء الأفق البعيد والخط الطويل الأسود يملأ الأفق من الرجال بخوذاتهم المتمايلة والبغال والعربات، إنه منظر مهيب حقًا قلتها لسالم الذي لم يعد يفارقني إلا قليلًا فوافق بهزة من رأسه تنبئ بأنه حمار لا يفهم شيئًا إلا كما قال الأكل والشرب وتنفيذ الأوامر بلا عقل أو فهم لما يجري لولا الخوف من الموت.

توقف الجيش بكامله للمبيت، وتلقينا الأمر بأن نتربص بوضعية القتال الدفاعي حيث قمنا بما يوجبه علينا الأمر. فربصنا المدافع بنظام القتال والرمي وأحطناها بالرجال في وضعية القتال للدفاع ضد أي هجوم يأتي من التلال القريبة منا. عدت للتفكير بوالدتي وزوجتي وقد التحفت معطفي العسكري محاولًا أن آخذ قسطًا من النوم. مر أكثر الليل ولم يبق إلا القليل من الوقت لاستئناف المسير مرة أخرىٰ في حر تموز اللاهب. إلىٰ أين وما هو الهدف من هٰذا العذاب اليومي سألت نفسي أليس سالم هٰذا الحمار البسيط علىٰ حق هل قدر لنا أن نموت كالكلاب في سبيل فرنسا لماذا؟ غرقت في هٰذِه التأملات والحوار مع نفسي لا أدري كم من الوقت إذ ٱستيقظت من ٱستغراقي علىٰ أصوات إطلاق الرصاص الكثيف من الرشاشات الثقيلة والبنادق يأتي من خلفنا حيث عربات الذخائر والمؤن. ٱستيقظ الجميع علىٰ أوامر الكابتن عبد القادر بالاستعداد للقتال محذرًا تحت طائلة الإعدام لكل من يطلق النار خارج الأوامر، ألقىٰ هٰذا الأمر وهو يخب بجواده بين رجاله ومدافعه.

لم يتجرأ أحد من السرجانية أو الكوبرالية علىٰ سؤاله عن ما يحدث حولنا ٱنتظرنا طويلًا حتىٰ ظهر قرص الشمس محمرًا من الأفق الشرقي، قلت: يا لطيف الطف يا رب ما هٰذا البلاء، الدخان الأسود الكثيف يملأ الأفق، رأيت على البعد رجال من الجنود تتراكض كالنمل وكأنهم هاربون وفرسان علىٰ أعقابهم وقد سقط المئات من الجانبين. وصلتنا بعض الخيول الهاربة من الموت فكان منها خيول عربية وخيول فرسان الجيش الفرنسية. أفقت من ذهولي علىٰ كوكبة من الفرسان العرب ينقضون على الجنود المشاة من حولنا الذين حاولوا الدفاع وإطلاق النار من بنادقهم ورشاشاتهم على الفرسان، ولٰكن الفرسان بسرعتهم لم يمهلوهم وبدأ قطع الرؤوس فاندفع الجنود وقد تركوا سلاحهم هاربين علىٰ غير هدىٰ، فكانوا يصطدمون في بعضهم البعض وقد أطار الخوف عقولهم من رؤوسهم فكان بعضهم يدور في مكانه يضرب الهواء بيديه وكأنه يسبح في الهواء.

شاهدت كوكبة من الفرسان تتجه نحونا وهي تطلق الرصاص باتجاهنا، أمر الكابتن عبد القادر بلهجة حازمة صارمة، ٱنبطحوا أرضًا ولا تطلقوا النار حتىٰ آمركم. ٱنبطح رجال الدافع وبقيت البغال الوحيدة التي تضح من الخوف، وقد وقف سالم ممسكًا بمقودها المزدوج غير مقدر خطورة موقفه صرخت به بكل قوتي سالم ٱترك البغال وانبطح لا تظهر بندقيتك أسرع وأشرت بيدي له نحو الأرض، أطاعني وانبطح علىٰ طوله في اللحظة التي مرق فيها أحد الفرسان وسيفه يقطر دمًا واتجه يتبعه رفاقه نحو كوكبة من فرسان الجيش والهول والصدام بين الفرسان لقد أطاح الفارس العربي برأس الضابط الذي كان يحرك سيفه لفرسانه ملوحًا به للهجوم. سقط الضابط الفرنسي بلا رأس مما جعل فرسانه يديرون رؤوس خيولهم هاربين من هول المنظر، حتىٰ أني

غطيت عيني بكفي.

اختلط الحابل بالنابل كما يقول المثل ولم نعد ندري ما العمل وكان قائدنا عبد القادر يدور بيننا وهو يحثنا علىٰ عدم رفع رؤوسنا حفاظًا علىٰ أرواحنا، فجأة أحاط بنا جموع من الفرسان وسيوف بعضهم تقطر من الدماء، وقد لفت ٱنتباههم عدم إطلاق النار من ناحيتنا فلم يتعرضوا لنا بأذىٰ، بل قفز عدد منهم من الخيول بخفة ورشاقة شاهرين سيوفهم وقد مروا من فوقنا، صرخ عبد القادر وقد لاحظ عدد من الجنود يحاولون ٱستعمال بنادقهم لا تطلقوا النار ببنادقكم تحت صدوركم.

قام الثوار بخفة ورشاقة بجر البغال إلىٰ عربات المدافع حيث قطروها وقادوها بعيدًا عنا ورفاقهم يحمونهم بقطع رأس كل من يحاول مقاومتهم. قلت بصوت مبحوح كابتن إن المدافع ضاعت، أجابني بحدة ظاهرة ٱسكت لا تطلقوا الرصاص هٰؤلاء إخوانكم أهل بلادكم. أطلق بعض الجنود القريبين منا رصاصهم باتجاه الفرسان حيث سقط ٱثنان منهم فما هي إلا لحظات حتىٰ طارت الرؤوس بخوذها من فوق أجسادهم بحيث تسمر الجميع وقد عقد الخوف أيديهم وألسنتهم كان القتلىٰ من العساكر حولنا بالمئات كما أنه سقط للفرسان العديد من الشهداء.هٰذِه أول معركة حقيقية أدخلها كم من الزمن مضىٰ لا أعرف لأن الزمن توقف وأنا منبطح وبندقيتي بيدي. لاحظ الفرسان بأنا لا نطلق النار وقد أحدث ذلك ثغرة في صفوف الخط الدفاعي آمنة لهم يمرون من فوقنا لينقضوا إلى الأمام والوراء والجوانب. ٱستمرت المعركة طويلًا حتىٰ ظننت أن القيامة قامت. جثث الرجال تتساقط من الطرفين. كان الفرسان الفرنساويون يحاولون تجميع أنفسهم ليدافعوا عن المشاة والمؤن فكان فرسان العرب يمزقونهم بالسيوف والرصاص

وصل إلىٰ جمعنا ضابط كومندان فرنسي فوق حصانه وبيده سيفه وباليد الأخرىٰ مسدس يطلق منه الرصاص عن يمينه ويساره، توقف حصانه أمامنا وسأل لماذا لا نطلق النار وأين المدافع؟ في تلك اللحظة مر من فوقنا فارس ملثم كالصاعقة وضرب الفرنسي بسيفه فأطاح به من على الحصان يتفجر الدم من رقبته حتىٰ كتفه. وبما أن الخوف قد شلني عن الحركة فكنت لا أعي إلا ما يجري حولي فقط. صاح الكابتن عبد القادر بنا أن أطلقوا الرصاص إلىٰ أعلىٰ إلى السماء على السما على السما بلهجته الجزائرية، وقد سمعه الفرسان بوضوح وهو يرددها مرات عديدة. أطلقت الرصاص إلى الأعلىٰ وأنا مستلقي علىٰ ظهري بحيث يراني الفرسان. بدأت أدرك قليلًا ما يدور حولي بعد أن تسلل قليل من الهدوء إلىٰ أعصابي وعقلي، إذ ضبطت أعصابي وأعملت فكري. كان زحم المعركة بدأ يخف حولنا إذ أن الثوار قد جروا بعيدًا مدافعنا أما باقي المدافع وراءنا وأمامنا فدمرت وأخذت بغالها أو قتلت، وقد رأيت حولنا جثث البغال والرجال مختلطة بعضها فوق بعض وبغال أخرىٰ شاردة لا تعرف إلىٰ أين تتجه. أما الخيول التي سقط فرسانها فهي بالمئات، أدرت رأسي يمينًا ويسارًا وفي كل الاتجاهات، رفعت صدري قليلًا عن الأرض لأرىٰ ماذا يحدث فلم أر إلا دخانًا أسودًا يملأ الأفق البعيد باتجاه رأس خط المسير حيث تجمع الفرق الرئيسية للجيش خمنت حسب معلوماتي العسكرية القليلة أن فرق المشاة والمصفحات قد وقعت في الفخ القاتل. أما نحن المؤخرة فلم يستطيع أي مدفع أن يطلق قذيفة واحدة من شدة وقع المفاجأة رغم أنني سمعت أصوات مدافع عيار خمسة وستون تطلق من بعيد ولكنها صمتت ولم أعد أسمع أي طلقة من ناحيتها. قال الكابتن عبد القادر بصوت مبحوح لم أسمعه منه قبل الآن: فرحان تفقد رجالك وسأرىٰ بقية الرجال وأعود لقد ابتعد

المهاجمون ثم قفز مسرعًا إلى الخلف ليرىٰ بقية رجاله. قفزت ببطء شديد وعيوني تدور حولي خوفًا من المفاجأة. أول رجل عثرت عليه كان سالم ذي الشاربين، كان متكومًا بجانب الطريق يرتجف من الخوف. صرخت به سالم تقدم فلم يستطع التحرك رغم المجهود الذي بذله. ٱقتربت منه وقبضت علىٰ رقبته وساعدته على الحركة قلت تحرك لا تخف يا عنتر بن شداد تحرك لقد ذهب المهاجمون. قل لي كم رصاصة أطلقت وهل قتلت أحدًا من المهاجمين. لم يجب على السؤال لأن الشلل قد أصابه من شدة الرعب سحبته إلىٰ إحدىٰ حفر الطريق وتركته ثم بدأت أتجول قليلًا فيما حولي لأتفقد رجالي الآخرين. ولحسن الحظ فقد كان الجميع سالمين بلا أي إصابة جمعتهم ثم أمرتهم بالتمركز بجانب إحدىٰ عربات الذخيرة المقلوبة علىٰ جانبها. تفرفص الجميع ملتصقين ببعضهم وقد عاد الكابتن ومعه ستة عساكر أحدهم ينزف الدم من جرح في رأسه وقد فقد خوذته الحديدية.

أمر الكابتن بالوقوف والاستعداد، أطاع الجميع بحكم العادة والتدريب وكانت المعركة حولنا لا تزال علىٰ أشدها والرصاص يصفر أحيانًا من حولنا. ٱتبعوني أمرنا القائد وهو يمتطي حصانه حيث هرول به باتجاه بعض الأشجار البعيدة قليلًا، بدأنا بالركض خلفه إلىٰ أن بلغنا الأشجار. دخلنا وراء قائدنا بين الأشجار بحيث لم نعد نرىٰ شيئًا إلا أصوات الرشاشات البعيدة وكانت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا وهي قادمة من ساحة المعركة ثم تدور عائدة في الأفق البعيد.

أمر عبد القادر أن تفرقوا وخذوا وضع الدفاع منبطحين، ثم تقدم قليلًا إلىٰ فرجة بين الأشجار وبدأ ينظر إلىٰ ما يدور في البعيد بواسطة منظاره أشار إلي بالتقدم إليه ركضت مسرعًا وانبطحت إلىٰ جانبه، قال: ٱنظر جيدًا ماذا ترىٰ وناولني المنظار.

دققت النظر ومسحت الأفق أمامي، وقلت بعد صفرة طويلة من بين شفتي خرجت بدون إرادتي، لقد تمزق الجيش وأبيد عن آخره يا سيدي الكابتن. إنها الهزيمة للجيش الفرنسي، أخذ مني المنظار وأعاد النظر وقال كوبرال: فرحان أنت الآن الرتبة الوحيدة معي لقد فرَّ الباقون أو قتلوا أنت معاوني. ثم أضاف برنة فرح وسرور: فرحان لقد وقعت الكارثة بالجيش أنظر إلى العساكر كيف تهرب مولولة والفرسان يمزقونهم بالسيوف وهٰذا دليل علىٰ أن القواد الفرنسيين إما قتلوا أو انهزموا وأظن أنهم قتلوا جميعًا فأنا أعرفهم إنهم يفضلون الموت على الهزيمة. قلت: يا سيدي الكابتن نحن ماذا سيحل بنا، أين سنذهب لقد هزم الجيش؟

قال: لا أعرف لم ينته شيء بعد فالمعركة ما زالت علىٰ أشدها ومتى انتهت سنقرر علىٰ ضوء ما سيحدث، ثم التفت إلي مبتسمًا وقال: فرحان أنا أقدرك كثيرًا لأنك لم تطلق النار أنت ورجالك وإلا كانت جريمة كبرىٰ بحق نفسك وشرفك وحق أبناء بلدك يا فرحان إن هٰؤلاء الفرنسيين الملاعين قد دمروا بلادي، قتلوا الرجال العزل واستباحوا نساءنا واستولوا على الأرض والعرض، وكما تراني أمامك فقد جندونا مقاتلين في جيوشهم لندافع عنهم وهم يفعلون بكم كما فعلوا بنا، فواجبك وواجبي أن نحاربهم بسلاحهم فهمتَ ما أعني يا فرحان. قلت: ولٰكن هٰؤلاء العساكر هل يفهمون؟ ومن لم يفهم منهم ماذا نصنع به؟، قال بلهجة آمرة حاسمة: كل من لا يفهم سنعدمه فورًا فهو عدو.

ثمَّ قام من مكمنه وانتصب واقفًا وبيده سيفه مسلولًا، أمر الجنود بالوقوف صفًا واحدًا وصاح: بسرعة.

اصطف الجميع باستعداد والرعب ينطق من وجوههم، وقف أمامهم وأنا بجانبه وقد هيأت بندقيتي للعمل، تكلم القائد وشرح

الموقف للرجال بأن الجيش قد أبيد وتمزق منهزمًا كما ترون أمامكم وأنتم محظوظون بأنكم أحياء سالمين، والآن أسألكم فردًا فردًا من منكم يريد البقاء في خدمة فرنسا ومن منكم يريد مساعدة هٰؤلاء الأبطال أبناء بلدكم ودينكم، وٱستطرد يفهمهم الوضع وبأن البقاء مع فرنسا هو خيانة عظمىٰ لسبب بسيط، وهو وجود محاربين منظمين يقاتلون الفرنسيين، فلم يعد هناك من مبرر أو حجة للبقاء في صفوف العدو الكافر.

وجه سؤاله لأول جندي في الصف قائلًا. أجب بلادك وإلا الفرنساويين؟. أجاب بسرعة صارخًا: بلادي وأهلي، وقد تبعه فورًا صوت الجميع دفعة واحدة نحن معك على الموت يا قائدنا.

كان الحوار بالعربية كأن الجميع فقدوا الذاكرة الفرنسية التي جهد الجيش لترسيخها في ذاكرتنا وأفهامنا وتحويل هٰؤلاء الرجال وأمثالهم إلىٰ مسخ ليس له شخصيه مميزة، فلا هم فرنسيين ولا هم عرب، ليسوا مسيحيين كاثوليك ولا هم مسلمين ليس لهم عقيدة يعتزون بها ولا قومية تجمعهم إلىٰ أبناء جلدتهم، إنما آلات مسيرة ليس لهم عقول يفكرون بها ولا قلوب يفقهون بإحساسها هم قرود مقلدة لأساتذتهم الفرنسيين. قال القائد عبد القادر: أنا لم أعد قائدكم، بل أنا فرد منكم فإذا ٱخترتم أن أكون قائدًا لكم فذلك سيكون بموافقتكم وبالتصويت. ما رأيكم؟ أجابه الجميع وقد التفوا حوله: أنت قائدنا. قال: حق الطاعة المطلقة للقائد تعرفونها، فأنا أطلبها منكم الآن موافقون. وافق الجميع بصوت واحد والغريب والذي لم أتوقعه مطلقًا؛ أن يزول الخوف والرعب عن وجوههم بل تحول بأعجوبة إلىٰ حماسة ملتهبة وشجاعة عجيبة. وقد وجدت كل ذلك في نفسي وكأني كنت ضائعًا وٱهتديت إلى الطريق.

سألت سالم. قلت: يا سالم هل ذهب عنك الرعب؟ قال: نعم لم

أعد خائفًا. لماذا ذهب عنك الرعب وقبل قليل كنت ستموت رعبًا؟ قال: والله يا فرحان لن أكذب عليك، لقد تصورت أني سأموت بلا طعمة ويا لخسارتك يا سالم علىٰ هٰذِه الموتة، موت الكلاب لا ريحة ولا بقبقة، هٰذا ما خطر في ذهني وحدثت به نفسي. قطع عليَّ الحوار مع سالم صوت القائد بأن نلتزم وضع الدفاع وأن نختبئ جيدًا. ٱنبطح الجميع وعاد القائد إلىٰ مكان المراقبة السابق وأنا بجانبه، ٱنبطحنا علىٰ مرتفع صغير بجانب إحدى الأشجار، قال القائد والمنظار علىٰ عينيه: فرحان الآن ٱنتهت المعركة بتدمير الجيش وإبادته عن بكرة أبيه وما تسمعه من طلقات متفرقة هي لتصفية الفلول الهاربة من الموت. ناولني المنظار وقال: دقق النظر وأمسح الأفق البعيد، هل ترىٰ أي قطعة من الجيش تنسحب متراجعة؟ دققت النظر يمينًا ويسارًا عدة مرات. أجبته: لا أرىٰ إلا جثث وحطام المصفحات والمدافع. ما هٰذِه المعركة أيها القائد؟ شيء عجيب أنا لم ألاحظ مع المهاجمين أسلحة ثقيلة، فكيف تم تحطيم هٰذا الجيش بمصفَّحاته ورشاشاته ومدافعه وفرسانه ومشاته. بماذا؟ ما هو سلاحهم الفتَّاك الذي أبادوا به هٰذا الجيش؟ نظر إليَّ الكابتن بنصف عينه وقال: يا فرحان إن الله ينصر من يشاء، إن سلاح هٰؤلاء الشجعان السيف والبندقية مقرونًا بالإيمان بالله والحق الناصع الذي لا يخالطه شك بأنهم علىٰ حق، وقال: فهمت فرحان. ألم تلاحظ أنت كيف ٱنقلب الجنود معنا إلىٰ أسود بعد أن كان الخوف قد عقد ألسنتهم وأيديهم عندما كانوا جنودًا مسيرين تحت راية الباطل، راية المستعمر الغاصب لكل الحقوق في هٰذا الوطن وغيره من الأوطان. إن خوفهم الحقيقي قد صرح به سالم قبل قليل عندما سألته أنت. إنه كامن في عقولهم وقلوبهم لقد سمعت جوابه. هٰذا السالم إنه رجل بسيط أمي وجاهل، ولكن الحق واحد لا يفرق بين جاهل ومتعلم إنه قائد للقلوب

إلىٰ معرفة الطريق الصحيح في الحياة الحرة الكريمة.

بدأ المساء يقترب وقد نسينا الجوع والعطش رغم أن لساني كان كأنه قطعة من الخشب الجاف في حلقي. فلم نأكل ولم نشرب من المطرات التي نحملها. أشرت إلى القائد علىٰ مجموعة من الفرسان تقترب باتجاهنا. قال: جاءت الفرصة وعاد بسرعة إلى الرجال، سائلهم للمرة الأخيرة قال: لآخر مرة أسألكم هل أنتم مستعدون للقيام بما يفرضه الوطن عليكم؟ من لا يريد فلينسحب الآن، وإلا لا رجعة بعد الآن، ومن يخالف بعدها فمصيره الإعدام. لماذا أتعرفون؟ أجاب نفسه: لأنها الخيانة العظمىٰ لله والأمة والوطن. وأردف وقد ٱرتجف جسده أنا أخوكم عربي من الجزائر هٰذِه البلاد بلادي كما هي الجزائر، نحن لم نعترف بتقسيم بلادنا العربية التي قسمها الغرب الصليبي، ليسهل عليه ٱبتلاعها، وليأمن مستقبلًا من أن تجتاز جيوش العرب مرة أخرىٰ إلىٰ بلادهم كما حدث في المرة الأولىٰ عندما كان الحاكم الواحد يسير جيوش الأمة من كل مكان إلىٰ أي مكان، هل فهمتم؟ نعم فهمنا قالها الجميع: نحن رهن إشارتك لن نتراجع قال ٱرفعوا الخوذ عن رؤوسكم فهي شعار الأعداء. قذف الجميع خوذهم إلى الأرض.

أخرج القائد من جيبه منديلًا أبيض، وقال: ضعوا مثلي وأخذ عصا من إحدى الأشجار وثبت المنديل علىٰ رأسها. أخذ كل واحد منا منديله العسكري وثبته علىٰ حربة البندقية كالعلم. قفوا مكانكم قال القائد، وتقدم باتجاه الفرجة منتظرًا وصول الفرسان وهو يلوح بالعصا للفرسان الذين ٱقتربوا صاح بالعربية المغربية: إلىٰ هنا إلىٰ هنا يا إخوان نحن معكم ٱقتربوا منا. توقف رتل الفرسان قليلًا وكأنهم فوجئوا، ثم خبت خيولهم مسرعة باتجاهنا.

وصل أسرع الفرسان أمامنا حيث وقف جواده علىٰ قدميه وهو

يصهل بقوة وعنفوان. كان الفارس ملثمًا بكوفية وشاربيه المعكوفين إلىٰ أعلىٰ تدخل الرعب في قلوب أشجع الرجال. وقف الحصان أمامنا مباشرة، قلبت بندقيتي وأمسكتها من ماسورتها ورفعتها إلىٰ أعلىٰ علىٰ عقبها. إشارة الأستسلام وطلب الأمان. وصل جمع الفرسان المؤلف من حوالي مائة فارس. كان أكثرهم قد تخضبت ثيابه بالدماء. صاح بنا الفارس المرعب وسيفه في يده أحمرًا من الدماء المتجمدة علىٰ نصله الأبيض: من أنتم. أجابه عبد القادر: نحن فرقة مدفعية فرنساوية ونحن عرب مثلكم وقد هربنا من صفوف الجيش ولم نحاربكم ونريد الألتحاق في صفوفكم لنقاتل معكم، وتابع بلهجة حازمة: إننا لم نطلق النار عليكم أبدًا. تقدم فارس وقد همز حصانه بمهمازيه فنفر الحصان ووقف علىٰ قدميه رافعًا يديه في الهواء يضرب بهما بنزق ثم هدأ واقفًا.. قال: أنتم الذين كنتم هناك بجانب المدافع. قال: عبد القادر نعم نحن المدفعيين الذين كنا هناك منبطحين. قال الفارس: حيَّاكم الله يا إخوان، لقد فتحتم لنا طريقًا لندور إلى الجهة الأخرى التي صبت علينا نيرانها، لقد أبدناهم، وتابع: لقد سحبنا مدافعكم أمامكم، لماذا لم تدافعوا عنها؟ قال القائد عبد القادر: تركناكم تأخذونها لحاجتكم إليها، ولكن لماذا لم تأخذوا ذخائرها؟. قال الفارس: ستعودون معنا الآن فأنتم أعلم بذخائرها وما يلزمها. وتابع فرحان: نبشركم بأن المعركة أنتهت ولم يبق أي كلب علىٰ قيد الحياة. أين رجالك؟ موجودين قال القائد وقد صرخ بأعلىٰ صوته: الجميع إلىٰ هنا أمامي فورًا وبسرعة. ركض الرجال واصطفوا أمام قائدهم، قال الفارس: جميعكم ستنضمون إلينا، من يريد منكم العودة إلىٰ أهله فسنوصله آمنًا لا تخافوا يا إخوان نحن أهل. قال الرجال: سنقاتل معكم وهٰذا قائدنا. قال الفارس: واضح أنه قائدكم بارك الله فيكم. كلكم عرب؟ نعم كلنا عرب قلتها

للفارس. قال: مرحبًا يا هلا بالنشامة، ونزل بعضهم عن الخيول وعانقونا. شعرت بالدموع تنحدر متدحرجة علىٰ خدي وقد ٱختلطت مشاعري.

قال الفرسان: نحن أهلكم وإخوانكم، ٱتبعونا ثم ٱنفصل قسم من الفرسان تابع طريقه وعاد قسم آخر يسبقنا إلىٰ مكان المعركة وأشلائها. سرنا وراء قائدنا مسرعين إلىٰ مكان المعركة، ولما وصلنا وقفت مشدوهًا لا أصدق ما أرىٰ. قلت أخاطب سالم: هل كنا نحن هنا يا سالم منذ ساعة أو ساعتين؟ كيف نجونا من الموت؟ يا سالم آمن أن الأعمار بيد الله. وتابع العم فرحان يخاطبنا قائلًا: والله يا أبنائي مهما وصفت وشرحت لكم فظاعة المشهد فإني لا أستطيع نقل جزء صغير من الحقيقة، ولو رواها لي أصدق الرجال لما صدقت.

آلاف من جثث الجنود والخيول والبغال والمصفحات المقلوبة علىٰ جانبها والصناديق المبعثرة والمكومة فوق بعضها، والرشاشات الثقيلة وقد رقد رجالها حولها أموات منهم قد فقد رأسه ومنهم قطع نصفين، بطون مبقورة وأزرع مبتورة. كان واضحًا من شكل الطعنات أن السيوف هي التي قامت بحسم المعركة، من يصدق أن أحدث الجيوش الأوربية المنتصرة في الحرب قد هزمت هي وأسلحتها وقيادتها بحد السيف هٰذِه قطعًا معجزة لا يستطيع أي شعب في الدنيا القيام بها سوى العرب إنها وقف عليهم. ٱقترب مني أحد الفرسان وناداني. ما ٱسمك يا أخ؟ تفحصته قليلًا. فرحان الكوبرال فرحان يا أخي. قال: من أي مدينة أو قرية يا أخي؟ من مدينة حماه يا أخي.

أهلًا وسهلًا وتابع: وهو يشد لجام حصانه بقوة، كيف علقت مع هٰؤلاء الخنازير الفرنساويين، كل علمي أنكم لا تخدمون مطلقًا هٰذا العدو، هٰذِه ليست من عادتكم. وتابع: كم عددكم أنتم الحمويون في

هٰذا الجيش؟ قلت علىٰ حد علمي لا يوجد غيري. أما إذا كان هناك أحدًا في هٰذا الجيش الكبير فهٰذا لا علم لي به. أجاب مبتسمًا. صدق ظني وقد عدت إلىٰ حقيقتك عند الآمتحان، إن رفاقك يجمعون ذخيرة المدافع لو تساعدهم ثم بعد الآنتهاء تفقد مكان المعركة الحقيقية هناك وأشار بيده إلى البعيد أمامنا وأضاف: سآخذك لترىٰ وتقص ما رأيت علىٰ أهلك وأصحابك، أنت شاهد عيان ومشارك. وهٰذِه أمانة في عنقك. حملنا كل ما وجدناه من صناديق القنابل وذخيرة الرشاشات على العربات الصالحة، وقد أحضر الرجال يقودهم سالم كل البغال الشاردة القريبة حيث ربطها إلى المدافع بمهارة المعلم.

ثم رافق بعض الفرسان لجمع ما يستطيعون من الخيول والبغال السارحة حيث تم قطرها إلى العربات يساعدنا بعض الفرسان، قدم سالم أحد الخيول إلى القائد وبغلًا لي، ثم بدأ المسير على الخط الرئيسي للمعركة، بدأت بعدد جثث الضباط الملقاة على الجانبين وذلك لتمييزها عن جثث العساكر، إذ أن الفرنسيين يعتبرون الخسائر فقط في ضباطهم أما الباقون فلا قيمة لهم، لأنهم من مستعمراتهم، وهناك مئات الألوف منهم جاهزين وللخدمة خصوصًا الزنوج السود. إذًا فلا خسارة حقيقة بفقدانهم كانت ساحة المعركة تتسع كلما تقدمنا إلى الأمام، عددت خلال مسيري علىٰ ما أذكر آثنتين وثمانين جثة ضابط، منهم كان السيف لا يزال بيده، ومنهم من سقط هو وحصانه معًا مضرجين بالدماء. توقفت عن العد لانشغالنا بالتقاط الأعتدة التي نقع عليها، كان آلاف من الثوار يبحثون في ساحة المعركة وهم يجمعون السلاح والذخائر ويحملونها علىٰ عربات الجيش الصالحة.

حقًا إنها غنيمة كبيرة زحف الظلام ليغطي هٰذِه المذبحة بستاره الأسود، وكنا قد تركنا وراءنا آخر نقطة من ساحة المعركة ونحن نسير

وراء بعض الفرسان بعد أن كلفهم أحد زعمائهم بالمسير معنا إلىٰ حيث لا أعلم. كنا نقف للاستراحة كل ساعتين بناءً علىٰ إرادة زعيم الفرسان فكنا نرتاح معًا وقد قدموا لنا بعض الطعام الذي قدم به بعض القرويين الذين مررنا بهم، وكان غالبًا من الخبز والتين والعنب والتمر.

سألت أحدهم ونحن نأكل معًا إلىٰ أين نتجه إن شاء الله؟ أجابني وهو يمضغ طعامه: إلىٰ قريتنا وهي قريبه كدنا نصلها، وحين وصولنا سنأكل طعامًا حقيقيًا وننام ملء عيوننا، ثم تفحصني رغم الظلام ومد يده إلىٰ سترتي العسكرية وهزها ثم قال: سنخلع عنكم هٰذا العار ونلبسكم اللباس العربي فهٰذا لا يليق برجل مخلص مثلك ومثل رفاقك، لقد أرسلكم الله لنا هدية النصر، نحن ليست عندنا خبرة بالمدافع ولا نملكها وقد ساقها الله إلينا غنيمة، أنتم مدفعيتنا. قلت يا أخ: عرفني عن ٱسمك. أنا فرحان كوبرال مدفعي من مدينة حماه.

هاشم: قال أسمه وقد تابع حديثه مكملًا وهل ستة مدافع تكفي لصد هجوم فرقة من الفرنسيين. نعم تكفي إذا توفرت ذخيرتها. قال: يا أخ فرحان لماذا هربتم من المعركة؟ وما هو عقاب فعلكم هٰذا عند الكلاب الفرنساويين؟ أجبته: الإعدام رميًا بالرصاص بعد محاكمة قصيرة بقصد التشهير وليس تحقيق العدالة. قال: لا تخافوا أنتم إخوتنا ولن يصلوا إليكم ونحن أحياء وهتف ما أحلى الموت في سبيل الوطن والشرف، نحن لا نسلم ضيفنا أبدًا أبدًا. تابعنا المسير ببطء شديد لثقل العربات، بدأت تباشير الفجر تظهر في الأفق الشرقي ونحن لازلنا نجد السير في ٱتجاه مجهول بالنسبة إلينا كما هو مصيرنا. بعد ساعة أخرىٰ من المسير المضني أرسلت الشمس أولىٰ خيوطها الذهبية متسللة بين التلال والشعاب الوعرة، فكشفت عن جماعات كثيرة تسير أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين، إنه منظر مهيب. هٰؤلاء الأبطال قهروا الجيش الفرنسي

المتعجرف، فرنسا المنتصرة المتغطرسة. لقد مرَّغوا أنفها بالتراب وبماذا؟بحد السيف الآن يا سالم نحن من هٰؤلاء الأبطال. قال: نعم نعم نحن منهم، قلت: البارحة مع جيش الاحتلال. والآن مع جيش الوطن هٰذا قدري

اقتربت ساعة الظهيرة وقد أخذ منا التعب والإرهاق نشاطنا الصباحي اقترب مني سالم وقال ببلاهة: فرحان أين نحن؟ اسكت وتابع المسير مصيرنا جميعًا واحد لا تخف يا سالم وطمن باقي الرجال. ظهرت في الأفق القريب قرية صغيرة. استدار الفارس هاشم وأشار بيده إلى القرية. وصلنا يا شباب هٰذِه بلدنا أمامكم ثم همز حصانه منطلقًا نحوها بسرعة واقتربنا من أطراف القرية ثم أوقفنا العربات وبدأ الرجال بفصل البغال عن العربات والمدافع للاستراحة وإطعامها.

وصل جمع من أهل القرية مرحبين يحملون الماء والطعام، فقدموه إلينا وتكفلوا بالاهتمام بالحيوانات. قرر الثوار أن تكون هٰذِه القرية مكان تجمعنا لذلك وزعونا علىٰ بيوت الأهالي للمبيت، في اليوم التالي نظم قائدنا عبد القادر فرقة المدفعية، حيث طلب عدة رجال من الثوار ليتم تدريبهم علىٰ مساعدتنا بحيث أصبح لكل مدفع طقم كامل من الرجال، سألت مختار القرية عن إمكانية إرسال رسالة لوالدتي. قال: اكتبها يا بني ونحن نتكفل بإيصالها.

كتبت رسالة مطولة شرحت فيها كل ما جرىٰ معنا من الأحداث وطمأنتها بأني حي أرزق وأن تطمأن زوجتي علىٰ حياتي، ثم شرحت لها محاولًا إفهامها بأني لا أعرف مصيري ولا ما يستجد في الأيام القادمة، لذلك إذا أرادت فوزية العودة إلىٰ بيت أهلها فلا مانع عندي. عنونت الرسالة باسم مصطفىٰ ليقرأها لوالدتي وليحتفظ بها سرًا، وطلبت من مصطفىٰ أن يقرر ذلك وأن يرعىٰ عائلتي.

سلمت الرسالة إلى المختار وشكرته ثم طلبت من باقي الرجال أن يكتب كل منهم رسالة إلىٰ أهله يشعرهم فيها بأنه حي يرزق فقط وأن لا يذكروا مكان تواجدهم.

مضىٰ ما يقارب الشهر ونحن ندرب الرجال معنا حتىٰ أصبحوا مدفعيين من الطراز الأول ٱخترنا مكان تجمع المدافع خارج القرية بين أشجار التين والكرمة. طائرة قادمة، صرخت بالقائد عبد القادر وهو يلقي درسًا على الثوار والجنود، ٱستدار نحوي وقال: هل رأيتها؟ أشرت إلىٰ نقطة بعيدة في الأفق، أظن أنها هناك.

صرخ القائد آمرًا الجميع: ضعوا أغصان الأشجار فوق المدافع وانبطحوا أرضًا بدون حركة، وبسرعة نفذ الجميع الأمر وانبطحوا. سرب من الطائرات مر من فوقنا، حامت طائرة حول القرية مرتين ثم ٱبتعدت ملتحقة بالسرب الذي تابع متطلعًا المنطقة. في المساء حضر جمع من الفرسان إلى القرية مستنفرين رجالها للحرب، وجاءنا الأمر بالاستعداد للمسير ليلًا. وكنا قد جهزنا مدافعنا وذخائرها وقطرناها إلى البغال وبدأ المسير إلىٰ حيث لا نعلم وجهتنا إذ أننا غرباء عن المنطقة كما أنهم لم يدرسونا جغرافية هٰذِه البلاد في الجيش.

استمر سيرنا ليلًا حتى ٱقترب الصباح فطلب أحد الفرسان التوقف ورافق قائدنا إلىٰ مكان القيادة للتشاور. بزغت شمس الصباح وكشفت عن ألوف من الفرسان والرجال منتشرين بين كروم العنب وأشجار التين والمشمش. يا سالم جاءك الموت يا تارك الصلاة قلتها مداعبًا له. أجابني سالم بجدية لم أعهدها فيه: والله يا فرحان كل خوفي في المعركة الأولىٰ أن أموت كالكلب علىٰ قارعة الطريق كما قلت لك سابقًا وبيد أبناء بلدي، أما الآن فلا أخشى الموت على الأقل لن يقول أحدًا عني أني مت خائنًا مع الفرنساوي وبدون قيمة.

ضربت بيدي علىٰ صدره العريض وقلت: الآن أنت فهمان يا ...نم ظننتك حمارًا. أجابني: كنت حمارًا أما الآن فأنا رجل. قلت بارك الله فيك وفي جميع رفاقنا، ومهما حصل فإنك تعرف والدتي إذا أنا قتلت وسلمك الله فاذهب إليها وخبرها: بأني مت مجاهدًا ومن طرفي سأخبر أهلك إن أنت نلت الشهادة وسلمت أنا. تعاهدنا علىٰ ذلك.

أمرت جميع رفاقنا من الجنود السابقين بأن يفعلوا مثلنا ويعطي كل واحد منهم عنوان أهله إلىٰ رفيقه ليعلموا مصيرهم إذا قضوا شهداء أو أسرىٰ لأن هٰذا من حق الأهل. وصل قائدنا يخب علىٰ صهوة حصانه وصاح آمرًا: اتبعوني. جررنا البغال والعربات وسرنا وراء قائدنا قدر ساعة واحدة وصلنا إلىٰ أرض منبسطة بين التلال المكسوة بالأشجار. قال القائد: ضعوا المدافع في وضعية القتال واحفروا لها مساطب، وأشار إلى البقعة التي اختارها.

نفذنا بسرعة وربصنا المدافع ثم سقنا البغال إلىٰ مكان بعيد بين الأشجار القريبة نزل القائد عن حصانه مجمعنا وبدأ يشرح. قال: يا إخوتي سأشرح لكم الوضع حتىٰ تكونوا علىٰ معرفة كاملة بما يجري، حتىٰ تقاتلوا عن معرفة فأنتم الآن جنود الوطن وهٰذا من حقكم. بعد المعركة السابقة معركة المزرعة، حشدت القيادة الفرنسية ثلاثة فرق كبيرة وهي تتقرب ببطء مع الحذر الشديد علىٰ ثلاثة محاور. وسيكون لقاء هٰذِه الفرقة في نقطة تبعد عن مكاننا مساحة أربعة كيلو مترات في مكان يسمى المسيفره، لذلك وضعت هٰذِه النقطة تحت مرمىٰ مدافعنا حسب طلب قائد الثوار، لذلك تشجعوا وقاتلوا بشجاعة لأن الأمل معقود علىٰ مدافعكم في إسناد هجمات الثوار وصد هجوم العدو وإيقاع الخسائر في صفوفه. نظر إلينا طويلًا وقال: فرحان سأذهب لأرصد الموقع ثم أعود لأعطيك زوايا الرمي أنت المسؤول عن ذلك،

سأعطيك التصحيح من علىٰ رأس هٰذا التل المشرف علىٰ موقع الحشود. رفعت يدي بالتحية وقلت الفرقة جاهزة للعمل أيها القائد.

انطلق بحصانه يطوي الأرض حتىٰ وصل ذروة التل حيث نزل عن حصانه ووضع المنظار علىٰ عينيه وبدأ التسجيل علىٰ دفتره الصغير، تكرر ذلك مرات عديدة. قفز علىٰ حصانه وعاد مسرعًا، ناولني الدفتر وقال: سجل الزوايا في دفترك وصحح مدافعك عليها، سأعطيك التصحيح بالإشارة باليد. يمينًا اليد اليمين ويسارًا باليد اليسار، أبعد بهٰذِه المحربة البيضاء إلى الخلف بالحمراء ومقدار التصحيح في كل الحالات لا تتجاوز نصف درجة. فهمت، أستعمل منظارك لتراني بدقة. ثم امتطىٰ حصانه إلى التل. أما أنا فقد صححت المدافع حسب الأمر.

أمرت الرجال بقطع أغصان كبيرة من الأشجار القريبة لإخفاء المدافع عن الطائرات إذ توقعت عودتها عند بدأ المعركة لكشف مواقعنا وقصفها وهٰذا أكثر ما أخشاه، لذلك وضعت رشاشين هوشكيس بعيدين عنا لضرب الطائرات إذا حاولت قصفنا. نفذ الرجال قدر المستطاع وبدأ الأنتظار الطويل مضىٰ أكثر النهار فأمرت الرجال بتناول الطعام والأستراحة قدر ما يستطيعون. قلت لهم: ناموا إذا أردتم وخذوا راحتكم. نام بعضهم وتمدد البعض الآخر تحت ظلال الأغصان المدلاة من المدافع. زحف الليل وعاد قائدنا وتناول بعض الطعام وتمدد بجانب أحد المدافع، ناداني: فرحان تمدد إلىٰ جانبي. نفذت أمره، نظر إلي طويلًا وقال: يا فرحان إذا أنا قتلت وهٰذا ما أتوقعه فأوصيك أن تحاول إرسال رسالتي هٰذِه إلىٰ أهلي، أما العنوان فمكتوب بوضوح علىٰ مغلف الرسالة بالفرنسية. أضاف: هٰذا أمر عسكري ومد يده بالرسالة. أخذتها منه وخبأتها في جيب سروالي الفضفاض الذي أهداني إياه الفارس هاشم بدلًا من البدلة العسكرية الفرنسية، وهكذا فعلوا بجميع

العساكر حيث تحولوا إلىٰ مجاهدين عرب، ماعدا أحذيتنا العسكرية فهي مناسبة لهٰذِه الأرض الجبلية الوعرة. نام القائد ملء عينيه، نمت بجانبه نومًا عميقًا بعد أن رتبت حراسة مشددة كاملة.

أشرق صباح اليوم التالي باردًا بدون أي حادث، ٱستيقظ القائد وتناول فطوره وقفز إلىٰ حصانه وأسرع نحو التل المرتفع الذي ٱتخذه مرصدًا.

كانت نساء القرى المجاورة لنا يحضرون لنا الطعام والماء محمولًا علىٰ رؤوسهم الملفوفة بأغطية بيضاء طويلة تضفي هيبة وجمالًا إلىٰ وجوههم الجميلة المستديرة، كانوا يأتون جماعات يقدمون لنا الطعام والماء مرحبين باشين مشجعين لنا على الصبر والقتال بشجاعة الرجال، كانوا يهزجون أمامنا مثيرين نخوتنا وشهامتنا بأشعار عربية ومقولات تحرك أجبن الرجال ليلقي بنفسه إلى الموت. لن أنسىٰ يا أبنائي أبدًا تلك الحرائر من النساء العربيات، إنهم نصف المعركة ومفتاح النصر الأكيد. قلت لإحداهن بعد أن ٱنتهت من مقولتها الحماسية: لعيونك يا بنت الأصايل من دماء هٰؤلاء الخنازير سنروي لك أرض الدار. أبشري يا أخت نحن إخوتك ورجالك ولا نهاب الموت.

تحلفنا حول صناديق الذخيرة، وكانت عيوني لا تفارق قمة التل الذي جلس عليه قائدنا كنت أراقبه يرفع المنظار مرة تلو أخرىٰ، ثم يسجل في دفتره ما يستجد. سمعت صوت قرقعة مكتومة أشبه بصوت الرعد البعيد، قفزت من مكاني وصحت بالرجال إلى المعركة يا رجال كل جماعة أمام مدفعها، ٱختبئوا فورًا إذا سمعتم أصوات الطائرات أمرت رماة الرشاشات البعيدين عنا بأن يطلقوا النار علىٰ أي طائرة تقترب منا، أسرع الرجال إلىٰ مدافعهم وكشفوها وهيئوها للعمل، عاد

القائد بسرعة كبيرة. أوقف حصانه أمامي وأخرج دفتره وناولني إياه وقال: صحح يا فرحان ٱتخذوا مواقع غير القديمة لقد وصلوا. نقلت علىٰ دفتري الأرقام وناولته دفتره حيث ٱنطلق كالسهم وهو يوصيني بالاستعداد للضرب عند إشارته بيده. زادت أصوات القرقعة المكتومة وبدأت تتوضح إذ رأيت بعض الأنفجارات علىٰ رؤوس التلال حولنا وفي بعض الوديان.

نحن طبعًا لا نعرف ما يجري حولنا من حركات لأننا في مكان منخفض عن ساحة المعركة البعيدة. طال ٱنتظارنا وتصاعد قصف المدافع الفرنساوية بشكل كبير، ٱقتربت بعض الأنفجارات من موقعنا. تسمرت عيوني علىٰ موقع قائدنا الذي لم يبد أي حركة إذ كان منظاره لا يفارق عينيه، ٱستعملت منظاري لأراه جيدًا.

من لم يدخل معركة حقيقية لا يعرف ثقل الأنتظار على المقاتلين، فقد بدأ الرجال من الثوار يفقدون صبرهم. قال أحدهم مخاطبًا رفاقه: ماذا ننتظر ٱحملوا سلاحكم لنهجم على الفرنساوي؟ أجابه سالم: نحن ننتظر الأوامر من الكابتن عبد القادر، يجب عليكم أن تتعلموا الأنضباط والطاعة وإلا فإنك كارثة على الجميع. ثم صرخ في وجهه: أن التزم الصمت والصبر ونفذ المهمة الموكولة إليك. كنت أراقب ما يجري، قلت: عظيم سالم إنك أصبحت قائدًا، هٰذِه هي عقلية القواد. ثم وجهت كلامي إلى الثوار قلت: يا إخوتي ٱعلموا أن إخواننا المقاتلين يعتمدون علينا في إسنادهم وتغطية هجومهم أو ٱنسحابهم. الحرب يا إخوتي تتطلب الصبر والعقل والحكمة، أما الحماسة المتهورة فلا تؤدي إلا إلى الفشل والهزيمة. هل تريدون الهزيمة والموت لإخوانكم المهاجمين أجيبوني؟ قال أكبرهم سنًا: دعك يا أخ من مقولته نحن تحت أمرك.

ازداد صوت إعصار المعركة وبدأنا نميز أصوات الرشاشات الثقيلة وهي تطلق نيرانها بغزارة شديدة جدًا، ركبت أحد البغال ولحقت بالقائد وقفت بجانبه ناولني منظاره وأشار بيده إلىٰ جهة المعركة، وضعت المنظار علىٰ عيوني ودققت النظر. يا لهول ما رأيت، آلاف الجنود تتقدم ببطء تساندها مصفحات جديدة لم نرىٰ مثلها من قبل في الجيش الفرنساوي كان واضحًا إطلاق النار من مدافعها ورشاشاتها المتعددة، أدرت المنظار باتجاه مرمى النيران الفرنسية. تأكد لي أن وضع الثوار والمجاهدين حرجًا وضعيفًا أمام هٰذِه الأسلحة وخصوصًا أسراب الطائرات التي تلقي عليهم القنابل كما تبين تراجع مجموعات منهم باتجاه الوديان الجانبية. أعدت النظر باتجاه تقدم الجيش الفرنسي. قال القائد: ماذا ترىٰ؟ وكانت أول مرة يطلب فيها رأيي في الموقف الحربي.

قلت: يا أخي أنا كوبرال مدفعي لا علم لي بإدارة المعركة ولكن إذا أردت رأيي فيجب أن نطلق مدافعنا حين وصولهم إلى المنخفض الكبير لأن صفوفهم سوف تتقارب مما يؤدي إلىٰ إيقاع أكبر الخسائر بالرجال والمصفحات. ندعوا إلىٰ الله أن يزعزع صفوفهم. قال بابتهاج: عظيم فرحان، ولكن ركز قصفك السريع علىٰ منتصف الوادي لأن المصفحات لا تستطيع تسلق الجوانب لوعورتها. ونأمل أن يعالج المجاهدين الجوانب لأن المشاة ستحاول تسلق الجانبين كل ما يهمنا تدمير المصفحات وقلب الهجوم، سجل عندك إحداثيات التصحيح الجديد.

سجلت إحداثيات الرمي على الساحة المختارة ثم ركبت بغلي وعدت مسرعًا إلىٰ رجالي صححت زوايا الرمي وأمرت بفتح صناديق القنابل وتلقيم المدافع. ففز الجميع بسرعة وحماس لتنفيذ الأوامر.

نصف ساعة أخرىٰ ورفع القائد يده وأنزلها بسرعة، أمرت المدفع الأول. نار. ٱنطلقت القذيفة تصفر مفرقعة، ٱنتظرت إشارة التصحيح من القائد وإذا بيده ترتفع وتنخفض بشدة آمرًا متابعة الرمي بكثافة.

أمرت الدافع كلها دفعة واحدة حتىٰ تكون النيران مؤثرة إلىٰ أقصىٰ حد - من القنابل تنفجر دفعة واحدة تحدث رعبًا وخسائر كبيرة تابعنا إطلاق المدافع بأقصىٰ سرعة، كان القائد يصحح الرمي كل عشرة دقائق خطر لي أن أخدع العدو عن عدد المدافع وزيادة تأثيرها المعنوي. فأمرت بإطلاق أربعة معًا ثم مدفعين بعدهما حتىٰ لا أدع فرصة للعدو للتحرك بين كل رشقة وأخرىٰ. وبذلك أغلقت الفاصل الزمني بين كل رشقة وأخرىٰ وبدأت أناوب بين المدافع علىٰ جميع الأوضاع أشار لي القائد بالقدوم ركبت بغلي وأسرعت إليه قال فرحان: قلت نعم، قال: ٱنظر بمنظارك إلىٰ مدافعك ماذا صنعت بالعدو؟ نظرت إلى الوادي الذي تجمع فيه القسم الأكبر من الهجوم. رأيت قنابلنا تنفجر معًا فتحدث نوافير من الحجارة والتراب بحيث تتحول كل قنبلة إلىٰ عشرة قنابل، رأيت المصفحات وهي تحاول التراجع والدخان يتصاعد من عدد منها محترقة أما الجنود فكان وضعهم مريعًا. قلت للقائد: سأعود لأمسح كامل الوادي بتحريك الرمي يمينًا

مرة ويسارًا مرة أخرىٰ بحيث لا يبقىٰ مكان آمن علىٰ عرض النسق. لقد دمر القلب وبقى الجانبين. ضحك مسرورًا

حقًا يجب أن تكون ضابطًا. أسرع يا أخي بارك الله فيك. عدت ببغلي وقفزت إلىٰ موقعي أمرت بالوقوف عن الرمي. صححت يسارًا وأطلقت عدة رشقات ثم يمينًا عدة رشقات ثم عدت إلى القلب وهكذا بدأنا نراوح الرمي علىٰ صفوف العدو بالرمي الكثيف. كان الرجال يحملون الذخائر من بين الأشجار الكثيفة بسرعة كبيرة، وفي هٰذِه الأثناء

خف ضغط العدو على الثوار فتحركوا لمهاجمة الجانبين، وقد التف الفرسان حول الجناح الأيمن للجيش حيث وصلوا إلىٰ مؤخرته فتوقف الهجوم وتحول إلىٰ تراجع وقد علمت ذلك عند ٱنتهاء المعركة. حاول الطيران قصف مدافعنا فتصدت له رشاشات الحماية. سقطت طائرة محترقة ثم تبعتها أخرىٰ وثالثة في دقائق قليلة، ألقت باقي الطائرات حمولتها حولنا وعادت منهزمة. في اليوم التالي باكرًا أشار القائد بتصحيح جديد عرفت منه أن العدو يتراجع إلى الخلف فتابعنا تراجعه برماياتنا حتىٰ أصبح خارج مدىٰ مدافعنا. أشار القائد بالتوقف وعاد يهب الأرض بحصانه. قفز أمام الرجال وضمني وقبلني وقبل الجميع، ثم بدأ يشرح سير المعركة وتأثير مدافعنا عليها. وقال: إن المجاهدين لاحقوا العدو وضغطوا عليه بشدة، فتحول قسم كبير من الجيش إلىٰ هزيمة كاملة، أما القيادة وقسم منهم فقد تراجعوا بنظام شديد ولكن بخسائر كبيرة بالرجال والمعدات. وصل إلينا عدد من زعماء المجاهدين لشكرنا علىٰ ما قمنا به.

أخفينا المدافع بين الأشجار حتىٰ لا تكشفها الطائرات التي مسحت سماء المنطقة بعد المعركة وقد أسقط المجاهدين العشرات منها وأسروا بعض الطيارين لذا كانت تقترب بحذر شديد. طلبت منا قيادة المجاهدين التحرك ففطرنا مدافعنا وذخيرتنا وسرنا وراء عدد من الفرسان إلىٰ مكان آخر. قلت للقائد سرًا إن الذخائر أصبحت قليلة لا تكفينا إذا حدثت معركة أخرىٰ قال بقلق: سنتدبر الأمر. توقفنا ليلًا للراحة والطعام. ٱقتربت من القائد وجلست بجانبه وكان التعب قد أخذ منا بشدة. قلت بصوت منخفض: عندي فكرة أتسمح أن أشرحها. قال: تكلم ما هي فكرتك قل ما شئت فنحن الآن إخوة الجهاد وقد زالت الرتب العسكرية الٱستعمارية. شرحت له فكرتي التي تقضي بأن نأخذ

بعض الفرسان ثم نلتف حول جناح الجيش المعسكر بفرقتين منهم ونهاجم مواقع مدافعهم لنستولي علىٰ ما يمكن من الذخيرة ونعطل أكبر قدر من المدافع وسأذهب أنا وسالم مع المهاجمين حتىٰ ننتقي العيار المناسب لمدافعنا. ما رأيك يا أخ عبد القادر؟ أجابني ببرود غدًا سنناقش ما قلت مع قيادة المجاهدين. اَذهب إلىٰ رجالك وخذ قسطًا من النوم فعندنا غدًا معركة أخرىٰ، ثم تمدد ونام ملأ عينيه. سكت العم فرحان طويلًا وبدأ يرشف من كأس الشاي الذي قدمه العم محمد ثم نظر إلينا مبتسمًا وقال: الذي أقصه عليكم هو جزء صغير مما جرىٰ وللأسف فقد نسيت أسماء الرجال والأماكن التي تنقلنا فيها. أما تفاصيل المعارك فقد بقيت راسخة في ذاكرتي بكل دقة ولن أنساها حتىٰ مماتي، كما لن أنسىٰ قائدنا عبد القادر رحمه الله وما جرىٰ بيني وبينه.

لعلكم تسألوني ماذا حدث لوالدتي وزوجتي، أقول لكم إني نسيت كل شيء في الدنيا إلا ما نحن فيه لسبب بسيط. أتعرفون ما هو؟ قلنا ما هو البسيط يا عم؟ قال وقد وضع كأس الشاي أمامه: كيف أتذكر عائلتي وأنا أرى المجاهدين يتساقطون بالمئات قتلىٰ وجرحىٰ فكان آباؤهم وزوجاتهم يدفنونهم بالزغاريد إذًا كيف أكون أقل منهم رجولة وتضحية. ويمكن أن أقتل في أي لحظة كغيري، لذا اَتخذت هٰؤلاء الناس أهلي وعائلتي. أليس عبد القادر قد ضحىٰ بأهله في أقصى المغرب العربي وجازف بحياته وسعادته؟ ألم يعرض عائلته للشقاء في موقفه الشريف؟ ثم قال بهدوء: يا أبنائي لكل شيء في هٰذِه الدنيا ثمن. الخيانة والسفالة والاَنحطاط لهم ثمن. الشرف والكرامة والمروءة لهم ثمن. فاختاروا لحياتكم المستقبلية منذ الآن أي المواقف تريدونها، ولكن أوصيكم وستتذكروني في مستقبل الأيام عندما تحملون مسؤولياتكم بأن تكونوا علىٰ قناعة وإيمان تامين بكل موقف تمليه

عليكم الحياة. كونوا صادقين مع أنفسكم قبل الآخرين ولا يهمكم بعدها أحدًا، صدقوني ستكونوا سعداء في صدقكم مهما بلغ الثمن من الشقاء أو التعب. ثم تابع قصته من جديد. قال: في اليوم التالي ٱستيقظنا علىٰ قرقعة حوافر الخيول وأصوات الفرسان الملثمين، جمعنا قائدنا وأمر بالمسير بعد قطر المدافع وعربات الذخيرة. سارت قافلتنا إلىٰ جهة لا نعرفها، ولكن لاحظت أن ٱتجاه الحركة كانت للتقرب من معسكرات العدو وأماكن تجمعه. توقفنا خارج إحدى القرىٰ بين الأشجار، أشار لي القائد بالتقدم معه أمرت سالم بصوت مرتفع ليسمع باقي الرجال: سالم ٱنتبه جيدًا أنت المسئول. أجابني بحماسة فطرية: أوامرك ستنفذ وسأفتح عيوني ٱطمأن كوبرال.

اتجهنا إلى القرية ودخلنا الدرب الضيق إلىٰ ساحة القرية حيث تجمع عدد كبير من الفرسان والمشاة، دخلنا دارًا كبيرة غصت بالزعماء، رحبوا بنا وأجلسونا بجانب الزعيم الكبير. قال الزعيم وقد وقف شاربيه الأسودين إلى الأعلىٰ: يا عبد القادر وصلنا طلبك كم فارس تقدر لهٰذِه المهمة؟ أفادنا رجال الاستطلاع بمكان وجود مدافع الفرنساوي وذخائرهم. أخرج عبد القادر خريطة مفصلة للمنطقة لم أرها معه من قبل وفتحها ثم مددها أمام الزعيم حيث أشار بقلمه إلىٰ أماكن في الخريطة عليها أسماء المواقع والقرىٰ. وافق الزعيم ووضع أصبعه على الأماكن التي حددها. علم القائد بالقلم المواضع ورسم قوسين حول جناحي الجيش التقوا في نقطة واحدة. وقال: هٰذا خط سير القوتين نريد أدلاء من رجال المنطقة. لكزت قائدي بكتفه بلطف، التفت إلي وقال بصرامة: ماذا تريد فرحان؟ قلت: أتسمح لي أن أبدي رأيي. ماذا تنتظر قل ما عندك نحن نصغي إليك فرحان. قلت: أقترح أن يركب مع كل فارس رجل من المشاة لسببين.

أولًا: يتضاعف عدد الرجال. ثانيًا: ليتسللوا عند ٱقترابنا من مواقع المدافع والذخيرة ثم ينقضوا علىٰ رجال الرشاشات أثناء هجوم الفرسان مما يحدث إرباكًا للمدافعين فيسهل بذلك الاستيلاء على الذخائر وعرباتها علىٰ شرط أن أكون علىٰ رأس الرجال الراكبين. رفض الزعيم أن نشارك إلا في عملنا الأساسي قائلًا: لن نفرط بكم فأنتم سندنا في المعركة، وسنأتي لكم بكل ما نستطيع من القنابل. تركنا المجلس وعدنا إلىٰ مواقعنا. أحضرت نساء القرية الطعام والماء بكثرة وهم يرحبون بنا مع كلمات التشجيع. تحركنا مساءً وراء كوكبة من الفرسان لمدة ثلاث ساعات ثم توقفنا حيث بدأ القائد يستطلع جغرافية المنطقة فاتحًا مخططه، عثرنا علىٰ حفر كبيرة طبيعية بين الصخور السوداء. أحضرنا المدافع وكل مدفع في حفرة واحدة فكانت أفضل ملجأ للمدافع والرجال. وهكذا لم تشرق الشمس إلا ونحن جاهزون للمعركة. أخبرني القائد بأن المجاهدين قد هاجموا ليلًا مواقع مدفعية العدو وأحضروا عربات محملة بالذخائر ستصلنا قريبًا وقال متابعًا: لقد أخبرني رسول منهم جاءني ليلًا والآن نظفوا مدافعكم وهيئوها للمعركة القريبة. ٱنهمكنا بعملنا حتى الغروب حيث وصلت قافلة من العربات تجرها البغال إلىٰ أطراف القرية وبدأ الجميع ينقلون الصناديق إلىٰ أشجار الزيتون القريبة منا. مر أكثر الليل ونحن نيام من التعب إلا من حراسة مشددة من قبل رجالنا. بدأت تباشير الفجر بالظهور حيث أيقظت الرجال ثم بحثت عن القائد فلم أجده سألت الحارس عنه أشار بأصبعه إلى التلة العالية أمامنا مباشرة: إنه هناك فرحان.

ويريدك أن تذهب إليه هكذا أوصاني. ركبت بغلي إلى التل حيث كان القائد ممتدًا تحت شجرة كبيرة من الدلب، أشار لي أن ٱستلقي بجانبه وكانت هٰذِه عادة عنده نفذت أمره ولم أتكلم بل التزمت

الصمت، نظر إلي طويلًا وبالكاد كنت أراه في العتمة المخيمة. قال: يا فرحان من المحتمل أن تنتهي هٰذِه المعارك خلال أسبوعين أو ثلاثة، إذ من الواضح أن الفرنسيين مصرون على ٱقتحام معاقل الثورة مهما كلفهم من الخسائر في الرجال والمعدات لقد ٱستقدموا نجدات من لبنان وأفريقيا لهٰذِه المهمة، وحسب معلوماتي العسكرية لا يمكن للمجاهدين الصمود أكثر من ذلك لنفاذ الذخائر إضافة لاستشهاد عدد كبير من الشباب المجاهدين أو إصابتهم بجراح. إذًا يا فرحان هناك نقص في الرجال والعتاد إضافة إلىٰ عدم الخبرة في قيادة المعارك الكبيرة، لقد رأيت بعيني كيف أنهم قد ضيعوا فرصًا كثيرة في ٱستغلال النصر على الفرنسيين، بعدم ملاحقتهم والضغط عليهم بشدة متواصلة. تصور يا فرحان لو أنهم بعد معركة المزرعة تابعوا ملاحقة الفرنسيين إلى المدن الكبرى التي فقدت حامياتها لكان الوضع العسكري يختلف كليًا لصالحهم ولٰكن وعلىٰ كل حال فهم معذورين لعدم إمكانية ذلك بوضعهم الحالي. وعلىٰ كل منا يا فرحان أن يقدم كل ما يمكن لإيصال هٰذِه الحرب إلىٰ أفضل ما يمكن، هٰذا ما نستطيعه أنا وأنت وباقي الرجال. هٰذا واجبنا المقدس.

بعد نفاذ ذخائر المدافع سنقاتل كباقي الرجال كجنود مشاة أو خيالهم وأنا قررت أن لا ٱستسلم إذ أن الإعدام مصيرنا جميعًا، القتال حتى الموت هو القرار الوحيد أمامنا وقد ٱتخذته وإلا فلن يكون لتمردنا معنىٰ، أنا لن أهرب إلىٰ أية دولة أخرىٰ ولو أتيحت لي فرصة ذلك، ثم سألني ما هو قرارك؟ أجبته ببساطة وبدون أي شعور برهبة الموت: قراري واضح. القتال حتى الموت، نحن لسنا أفضل من هٰؤلاء القرويين البسطاء الفقراء الذين تركوا حقولهم وزوجاتهم وأبناءهم وقرروا مواصلة القتال والموت. فعلى الأقل هٰذِه مهنتنا، إذًا علينا

ختامها بشرف الجندي الذي يدافع عن وطنه. ٱطمئن يا أخي سنموت جميعًا شهداء بشجاعة المحارب. رتب علىٰ يدي وقال: توكل علىٰ الله بلغ الرجال قراري وبأني لن أتركهم إلا في حالة موتي. قبلته في جبينه وتمددت إلىٰ جانبه حتىٰ أشرقت الشمس.

رفع القائد منظاره وبدأ يبحث في الأفق البعيد، أمسكت يده كتفي وهزها وهو لا زال ينظر عبر المنظار، قال: يا إلهي إنهم يقتربون بصمت من مواقع المجاهدين. رفعت منظاري.. بدا لي المنظر من بعيد وكأن صفوفًا من القمل تزحف بحذر شديد وبصمت مطبق. قال القائد: سجل زوايا الرمي وتعديلاتها كل عشرة دقائق. أسرع فرحان أسرع. ركبت بغلي وهو يصيح ورائي: أطلق مدافعك بقدر ما تستطيع من السرعة عسىٰ أن نوقفهم قليلًا ويستيقظ المجاهدين علىٰ صوت مدافعك. وصلت بأقصىٰ سرعة البغل قفزت إلىٰ أول مدفع وصحت بالرجال إلى العمل، صححت الزوايا ثم أطلقنا أول رشقة ثم أتبعتها بثانية وثالثة، ٱنتبه المجاهدون وهبوا كالأسود لمواجهة العدو. بدأ الٱشتباك مع طلائع العدو الذي فوجئ، فكنا نسمع لعلعة البنادق والرشاشات بين كل رشقة وأخرىٰ، أشار القائد بالمتابعة والسرعة. بدأنا التصحيح ومراوحة الرمي يمينًا ويسارًا لتغطية أكبر قدر من ساحة ٱنتشار العدو، لا أعلم كم ٱستمرت المعركة لأن الزمن توقف بالنسبة لنا. فجأة أشار القائد بالتوقف. أوقفت القصف وبدأنا بتنظيف المدافع وقد لاحظت أن حرارة المواسير لا تطاق من شدتها، ركبت بغلي وتوجهت نحو التل حيث كانت أصوات المعركة تدمدم بزخم شديد وصلت أعلى التل إلىٰ جانب قائدنا ورفعت منظاري لأرى النتيجة. نظرت من خلال المنظار إلىٰ ما يجري، لا أعلم أني قفزت من مكاني فرحًا بدون شعور ٱنهزموا صرخت بصوت مبحوح، نظر القائد بمنظاره مرة أخرىٰ وقال: لا تعجل

فهم سيعيدون الهجوم بفرق جديدة تتقدم من خلفهم، عد إلىٰ مكانك وتهيأ للمعركة الحقيقة القادمة.

أسرعتُ ببغلي وأمرت الر جال بالاستعداد وشرحتُ لهم الوضع وبأنَّ المعركةَ الحقيقةَ ستبدأ بعد ساعة أو ساعتين حسب سرعة تقدم العدو، ثم أنذرتُ رجال الحماية بأنَّ الطائرات ستهاجمنا بكثافة بعد قليل ويجب على الجميع إطلاق النار عليها. جمعتهم وشرحت لهم قرار القائد بالمواصلة حتى الموت. ضحك سالم وقال: هٰذا شيء نعرفه وإلا فهل سيرحب بنا الأعداء ويسامحوننا علىٰ تمردنا عليهم ومحاربتهم؟ كلنا يعلم أن الٱستسلام أو الأسر عاقبته الإعدام بعد محاكمة شكلية. هل نسيت أنهم أعلمونا ذلك عند تطوعنا؟ إنه الشرط الأول في خدمتهم كجنود، ٱطمأن يا فرحان وأعلم القائد بأننا لن نستسلم، سنموت بشرف. ثم خاطب رفاقه: موافقون أيها المحاربين علىٰ قولي. ضحك بعضهم وقال أحدهم: إذًا ماذا نفعل هنا، هل نقصفهم بالورد أو بالموت؟ هٰذِه صنعتنا يا أخ فرحان.

اقترب المساء ومالت الشمس إلى المغيب وعيوني متعلقة بقمة التل ٱنتظر إشارة القائد. رفع القائد يديه إلىٰ أعلىٰ وأعطىٰ بها إشارة الضرب الشديد، وقبل أن نرمي أول رشقة وصلت إلىٰ أسماعنا أصوات مدافعهم لإبتداء الهجوم الكبير.

غطت الٱنفجارات كل جبهة المقاتلين فأحدثت سدًا ناريًا لا يمكن المجازفة باختراقه إنهم يقذفون بمئات المدافع لا بستة مدافع مهترئة من كثرة الٱستعمال. بدأنا العمل واشتد قصف مدافعنا وقد تفنن الرجال في تغيير أشكال قصفهم بعد أن أعجبوا بهٰذا الأسلوب. غابت الشمس والمعركة علىٰ أشدها، وبدأ المجاهدين بالتراجع قليلًا قليلًا وببطء. حضر القائد إلينا وأمر بوقف القصف وقطر المدافع وعربات الذخيرة،

مر بنا مئات من الفرسان مسرعين إلى الخلف حيث تابعنا مسارهم. حضر أحد زعماء المجاهدين وطلب منا التوجه إلىٰ حيث يقودنا أدلاؤنا، تبعناهم بسرعة وتركنا الجبهة وقصف مدافع العدو يلاحقنا بزخم شديد. بعد ساعة خرجنا من دائرة مدىٰ مدافعهم، ٱستمر بنا السير إلىٰ أن بزغ أول شعاع من الفجر، حيث توقف الفرسان. قال قائدهم: هنا مقركم وأضاف سيحضر لكم نساء القرية المجاورة الطعام والماء، ثم ودعنا منصرفين قمنا بواجبنا وجلسنا لأخذ قسط من الراحة بعد المشقة والعناء المضني، وقد تمدد الرجال حيث بدأ الشخير من كل جانب.

ظهرت الشمس من المشرق وألقت بنورها على التلال الممتدة حولنا إلى الأفق البعيد، ظهرت النساء بالعشرات يحملون الطعام والماء علىٰ رؤوسهم وأوشحتهم البيضاء ترفرف وراءهم كأنهم سرب من الحمام الأبيض، قدموا لنا الزاد مع كلمات الثناء والتشجيع. ٱستطلع القائد المكان ثم طلب جر المدافع بعيدًا إلى المكان المناسب. نصبنا مدافعنا وجلسنا للطعام والراحة. ٱقتربت الظهيرة حيث بدأت أصوات مدافع العدو تقترب زاحفة نحو منطقتنا، أما أسراب طائرات فكانت تغطي السماء وقد قصفت القرىٰ بوحشية حيث قتل كثير من النساء والأطفال. كان ظاهرًا بوضوح أن العدو ألقىٰ بكل ثقله في المعركة مع مخالفته لأعراف الحرب بقصف المدنيين الغير مقاتلين. حضرت مجموعة من الفرسان تخب خيولهم، حيونا وتكلم قائدهم مع عبد القادر على ٱنفراد ثم ٱبتعدوا عنا. ركب عبد القادر حصانه واتجه بسرعة إلىٰ أعلىٰ نقطة قريبة منا ٱتخذها مرصدًا، ركبت بغلي وتبعته... كان قد ٱستند إلىٰ جذع شجرة زيتون ضخمة وبيده المنظار يمسح به المنطقة أمامنا صعدت إلىٰ أعلى الشجرة بطلب منه حيث ٱرتفاعها

كشف لي عن تقدم العدو بأعداد كبيرة مع مصفحاتهم وفرسانهم ومشاتهم بالآلاف، قال عبد القادر: كم المسافة بيننا وبينهم؟ سبعة كيلو مترات ونظرًا لسرعة تقدمهم سيصبحون في مرمىٰ مدافعنا بعد ساعة علىٰ أبعد تقدير هٰذا تقديري. صعد إلى الشجرة ونظر إلى الحشود الكبيرة بمنظاره. قال: فرحان، قلت مجيبًا: نعم يا أخي، قال: ٱكتب زوايا الرمي ٱضرب عند إشارتي ٱنظر بمنظارك سنباغتهم في الساحة الوعرة علىٰ بعد ثلاثة كيلو مترات ونصف من موقعنا، إن الأحجار خير مساعد لنا على الرمي المؤثر ٱنطلق الآن. ٱنطلقت وأنا أتمنىٰ لو كان عندنا مائة مدفع لتغير الموقف وضمنا النصر الأكيد. إنهم يملكون مئات المدافع والطائرات وكل أسلحة الحرب الحديثة الفتاكة مقابل سلاح المجاهدين الخفيف السيف والبندقية وبعض الرشاشات المغنومة من العدو. وصلت إلىٰ موقعنا وأمرت الرجال بتهيئة أنفسهم للضرب عند تلقي إشارة القائد سألت أحد المجاهدين الذين يساعدوننا في إحضار القنابل كم بقي عندنا؟ أجابني: بأنه لا يعرف ولكن عدد الصناديق أصبح قليلًا أرسلت سالم ليتفقد ذخائرنا فعاد بعد قليل وقال: لقد قسمت عدد الصناديق على المدافع فكانت حصة المدفع تسعة صناديق هٰذا ما نملك. أمرتهم بنقل كل الصناديق وتوزيعها على المدافع بالتساوي. وكانت الطائرات تحوم منخفضة فوف مواقع المجاهدين وتقصفهم بشكل دائم، وقد سقطت العشرات منها محترقة بفعل نيران المقاومة، ٱقتربت طائرة محومة ببطء وقد ظهر من جانبها رجلًا بيده منظارًا وكان جسمه واضحًا وقد أخرج نصفه خارج الطائرة أما الطيار ورامي الرشاش فكانا واضحين جدًا أمرت بتوجيه جميع الأسلحة عليها، قلت: يجب إسقاطها قبل أن تحدد مكاننا وكان أن سقطت بقربنا محترقة ولم ينج منها أحدًا. فجأة سمعت صفير قنبلة سقطت قريبًا منا

ٱنبطح الجميع أرضًا، تبعت القنبلة الأولىٰ رشقة كاملة من القنابل ثم رشقات وكان لا يفصلنا عن مكان سقوطها سوىٰ مسافة ثمانين مترًا أو أكثر قليلًا، وقد ثار الغبار والدخان بحيث لم نعد نرىٰ بعضنا. ركضت بقفزات قصيرة لأطمئن على القائد حيث ٱبتعدت عن موقعنا حتىٰ بدأت أرىٰ ما حولي. نظرت إلىٰ موقع القائد فرأيته واقفًا ينظر إلينا، أشار لي بالتقدم إليه وذلك بواسطة يده، ركضت غير مبالٍ بالقصف الذي ٱبتعد قليلًا إلىٰ يميننا باتجاه القرية وصلت إلى القائد الذي أشار بيده إلى الأمام وقال: ٱنظر بمنظارك.. كان واضحًا أن رشاشات المجاهدين حصدت أعدادًا كبيرة من الجنود رأيتهم يسقطون قتلىٰ ومع ذلك كانت الأنساق تتقدم غير مبالية بالخسائر الكبيرة. قال: الآن جاء دورنا، ترددت قليلًا ثم أعلمته بأننا لا نملك ذخائر سوىٰ تسعة صناديق لكل مدفع فقط، أما بعدها سنتوقف عن القصف، كنا ننتظر أن يمدنا المجاهدين بالذخائر من العدو. قال القائد: لم يعد بإمكانهم الهجوم علىٰ تجمعات التموين لأن العدو غير تعبئة جيشه، فوضع العتاد والتموين والذخائر في وسط القطعات حيث أصبح الوصول إليها مستحيلًا. عد الآن وباشر الضرب لقد وصلوا إلى الساحة المختارة ولكن ٱقصف بثلاثة مدافع حتىٰ نطيل زمن القصف لأكثر ما يمكن، توكل علىٰ الله ٱذهب. وصلت إلى الرجال وأمرتهم بمباشرة الضرب بثلاثة مدافع وقطر الثلاثة الآخرين وجرهم بعيدًا لنتخلص منهم عند أقرب وادي بقذفهم من الأعلىٰ إلى الأسفل. بدأنا الضرب بسرعة لمساندة صفوف المجاهدين، وكان قصف مدافعهم ٱبتعد ليطال مؤخرة المجاهدين لقطع طريق الٱنسحاب. دام قصفنا ما يقارب ثلاثة ساعات حتى ٱنتهت آخر القنابل، أشرت للقائد بالقدوم حيث خب مسرعًا إلينا آمرًا بقطر باقي المدافع والابتعاد عن مؤخرة المعركة. نفذنا الأمر وبدأنا

بالابتعاد متغلغلين بين التلال حتىٰ وصلنا إلىٰ سفح واد سحيق، حررنا المدافع من البغال ودفعناها إلىٰ أسفل الوادي فتحطمت قطعًا متناثرة. ركبنا البغال وسرنا باتجاه مؤخرة المجاهدين. مررنا بإحدى القرى التي فرغت من الرجال ولم يتبق فيها إلا النساء والأطفال والعجزة من الرجال حيث التحق الجميع للدفاع عن قراهم ومناطقهم. ٱستقبلنا النساء بالطعام والماء رغم قصف الطيران لهم وتهديم منازلهم. أمر القائد بالوقوف للراحة وتناول الطعام، وبعد ٱنتهائنا من طعامنا وقف القائد عبد القادر وقال مخاطبًا الرجال: الآن يا إخوتي ستقاتلون في صفوف المجاهدين كجنود مشاة أو فرسان إذا حصل أحدكم علىٰ حصان، أما أنا فأودعكم من هنا لأني سأنضم إلىٰ فرق الفرسان، وقال: يا أخ فرحان أنت مسؤول عن قيادة رجالك، ثم قبلنا جميعًا فردًا فردًا قبلة الفراق إلى الأبد. قال وقد سقطت الدموع من عينيه: ٱستودعكم الله يا إخوتي موعدنا الجنة إن شاء الله إذا رزقنا لله شرف الشهادة وابتعد مسرعًا بحصانه باتجاه المعركة. وهٰذا عهدي به فلم أره بعدها. علمت بعد أيام من وقوعي في الأسر بأنه ٱنضم مع جمع من المجاهدين إلىٰ ثوار دمشق وحمص وحماه، وقد ٱستشهد كما تمنىٰ ودفن في حمص علىٰ ذمة الراوي. تحسست رسالة عبد القادر في جيبي وأمرت الرجال بالاستعداد. ركبنا البغال واتجهنا مباشرة إلىٰ ساحة الصدام ولما بلغناها متأخرين كانت جماعات المجاهدين تتراجع متساندة حيث ٱشتركنا في التصدي لهجوم الجيش متراجعين ببطء حيث أبلىٰ رجالي بلاءً حسنًا وكنا ثمانية عشرة رجلًا مدربين في الجيش الفرنسي. فتكنا في العدو الذي أمامنا فتوقفوا عن زحفهم حيث ٱنسحبنا مع المجاهدين مع قدوم الليل بظلامه فاختلطنا في جمع المجاهدين وتراجعنا إلى الخلف، ولكن لا نعلم إلىٰ أية جهة لعدم معرفتنا جغرافية

المنطقة. كان عبد القادر أمرنا بأن لا نتعرف علىٰ أحد ولا نعطي أ سماءنا الحقيقية لأحد ولا نسأل عن أسماء القرىٰ حتىٰ إذا وقعنا في الأسر لا يستطيع العدو أخذ أي معلومات لجهلنا. اَبتعدت جموع المجاهدين عن العدو وقد فصلنا الليل عن بعضنا فلم أعد أدري إلي أي جهة سار رفاقي. اَستمر اَنسحابنا حتىٰ بزغ الفجر فوجدت نفسي وحيدًا مع مجموعة من المجاهدين وقد التفوا حول زعيمهم الذي أمرهم بالتوجه نحو الحدود الأردنية. كان بعضهم فرسانًا والبعض الآخر يسعىٰ علىٰ قدميه، وبما أني أضعت الرجال والبغال فقد سرت علىٰ قدمي مع الجموع المنسحبة، وطالت المسيرة كانت طائرات العدو تغير علينا وتلقي قنابلها حيث كنا نطلق عليها الرصاص. فتبعد عنا هاربة. دامت المسيرة النهار بكامله بدون طعام ولا ماء، وكنت اَحتفظ بمطرتي العسكرية مليئة بالماء، فكنت آخذ جرعات صغيرة لأبلل شفتي من شدة التعب. بلغنا الحدود بعد يومين من المعارك والصدام الدائم مع فرسان العدو وطائرته إذ كانوا يلاحقوننا ولا يتركون لنا فرصة للراحة وتجميع صفوفنا. بدأ الجمع المرهق محاولة تجاوز الحدود، وقد طلب زعيم المجموعة متطوعين للاشتباك مع العدو وتأخيره حتىٰ يتم تجاوز الحدود بأمان للقسم الأكبر من الرجال. تطوعت للدفاع مع ثلاثين من المجاهدين تفرقنا في مجموعات صغيرة بين الصخور الجبلية لقطع الطريق علىٰ فرسان العدو المهاجمة، تحركت جموع المجاهدين وبدأت باجتياز الحدود وهم يطلقون النار على الطائرات حيث سقطت العديد منها محترقة ومع ذلك اَستمروا بالتحليق والقصف.

أرسلت إحدى الطائرات رسالة دخانية تحدد مواقعنا، تقدم علىٰ إثرها مجموعة كبيرة من فرسانهم وقد ظنوا أنهم وقعوا على المجموعة الرئيسة. تركناهم حتىٰ أصبحوا بيننا وفتحنا عليهم النار فتساقط عدد

منهم إذ نفرت خيولهم منهزمة وبعد اشتباك قصير وخسائر كبيرة في صفوفهم تراجعوا منهزمين تاركين جثث قتلاهم جردنا القتلىٰ من الذخيرة والسلاح. جاء دورنا للهرب باتجاه الحدود، إذ بدأنا بالركض السريع. قبل وصولنا نقطة الحدود الفاصلة بدأت مدفعية العدو قصفها المركز علينا. أصيب عدد من المجاهدين بجروح وفر الباقون بسلام. كنت ممن أصيب وكانت إصابتي في فخذي الأيمن إصابة شديدة جاءت نتيجة شظية من قنبلة، فهويت إلى الأرض بشدة. مزقت قماش السروال وشددت أعلىٰ فخذي حتىٰ أقطع النزيف، وقد تمدد بقربي شابان، أحدهما أسلم الروح والآخر إصابة شديدة والدم ينزف منه بغزارة. حاولت الزحف ولكن دخلت في غيبوبة لم أفق منها إلا في مستشفىٰ ميداني للجيش الفرنسي وقد لف فخذي بجبيرة كبيرة من الشاش الأبيض ملطخة بالدم المنبثق من الجرح. هنا رفع العم فرحان طرف ثوبه عن فخذه وكشف عن جرح عميق في أعلى الفخذ. أسدل ثوبه واستأذن مودعًا وغادرنا مسرعًا.

أطبق الصمت علىٰ جمعنا حتىٰ قطع العم محمد الصمت قائلًا كل واحد منكم إلىٰ بيته دعوني أكمل عملي. مع السلامة ثم أطرق منكبًا عليَّ وكأننا لسنا موجودين وعلىٰ ذلك تفرق جمعنا في ذلك اليوم.

* * *

الفصل الثالث

مضىٰ علىٰ آخر جلسة لنا عند العم محمد -و التي ٱستمعنا فيها إلىٰ قصة فرحان في معاركه مع الثورة بعد فراره من الجيش الفرنسي- ما يقارب شهرين عكفنا عن الدراسة والانتهاء من الأمتحانات التكميلية. جاء الصيف بحره الشديد لنتمتع بالعطلة والفراغ، لذا عزمت أن ألتقي العم فرحان بعيدًا عن دكان العم محمد لأطلب منه أن يقص علي ما جرىٰ معه في أسره ومحاولًا الدخول إلىٰ داره التي شهدت قصة عذاب هٰذِه الأسرة هكذا وطنت نفسي علىٰ لقاءه في بيته. كان من عادته أن يأوي إلى البيت بعد صلاة العشاء لذا ٱنتظرت المؤذن حتىٰ دعا الناس إلىٰ صلاة المغرب فدخلت إلىٰ مسجد حينا الصغير بانتظار فرحان أن يحضر لتأدية الصلاة كما هي عادته.

ٱنتهت الصلاة، أسرعتُ إليه قبل أن يقوم من مقامه في الصف حيث قلتُ له متعجلًا: تقبل الله صلاتك يا عمي. منا ومنك ورحم الله والديك. ثم قام وٱتجه إلىٰ باب المسجد الخارجي حيث لازمته إلىٰ جانبه حتىٰ إذا أصبحنا خارج المسجد دعوته بإلحاح إلىٰ بيتنا. ٱعتذر بلطف وقال: تعال معي أنت إلىٰ بيتي حيث لا يوجد من يعكر جلستنا فأنا وحيد في البيت ماعدا حماري فهو أنيسي وضحك جزلًا ثم سحبني من يدي وقال: تفضل معي ولن أقبل منك الأعتذار. لم يكد يصر حتىٰ أسرعت إلىٰ جانبه حتىٰ وصلنا إلىٰ بيته العتيق في آخر الحارة ملاصقًا للبساتين، فتح الباب الخارجي حيث دخلنا.هٰذِه الدار لم تكن غريبة علي

من الخارج إذ أمر يوميًا من أمامها كلما ذهبت للسباحة في النهر.أما من الداخل فإنها مألوفة ومرتبطة بصور أم فرحان منذ الطفولة كان أهل الحارة يسمونها دار أم فرحان الأرملة التركية، توقفت في باحة الدار الصغيرة أجيل النظر وقد مر بخيالي كل ما قصه فرحان بما يتعلق بوالدته وزواجه من فوزية وكأنه شريط سينمائي يمر أمامي. جذبني فرحان من يدي وقال: ماذا بك ساهمًا يا بني؟ ٱدخل الغرفة، أطعته ودخلت الغرفة الصغيرة حيث جلست على الحصيرة الوحيدة. قلت: دارك صغيرة يا عمي هل هي التي عشت وتزوجت فيها من فوزية؟ قلت ذلك وكأني لم أدخلها قبل الآن.التفت إلي متبسمًا ٱبتسامة حزينة،ابتسامة صقر كسير الجناح،قال: نعم هي ذاتها،انظر وراءك هٰذا فراشي الذي تزوجت عليه وهٰذِه الحصيرة التي تجلس عليها هي نفسها حصيرة العرس، لقد ٱحتفظت والدتي رحمها الله بها للذكرىٰ.سألت بدون تفكير مسبق سؤالًا طالما راودني وألح علي وهو يقص علينا حكايته وكنت أخاف منه. سألت قائلًا: أين فوزية ومصطفىٰ وأمهم؟ وإذ لم أقدر قسوة السؤال، ٱنتفض بهزة خفيفة جاهد أن لا ألاحظها قائلًا وقد فتحت له الجرح القديم: والله لا أعرف ولا يهمني أن أعرف ولٰكن البيت الملاصق لنا هو بيتهم فيما مضىٰ أما الآن فأنت تعرف بيت أبو حمدو،وأظن أنهم ٱشتروه من مدة طويلة لا أعرف أكثر من ذلك ولم أحاول أن أسأل عمك محمد الذي يعرف كل شيء عنهم ولٰكن أنا هكذا مرتاح، وتابع رجاءً لا تذكرهم بعد اليوم أمامي إذا أردت الاحتفاظ بصداقتي. جهز الشاي وقدم لي كأسًا وقال: أهلًا وسهلًا شرفت.

قلت: يا عمي فرحان أضايقك أن آتي للسهر عندك كل يوم بعد صلاة العشاء، إني أراك وحيدًا فلو سمحت لي نصبح رفيقين نواسي بعضنا في السراء والضراء. ضحك مسرورًا برنة جميلة وكأنه يرسل معها

همومه من صدره. قال: كن صريحًا أنت تريد الأنفراد معي لأكمل لك قصتي بدون مضايقات عمك محمد ورفاقك هٰذا ما تريد من ٱقتراحك، أليس كذلك يا أحمد؟ قلت: الحقيقية نعم ومتىٰ تبدأ بإكمال؟ حيث قد وصلنا فيها بإصابتك بجرح في ساقك أفقدك الوعي وقد ٱستفقت في مستشفىٰ ميداني وقد لفت ساقك بالقماش الأبيض الملطخ بالدماء. قال: غدًا إن شاء الله. قلت: سأحضر دفتري وقلمي لأسجل الوقائع كاملة بعد إذنك إن سمحت. أجابني: ٱحضر ما تشاء وٱكتب ما تسمعه مني لعل أحدًا سيذكرني في مستقبل الأيام.

في اليوم التالي حملت أدوات الكتابة ودخلت المسجد عشاءًا وبعد تأدية الصلاة تأبطت ذراع فرحان بود ظاهر حيث ٱستهجن بعض المسنين هٰذا التصرف الشائن من ولد لم تفقس عنه البيضة بعد ولٰكن كل الحق علىٰ والده الذي لم يحسن تعليمه الأصول، هكذا علَّق أحدُهم. مشينا في الشارع الضيق المضاء بالكهرباء العامة الضعيفة، وقد دخلت هٰذِه الخدمة أكثر بيوت الحارة على الطريقة الأشتراكية. أما الضوء بشكل عام فكان الناس يستعملون ضوء (الكاز) في الإضاءة مستغنين عن الكهرباء هٰذا التقليد الجديد الذي لم يألفوه في آبائهم الأولين. أما الماء فكان أغلب الناس يستقون من الآبار، وكان في بيتنا (طلمبة) خاصة يستقي منها أكثر الدور المجاورة لنا. أما الجرة أو الخابية فكان الناس يستعملونها للاحتفاظ وتبريد الماء. قلت: يا عم هل عندك (جرة) للماء؟ قال: نعم ٱشتريت واحدة من حمص كبيرة يكفيني ماؤها أسبوعًا كاملًا لا تخف يا أحمد (فالكاز) الذي عندي نمرة ثلاثة وهو يضيء كأنه الكهرباء ٱطمئن. وصلنا الباب حيث أخرج من جيبه مفتاحًا طويلًا قد أكل الدهر عليه صدئ وضعه في الثقب وأداره فسمع له صريرًا ثم طقطق وزقزق وكأنه يحتج لطول عهده بالزيت، دخلنا إلىٰ باحة الدار. قال:

توقف عندك ثم دخل الغرفة وأخرج الحصير إياها ومدها ثم ألقىٰ فوقها بطرحة عتيقة ومخدتين أعطاني واحدة ووضع الأخرىٰ تحت ساعده مستندًا عليها. سألت أين الحمار يا عمي؟ قال: أربطه يوميًا في الخان فداري صغيرة لا تحمل الحمار وصاحبه، ضحك قليلًا ثم قال: ٱكتب يا بني.

أفقت من الغيبوبة ونظرت حولي فأول ما رأيت فخذي وقد لفت بجبيرة كبيرة من الشاش الأبيض الذي تحول إلى اللون الأحمر من الدم المتجمد. جاء الطبيب الذي تعرفت عليه من معطفه الأبيض والسماعة المتدلية علىٰ صدره. مد يده وجس جبيني ثم فحصني بسرعة. قال: وقد تبسم بسرور وضح علىٰ قسماته. لقد نجوت أيها الشاب إنك محظوظ ما ٱسمك؟ فرحان الأحمد قلتها بضعف شديد وشكرته محاولًا أن أصافحه فهم ذلك فمد يده وأخذ راحتي وقال: ٱسترح ولا تتحرك غدًا سننقلك إلى المستشفى ٱطمئن. ثم ذهب للجريح التالي وقد لاحقته بنظراتي متعجبًا، من أتىٰ بي إلىٰ هنا؟ كيف وصلت؟ من حملني؟ وكم من الزمن مضىٰ وأنا في غيبوبة؟ إن آخر عهدي بالدنيا أنني أزحف وقد ربطت فخذي بشدة. يا ترىٰ ماذا حدث بعد ذلك؟ لا أدري حدثت نفسي بذلك وأنا مستلق علىٰ حشية مدت على الأرض في خيمة المستشفى الميداني.

قضيت يومًا وليلة بعد إفاقتي من الغيبوبة. لم أكن أشعر بمرور الوقت لأني كنت أغيب أحيانًا عن الوعي فلا أدري هل أنا نائم أم فاقد الوعي؟ في اليوم الثاني حملوني مع الجرحى الآخرين إلىٰ سيارة إسعاف حيث نقلنا إلىٰ محطة القطار، كانت عربة القطار مجهزة بأسرة كأنها مستشفىٰ وقد ٱعتنىٰ بنا طبيب وثلاث ممرضات إحداهن لبنانية، إذ كانت أحيانًا تقرأ في كتاب باللغة العربية ولكن لم تتكلم إلا بالفرنسية. في موعد

الطعام حضرت تحمل صينية قدمتها لي وكلمتني بالفرنسية وكانت قد قرأت البطاقة المعلقة بسريري قالت: من أين أنت أرىٰ ثيابك عربية؟ هل أنت من الثوار؟ أجبتها بالعربية: يا آنسة هل الثوار يتكلمون الفرنسية؟ ٱرتدت إلى الوراء وٱبتعدت عني بعد أن رمقتني بنظرة عدائية جاءت ممرضة أخرىٰ فرنسية ممتلئة شبابًا وحيوية. أخذت الصينية وتبسمت ببشاشة قالت: ستشفىٰ بسرعة إن قوة شبابك ستعوض ما فقدته من الدماء ولن نتركك حتىٰ يلتئم جرحك. أنت سوري؟ وتابعت لا يهم من تكون فأنت جريح وواجبنا العناية بك. سألت ماذا قلت للممرضة جورجيت اللبنانية؟ قلت: لم أقل لها شيئًا، سألتني وأجبتها. ضحكت بجزل وقالت: إذًا لماذا تشتمك وتشتم بلادك؟ أكيد لأنك من الثوار، علىٰ كل حال لا تنزعج أنا سأعتني بك حتىٰ وصولك إلى المستشفىٰ في بيروت. ٱطمئن أيها الشاب لن أدعها تقترب من أي سوري معنا لأنها لا تحب السوريين ولا الثوار مع أن هٰذا مخالف لواجباتها كممرضة، لأن مهنتنا تحتم علينا مساعدة الجميع بدون تمييز لأنه واجب إنساني. قلت بالفرنسية وقد ٱستغربت لغتي الفرنسية السليمة: أشكرك جدًا يا آنسه إن هٰذِه الطبقة من الناس تبغض كل شيء وحتىٰ أنفسهم فهم يعيشون للبغض، إنهم مساكين في عرفنا لأنهم مرضىٰ يجب الشفقة عليهم ومعاملتهم بالحسنىٰ مخالفين بذلك طريقتهم في فهم الحياة. هكذا علمنا في مجتمعنا المتآلف المحب. يا آنسه إننا نحن العرب المسلمين نحب الجميع ونعطف على الجميع وخصوصًا الذين يعيشون بيننا مهما كانت ديانتهم أو أصولهم. نحن لا نعادي أحدًا رغم أننا نعلم حق العلم بأنهم يكنون لنا الحقد والكراهية ولكن لا نحاسب أحدًا علىٰ ما يحب أو يكره ولا نبدي العداوة إلا لمن يحاول الإساءة إلىٰ معتقداتنا وبلادنا، عندها فالحرب تشتعل فورًا بدون هوادة للدفاع عن البلاد والعباد والمعتقد والشرف هكذا علمونا. ثم

قلت لها وقد مددت يدي بضعف لمصافحتها : أشكرك جدًا جدًا علىٰ إنسانيتك وحنانك. مدت يدها وصافحتني قائلة : أهلًا بك بين أيدينا ، ونحن الفرنسيين نعرفكم تمامًا ونحترمكم، وخصوصًا المقاتلين مثلك، إننا معجبون جدًا بشجاعتكم وفروسيتكم، لقد أثرتم إعجاب كل نساء وآنسات فرنسا بهٰذِه الحرب الشريفة، قالت ذلك ثم تركتني وذهبت لأداء عملها وهي تشير بيدها مودعة مسلمة.

وصلنا ليلًا إلىٰ بيروت، هكذا قالت الممرضة. وقف القطار وصعد العساكر وحملونا علىٰ محفات إلىٰ عربات أوصلتنا إلى المستشفىٰ.

كنت أسمع باسم بيروت كثيرًا منذ طفولتي وذلك بمناسبة الأعراس في الحارة حيث الأهازيج تقول [من بيروت يا يما وجبنا جهازنا حنا] دلالة علىٰ بعد المسافة ونفاسة الجهاز وغلاء ثمنه وهٰذِه مكرمة للعروس. فكنا نحلم بالذهاب إلىٰ بيروت، وها أنا وصلت إلىٰ بيروت كما كنت أحلم، ولٰكن جريحًا أسيرًا سجينًا. حملوني إلىٰ غرفة كبيرة مستطيلة نظيفة بيضاء ثم وضعوني علىٰ أحد الأسرة الفارغة وذهبوا. وبما أن الضوء خافت جدًا والرحلة أرهقتني وبدأ الألم يحرقني بشدة من الجرح كالنار، حاولت الأسترخاء والنوم وقلت أحدث نفسي وسلمت أمري إلىٰ الله. وليفعلوا بي ما يشاءون إذ كنت علىٰ يقين تام بأن الإعدام مصيري لا محالة. وقد أقنعت نفسي أثناء الرحلة في القطار علىٰ تقبل مصيري بصبر وشرف لأن القضاء إذا وقع حسم الأمر لأنها إرادة الله.

كنت أتخيل فرقة الإعدام تصوب بنادقها نحوي، وعلىٰ هٰذا الوضع كنت أقول : يا ولد يا فرحان شد حيلك وأبرز صدرك إلى الأمام وارفض وضع قناع علىٰ عينيك حتىٰ ترىٰ ما يجري إلىٰ آخر لحظة من

حياتك ثم تموت شهيدًا بشرف وشجاعة. لن أدعهم يظنون أني خائف بل سأهتف عاش الوطن والله أكبر. ٱستغرقت في نوم عميق، ٱستيقظت علىٰ يد تجس جبيني. فتحت عيني لأرىٰ طبيبًا وممرضة طلبت مني أخذ حرارتي. بدأ الطبيب بإزالة الضماد عن فخذي وكانت الممرضة تحقنني بإبرة دواء ٱستغرقت علىٰ أثرها بغيبوبة طويلة.

علمت بعد أن ٱستفقت أنهم أخذوني إلىٰ غرفة العمليات حيث أجروا اللازم وأعادوني إلىٰ سريري بعد أن خلعوا عني كامل ثيابي وألبسوني ثياب المرضى.

استيقظت مساءً وقد حضرت ممرضة فرنسية شقراء ناعمة جدًا وحاولت إطعامي فأطعتها وأخذت من يدها الملعقة وأكلت كل ما أحضرته من طعام.

شعرت بالراحة والقوة تسري في جسدي، أجلت بصري في الغرفة وإذا هي مليئة بالجرحىٰ. بدأت بعد الأسرة فكان عددها عشرين سريرًا وعلىٰ كل سرير جريح مثلي.

التفت إلى الذي بجانبي وقلت له: مرحبًا يا أخ، أجابني بضعف: أهلًا بك، قلت: أين جرحك؟ أشار إلىٰ صدره وبطنه، قلت: أنت مثلي فارٌّ متمرد أم جرحت معهم. تبسم بضعف وأشار بإصبعه إلي وهمس: مثلك. قلت مشيرًا بيدي: الجميع هنا معنا مثلنا، هز برأسه وتبسم وقال: إنهم رفاقي.

إذًا نحن سجناء يا أخي، هز برأسه موافقًا. دام بقائي في سرير المستشفىٰ ما يقارب الشهر، كانت العناية الطبية فائقة هكذا قال زملاؤنا في الغرفة. إذ إني لم أدخل المستشفيات قبل هٰذِه المحنة.

أعطوني عكازين لأتجول في باحة المشفىٰ علىٰ أن لا أبرح إلىٰ خارج المكان المخصص لرياضتي. رأيت العسكري الحارس لغرفتنا

وكان يرافقني جندي أسود ليعيدني متىٰ تعبت، حاولت التعرف إليه إلا أنه رفض التكلم معي. كنت ألاحظه حين يسترق النظر إليَّ خفيةً بعينيه الصفراوين العطوفتين.

تماثلت للشفاء وأصبحت أمشي علىٰ عصا أتوكأ عليها. ثم أعطوني لباسًا عسكريًا جديدًا بدون حزام ونقلوني إلى السجن الحربي مع عدد من الذين شفيت جراحهم.

تعرفت عليهم في السجن إذ كان عددهم خمسة وعشرين عسكريًا، منهم المغاربة الفرسان والشراكسة. قص كل واحد منا قصة فراره وكيف قاتل الفرنسيين، قلت: الحمد لله يا إخوان لست وحدي هنا وهٰذِه نعمة من الله. وقصصت لهم كامل قصتنا أنا ورفاقي. ذكرت لهم قائدنا عبد القادر رحمه الله بما يستحق من الاحترام والتقدير وقد تعرف عليه المغاربة وأثنوا علىٰ رجولتة لمعرفتهم السابقة به. بعد مدة شهرين في السجن جاء كابتن فرنسي شاب يحمل حقيبة في يده وفتحوا له باب السجن حيث سلم علينا بإحناء رأسه بأدب ورفع قبعته ووضعها جانبًا علىٰ أحد الأسرة الحديدية. قال: أنا المحامي الموكل من قبل القيادة للدفاع عنكم. وبدأ يسأل كل واحد منا لوحده وهو يسجل في دفتره، وجاء دوري قال: مسيو فرحان. قلت: نعم، قال: أنت متهم بالفرار من المعركة والالتحاق بالعدو. هٰذِه تهمتك، ماذا تقول؟ وكيف أدافع عنك؟ هل تعترف بذلك؟ أجبته لا هٰذا خطأ كبتن، قال: إذًا كيف تفسر عملك وضح وساعدني في الدفاع عنك؟

أنا لم أفر من المعركة أولًا. كتب في كراسته لم يفر من المعركة قالها بصوت واضح وهو يكتب العبارة ثم رفع رأسه وقال: وثانيًا؟

أنا لم ألتحق بالعدو ثانيًا. كتب لم يلتحق بالعدو وهو يهز رأسه ثم قال: ماذا تسمي عملك هٰذا وضح أكثر؟ أجبته: إن الجهة التي التحقت

بها هم الصديق وليس العدو لأن من تسميهم الأعداء هم أهلي ومواطنو بلادي فكيف أحاربهم في صفوف الجيش الفرنسي المحتل لبلادي والمعتدي علىٰ مواطنين مدنيين في قراهم ومدنهم. لذلك يحتم علي الشرف العسكري أن أناصر المظلوم والمعتدىٰ عليه. هٰذا هو شرف الجندية عند العرب. قال: لٰكن أنت جندي متطوع في الجيش الفرنسي لقتال عدو فرنسا وهٰؤلاء أعداء فرنسا. أبدًا إن ما تقوله غير صحيح يا كابتن أنا تطوعت في الجيش الفرنسي علىٰ أن أقاتل أعداء فرنسا خارج وطني أو عدو خارجي هاجم بلادي التي هي تحت مظلة الاستعمار الفرنسي.

كتب ما قلت ثم التفت إلىٰ غيري حتى انتهىٰ من الجميع حيث أغلق دفتره ودسه في الحقيبة ثم حيانا برأسه وغادرنا.

تعرضنا للتحقيق الشديد المكثف من المخابرات العسكرية الفرنسية وكان الضغط شديدًا جدًا علي ولٰكن لم يستعملوا معي أسلوب الضرب أو الشتم وإنما أسئلة مع الصراخ الشديد والتهديد، وبما أنه ليس لدي ما أقوله سوىٰ ما أعرفه وقد أجبت بكل وضوح عن كل ما جرىٰ معي بدقة لأن ذلك لن يجر أي أذىٰ علىٰ أحد فلا حرج في ذلك.

عقدت لنا محكمة عسكرية من ثلاث جنرالات كان أحدهم أعورًا يغطي عينه بقطعة من القماش الأسود، وهو رئيس المحكمة لجلوسه في الوسط.

بدأ ضابط صغير بتوجيه الاتهام بالخيانة لجميع السجناء مطالبًا لنا بالإعدام للجرائم المرتكبة من قبلنا بحق فرنسا المنتصرة ثم عدد جرائم كل فرد منا علىٰ حدة.

وجهت المحكمة السؤال إلى الكابتن المحامي عنا إذا كان عنده ما يقوله دفاعًا عنا وقف الكابتن الصغير وقد احمر وجهه ثم أخرج ورقة

طويلة وبدأ يقرأ دفاعه عنا مفاده أن المتهمين قد أخطئوا ويطلبون الرحمة من المحكمة وخصوصًا أن الخيانة لها مبرر قانوني: إذ إنهم التحقوا بالعدو لأن هٰذا العدو هو مواطنو بعضهم ومن دين واحد لبعضهم الآخر.

صرخ أحد المساجين المغاربة وقال لرئيس المحكمة: إن المحامي لا يقول الحقيقة وأطلب حق الدفاع عن نفسي. أشار له الأعور أن هٰذا حقك دافع عن نفسك. قال (بولعيد) -وهٰذا ٱسمه أو قريبًا من ذلك-: السيد القاضي نحن لسنا خونة لأننا عرب مسلمون وأنتم فرنسيون أعداء لبلادي ولكل بلاد العرب المسلمين ولا نزال نقاتلكم في بلادنا التي هي جزء من بلاد العرب ونحن لم ننهزم من المعركة بل حاربناكم لأنها فرصة لقتل أكبر عدد منكم مقابل قتلكم الرجال والنساء والأطفال في بلادي، أنتم مجرمون وقد خالفتم كل قواعد الشرف للمحارب وقتلتم العزل وغير المحاربين، ومن غير المعقول أن نترك فرصة لقتلكم ثأرًا لدماء أهلي ووطني كما حدث معنا، لذلك أقول نيابة عن إخوتي: إننا قمنا بضربكم مواجهة في معركة شريفة وقتلنا من رجالكم الفرنسيين كل ما ٱستطعنا، ولا نظن أبدًا أن الخوف أو الندم قد تسرب إلىٰ نفوسنا بدليل أنه لو أتتنا فرصة أخرىٰ مثل هٰذِه سنقوم بضربكم وقتالكم بكل ما نستطيع من قوة، هٰذِه هي تهمتنا ونحن نعترف ونفتخر بما قمنا به من محاربتكم، ثم قال متابعًا: أيها الجنرال القاضي أنت تقاتل المسلمين وتناصر النصارى الكاثوليك في لبنان وغيرها باسم المسيحية والدفاع عنها؛ وتابع: وأقول لهٰذِه المحكمة ليعلم كل فرنسي كاثوليكي متعصب بأننا نقاتل كل من يحاول الٱعتداء علىٰ إخواننا المسلمين وغير المسلمين من الطوائف والأقليات غير المسلمة لأنهم أهلنا وفي ذمتنا كل ما واتتنا الفرصة للحصول على السلاح من أي جهة

كانت. وأنتم أيها القضاة تعلمون بأننا لم نخن فرنسا في الحرب العامة في أوربا وكل المعارك ونحن الذين حققنا لكم النصر عندما كان جنودكم من الفرنسيين يفرون مذعورين كالأرانب أمام جحافل الألمان، تذكروا أيها الجنرالات كم كان أحدكم من القواد يفتخر بأنه يقود فرقة من المغاربة أو الجزائريين صانعي النصر لفرنسا. ثم أشار بإصبعه إلى المحكمة وقال: إن كنتم كما تدعون بأنكم تحملون الشرف العسكري وتعتزون به، ٱعترفوا بجرائمكم بحق الأطفال والنساء والشيوخ العزل في بلادنا. وأضاف بجرأة وحدة: أنتم الذين يجب أن تقفوا في مكاني هٰذا لمحاكمتكم على ٱنتهاك الشرف الحربي للمقاتل الشريف.

إن جميع رفاقي يوافقوني علىٰ قولي هٰذا.

صمتت المحكمة وكل من فيها يسمعون (بولعيد) يهدر بصوت عال بما قال، ولما ٱنتهىٰ هٰذا البطل من كلامه. سأل الأعور باقي المغاربة كل باسمه هل توافق علىٰ ما قال المتهم (بولعيد)؟ كان الجواب بكلمة نعم أوافق إلا واحدًا منهم قال: أوافق علىٰ أكثر مما قال أيها الجنرال، نحن لم نفعل إلا القليل ولو سمحت لي الفرصة مرة أخرىٰ لعدت لقتالكم مرة ومرة إلى الأبد. أنتم مخطئون إذ تظنون أنكم ٱنتهيتم منا هناك في بلادي وحولتمونا إلىٰ عبيد وخدم تحاربون بنا متىٰ تشاءون، وتحسبون أنه لا قيمة لأرواحنا.

أما الحكم علينا حسب قانونكم الوثني الموروث عن روما الوثنية قانون العبيد والسادة، فلا نعترف به واصنعوا بنا ما شئتم، ثم جلس ينتفض من الغضب.

كان كاتب المحكمة يسجل كل الكلمات التي تقال.

جاء دور الشركسيين وكان أحدهم ذا شاربين مفتولين إلى الأعلىٰ

كمنقار الصقر، قال: إن محامي الدفاع هو الذي يدافع عنهما.

وقف الكابتن الصغير وردد الكلمات السابقة وأنهم يطلبون الرحمة والعفو عن الجرم الذي ٱرتكبوه.

انتفض ذا الشاربين مستنكرًا وقال: أين تعلمت الدفاع عن المظلومين في المحاكم، قاطع الجنرال الأعور الشركسي إذ أشار بيده أن يسكت عن التعرض للمحامي وقال: إذا شئت لك مطلق الحرية في الدفاع عن نفسك.

وقف الشركسي وكان أصهبًا، قال بعد أن ٱستأذن رفيقه بالكلام عنه: نحن مسلمون من القوقاز وآباؤنا حاربوا القيصر الروسي الذي تعدىٰ عليهم نحو ثلاثمائة سنة جيل بعد جيل. ولما خسروا الحرب لقلة عددهم؛ هاجر القسم الأكبر من آبائنا إلىٰ هٰذِه الديار لأنها من بلاد العرب المسلمين. فما كان من أهل هٰذِه البلاد إلا أن فتحوا لنا بيوتهم وأعطونا من أراضيهم الزراعية لنعيش كرامًا ولم يشعر أحد منا حتى الآن أنه غريب. والآن أسأل المحكمة هل ترىٰ محكمتكم أنه من الشهامة وتقاليد الفروسية التي تدعونها أن نطعن ونقتل من قدم لنا كل شيء. أضاف: إن المحكمة تعلم علم اليقين أن أهل البلاد السورية الكرام قد ٱستقبلوا اللاجئين الأرمن المشردين ولم يفرقوا بينهم كنصارىٰ مسيحيين وبين اللاجئين المهاجرين من آبائنا المسلمين. ٱستقبلوا الجميع وعطفوا على الجميع واعتبروهم من أهل بلادهم.

إن من يقاتل أهل هٰذِه البلاد الكريمة غير جدير بأن يكون فارسًا يدعي الرجولة إذا كنتم تعتبرون عملنا خيانة لكم فعملنا هو شرف لكم ورد لجزء صغير من الجميل الذي طوقونا به.

إذا كانت هٰذِه فروسيتكم وشهامتكم وقبلتم أن نقاتل هٰذِه البلاد ونخونها فأنت إذًا أعداء لكل مزايا الشرف الذي يجب أن يتمتع به الفارس.

أعود وأقول نحن نوافق علىٰ ما قاله إخوتنا المغاربة. نحن لا ننهزم في الحرب وليست الهزيمة من أخلاقنا. إنما حاربناكم لتعديكم علىٰ بلادنا. ثم جلس وقد ٱحمر وجهه.

قام الشركسي الآخر وقال: أنا ٱسمي مراد وأنا فارس متطوع في الخيالة الفرنسية أوافق علىٰ كل كلمة قالها أخي شامل ثم جلس وهو يشد شامل إليه من كتفيه.

بقيت لوحدي آخر سجين لم يتكلم. لقد تهيبت الموقف لعدم معرفتي أن أقول كما قالوا. أمرني الأعور بالوقوف. وقفت متحيرًا وقد لاحظ ذلك من حركاتي اللاإرادية. قال: تكلم أو ٱقبل دفاع المحامي. قلت: نعم سأقول وأدافع عن نفسي. قال: تكلم وخذ وقتك نحن هنا لنحقق العدالة. قلت: سيدي الجنرال أنا تطوعت في جيشكم بسبب الفقر الذي أتيتمونا به وليس إيمانًا بكم ولا بمدنيتكم المزيفة. كنت أظن أنكم لن تحاربونا أبدًا لأنكم حسب ما أذعتم أتيتم لتحضرونا، هكذا تقولون لنا دائمًا وكأننا متوحشون. وبعد تجربتي معكم أيقنت أنكم أنتم من يجب تحضيره وإدخاله في زمرة بني الإنسان لأنكم لا زلتم في مرتبة الوحوش الكاسرة. ليس عندكم من حس الإنسانية المتحضرة شيء سوىٰ بعض الصناعات التي تقتلون بها بني الإنسان.

رأيت عندكم التعصب الأعمىٰ للعرق الأوربي الكاثوليكي من دون فهم لمعنىٰ رسالة المسيح. حولتم رحمة الدين وقيمه السامية إلىٰ أشد أنواع القسوة والتوحش.

الحقيقة يا سادتي القضاة أنتم لا زلتم وثنيون ألبستم وثنيتكم ثوب المسيحية الخاصة بكم بعد أن غلبت رسالة الله المسيحية وثنيتكم المتوحشة.

أنا لست في موقع النقد لعقائدكم ولكن وأنا علىٰ يقين بأنكم أيها

الفرنسيون تعرفون الحقيقة، ولكن كما قلت تعصبكم الأعمىٰ لكل ما هو فرنسي وأوربي أعمىٰ عيونكم عن كل ما هو خير وإنساني وحقيقي. شيء مضحك ومحزن معًا أن يصور السيد المسيح علىٰ شكل أوربي أشقر الشعر مرسلة على الطريقة الأوربية ولباسه هو لباس خدام الأوثان الرومانية.

أما ما قمت به أنا وغيري من العرب المسلمين في جيشكم بالانقلاب ضدكم فهو الحق بعينه وكل من قاتل معكم من أبناء هٰذِهِ البلاد فهم خونة خارجون عن ناموس الإنسانية المستقيم، هٰؤلاء هم من يستحقون الاحتقار والإعدام ورمي جثثهم المنتنة إلى الكلاب.

نعم أنا قاتلتكم عن سابق تصميم وإصرار ولو عدت مرة أخرىٰ لنفس الموقف سأعود للقيام بنفس الفعل مع علمي الأكيد بأن العقوبة هي الإعدام إذا وقعت أسيرًا بأيديكم كما موقفي الآن.

تصور يا سيدي الجنرال فرنسيًا يقاتل الجيش الفرنسي مع الألمان المعتدين علىٰ فرنسا، كيف تحكمون عليه وما هو موقفكم منه. قارنوا أيها السادة ثم أصدروا أحكامكم من هٰذا المنطلق.

هٰذِهِ أقوالي وهٰذا ما عندي ثم جلست وقد تعجبت من نفسي من أين أتيت بهٰذا الكلام وهل أنا قلت ما قلت حقًا وأمام المحكمة. لقد صفق لي الجميع حتى المحامي الصغير فقد نظر إلي مبتسمًا وأحنىٰ رأسه. دخل أعضاء المحكمة إلىٰ غرفة جانبية بعد رفع الجلسة للمداولة وإصدار الحكم المعروف سلفًا ألا وهو الإعدام، ولكن ما يعزينا نحن الأسرىٰ هو أننا قلنا كل ما نعتقده وما تجيش به صدورنا، أما الحياة والموت فهما بيد الله.

خرج الجنرالات الثلاثة إلىٰ قوس المحكمة بعد التداول حيث أمرنا الجنرال الأعور بواسطة الكاتب أن نقف. فوقفنا جميعًا للاستماع إلى الحكم.

بدأ الجنرال العور يتلو كلامًا من ورقة في يده لم أفهم منها شيئًا إلىٰ أن قال: وقد حكمت المحكمة العسكرية باسم فرنسا بالإعدام على المتمردين وتلا الأسماء واحدًا بعد واحد إلىٰ أن عدد الجرائم التي قادتنا إلىٰ هٰذا الحكم، قال: لقد ٱرتكبتم جريمة مساعدة العدو أثناء الحرب: القيام بقتال الجيوش الفرنسية التي نحن من جنودها، قتل العديد من ضباط وجنود فرنسا، نقل أسلحة وذخائر إلى المتمردين من الجيش الفرنسي.

أطبق الجنرال دفاتره وكتبه وغادر المحكمة مع معاونيه. أما نحن فقد ساقنا الجنود تحت حراسة شديدة إلى السجن مرة أخرىٰ في ٱنتظار وصول تصديق الحكم الصادر بحقنا من الحكومة الفرنسية في باريس. هكذا أبلغنا المحامي الصغير قبل أن يسوقنا الجنود إلى السجن.

ومضىٰ ثلاثة أشهر على المحاكمة ونحن ننتظر وصول الموافقة علىٰ إعدامنا وكنا يوميًا نجتمع ونوصي بعدم إظهار الخوف أمام هٰؤلاء الأعداء الكفار، إذ نحن وبكل يقين سنكون شهداء في سبيل الأمة ومصيرنا إلىٰ جنة الخلد. حتىٰ أصبح الإعدام بالنسبة لنا شيئًا عاديًا لا يخيفنا.

قال مراد الشركسي: يا إخوان الأعمار بيد الله، لن يموت أحد إلا بإذن الله فلا تخافوا.

في أحد الأيام حضر الكابتن الصغير يحمل حقيبة إلى السجن حيث طلب مقابلتنا لينقل لنا بأنه قد صدر الحكم علينا بالأشغال الشاقة المؤبدة. وذلك بعد أن تداول أعضاء المحكمة العليا دفاعكم عن أنفسكم واحترامًا لمشاعركم الدينية التي هي حق مقدس حسب الدستور الفرنسي؛ لذلك ألغيت تهمة التمرد والفرار من الجيش. أما الجريمة التي صدق عليها أعضاء المحكمة والتي أوجبت السجن هي: قتل

ضباط وجنود الجيش الفرنسي، ونقل الأسلحة والذخائر المسلمة إلينا إلى المتمردين.

أنذرونا في السجن بأن نستعد للسفر إلىٰ مكان السجن في المنفىٰ لتنفيذ حكم المحكمة؛ لذلك أحضر لنا كابتن السجن أوراق وزعها علينا لنسجل طلباتنا ورسائل إلىٰ أهلنا. قال: إن بريد الجيش سيوصلها إلىٰ أصحابها حسب العنوان.

كتبت رسالة إلىٰ والدتي وزوجتي ومصطفىٰ أعلمتهم عن مصيري وما حدث معي باختصار.

وأن فوزية طالق وهي حرة تفعل ما تشاء، وأوصيت مصطفىٰ برعاية والدتي حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

ختمت رسالتي بطلب الدعاء لي من والدتي ورضاها وأن تسامحني علىٰ ما جنيت عليها وعلىٰ زوجتي. ختمتها بنقطة دم أخرجتها من أصبعي.

سلمت الرسالة إلىٰ مأمور السجن كما فعل الجميع حيث أكد بأن كل الرسائل ستصل إلىٰ أصحابها في أقرب وقت ممكن.

مضت مدة طويلة ونحن في السجن ببيروت، كنت أرىٰ مناظر الجبال والغابات والبحر يحدها بزرقته السماوية الجميلة من خلال قضبان الزنزانة للنافذة الخارجية وأثناء الاستراحة في الباحة الكبيرة. كانت بيروت كأنها مدينة الأحلام من بعيد ولم أكن أتصور أنها صغيرة إلىٰ هٰذا القدر، ولكنها صغيرة وجميلة ببحرها وجبالها التي تحرسها من الشرق.

إذًا هٰذِه بيروت وجبال لبنان السحرية المضطربة دائمًا بفعل الموارنة الذين يسكنون الجبال حيث ينقضون علىٰ من يجاورهم من المسلمين والنصارى الروم وخصوصًا الدروز الذين يردون عدوانهم

بكل شدة. إنهم يبغضون كل ما عداهم من البشر. أما فرنسا فهي أمهم الحنون كما كانوا يرددون دائمًا أمامنا عندما كنا في الجيش.

وقد صرح أكثر من واحد منهم أمامنا بأنهم فرنسيون وليسوا عربًا وأنهم يحتقرون العرب. وهٰذا دليل قاطع بأن عقولهم صغيرة لا يخرج تفكيرهم عن التعصب الطائفي الذي لا يمت إلى المسيحية المتسامحة. فهم وثنيون قلبًا وقالبًا وأعداء لأنفسهم قبل غيرهم، فكم نزلت بهم النكبات علىٰ مر السنين بسبب هٰذا الضيق العقلي والأخلاقي ولٰكن لم يقلعوا عن تعنتهم ولم يستفيدوا من هٰذِه الدروس حتىٰ يأتي عليهم يومًا يجلبون علىٰ أنفسهم الفناء والإبادة أو الطرد إلىٰ فرنسا وذلك لأنه لا أحد يستطيع أن يتحملهم.

توثقت علاقتي بزملائي، كانوا خير رفاق في هٰذِه المحنة؛ فهم صابرون ومتماسكون جدًا، لم تهزهم الكارثة بل اعتبروا أنفسهم محظوظين إذ لم يموتوا ميتة الكلاب وهم يقاتلون إخوانهم الأبطال الثائرون على المستعمر الفرنسي.

في صبيحة أحد الأيام أبلغنا مأمور السجن بأن السفر إلى المنفىٰ موعده غدًا، ثم زودونا بألبسة خاصة بالمساجين مع بعض المهمات الشخصية الضرورية.

حضر الحراس المدججين بالسلاح ليلًا إلى السجن حيث ساقونا مكبلين بالحديد إلىٰ سيارة كبيرة مصفحة وكدسونا في داخلها.

درجت السيارة منحدرة على المدينة النائمة ذات المصابيح الباهتة وقد لفها ضباب خفيف من بخار الماء المتصاعد من مياه البحر.

وصلت السيارة إلىٰ مستودعات طويلة علىٰ جانبي شوارع رصفت بالحجارة وكان صوت البحر واضحًا جدًا.

أنزلونا من السيارة حيث وقفنا صفًا منظمًا وكأننا لا زلنا جنودًا ثم

ساقونا تحف منا الحراب المثبتة برأس البنادق.

سألت أحد الجنود همسًا وكان قريبًا مني أين نحن يا رفيق؟ أجابني بجفاء: نحن في الميناء. آه فهمت إذًا السفر في البحر أليس كذلك؟ أدار وجهه جانبًا ولم يجب.

وصلنا إلى الرصيف حيث كانت السفينة راسية ملاصقة له وقد تدلىٰ منها سلم طويل.

توقفنا أمام السلم تمامًا حيث حضر ضابطًا بلباسه الأنيق وبدأ يتلوا أسماءنا. فكنَّا نجيب: نعم موجود. ثم قرأ علينا الأحكام الصادرة بحقنا وبأن الحكومة الفرنسية قررت ترحيلنا إلىٰ منفانا في جزيرة دومينيك من مستعمرات فرنسا، وتمنىٰ لنا سلامة الرحلة وبأن نكون منضبطين جدًا وشاكرين للرحمة والعطف الفرنسي وذلك لإبدال حكم الإعدام إلى السجن في المنفىٰ.

حيَّانا وأمر بإصعادنا إلى السفينة. تسلقنا السلم بصف منظم إلىٰ سطح السفينة حيث ٱفترشنا الأرض بعد أن فرشنا الأغطية الثقيلة الموزعة علينا.

غادرت السفينة الميناء وبدأتْ أضواء بيروت تبتعد حتىٰ تراءت لنا نقطًا ضوئية بعيدة جدًا كأنها النجوم حتىٰ توارت عنا نهائيًا. إنها آخر ضوء أراه من بلادي وأنا مبحر إلى المجهول.

كان حراسنا من الجنود السود. وقد ٱمتنعوا عن أي ٱحتكاك معنا إذ كانوا صارمين ولكن مؤدبين.

سارت السفينة في ظلمة الليل حيث كنا نسمع صوت ٱرتطام الماء بجوانبها بصورة رتيبة حتى ٱعتادت حواسنا هٰذِه الموسيقى المائية وكأنها تهدهدنا لننام وقد تذكرت صوت النواعير في مدينتي حيث كنا نام علىٰ نغماتها وكأنها الأم الحنون تغني لأبنائهاليناموا.

دخلت في نوم عميق من أثر التعب والإرهاق النفسي الذي وتر أعصابي فلم ٱستيقظ إلا علىٰ حرارة أشعة الشمس الساطعة.

أيقظ الحراس جميع المساجين إذ جاء قائدهم فأمرنا بالوقوف صفًا منتظمًا ثم بدأ بتفقدنا. أمرنا بالسير خلفه إلىٰ أسفل السفينة حيث نزلنا على السلالم الحديدية إلىٰ طابق في الأسفل مؤلف من غرف ضخمة موحشة أودعنا فيها ثم أغلق علينا الحراس الباب الحديدي الضخم وذهبوا.

بعد عدة ساعات أحضروا لنا الطعام ووضعوه أمامنا وغادروا بعد إغلاق الباب.

لم يكن هناك منفذ إلا نافذة مستديرة زجاجية عالية وكنا نصعد إليها علىٰ بعض الصناديق الفارغة لنتمتع بمنظر البحر الأزرق الذي لا نهاية له.

ذهب النهار وحل الليل بظلامه، وكان الطعام يأتينا بشكل منتظم.

في اليوم الثاني جاءنا أحد ضباط السفينة مع جنود الحراسة وقال: إن القبطان يطلب منا أن نساعد في الخدمة على السفينة فمن يريد التطوع فليرفع يده. رفع الجميع أيديهم للتخلص من هٰذا المكان القذر. تبسم الضابط وقال: الأنضباط في البحرية قانون مقدس. إطاعة عمياء ومن يحاول خرقه فمصيره الإعدام فورًا أو حبسه في زنزانة مظلمة منفردًا حسب الجريمة المرتكبة.

القبطان هو الحاكم الفرد ولا رد لأحكامه. مفهوم قولي؟ ٱتبعوني بنظام.

فتح الباب وقادنا الجنود إلىٰ معاون القبطان حيث وزعنا علىٰ أقسام السفينة.

سلمونا مهماتنا لكل واحد أو ٱثنين عمالًا في مساعدة البحارة

وكان من نصيبي أن أساعد في حمل الطعام إلىٰ مطعم الضباط مما جعلني محظوظًا إذ بدأت التحرك بحرية صعودًا ونزولًا. كنت أحمل الطعام أيضًا إلى السطح لتقديمه إلىٰ بعض الحراس والبحارة العاملين عليه مما أكسبني صداقة الجميع وشعبية بينهم.

مضىٰ وقت طويل علىٰ حالنا والسفينة تمخر البحر. وكنا نحن المساجين قد نسينا الزمن لأنه لا قيمة بعد الآن لعدد الأيام والشهور فنحن سجناء وإلىٰ آخر يوم من حياتنا سنقضيها في الآلام والعذاب.

في يوم حار وصلنا إلىٰ إحدى المدن الساحلية حيث دخلت السفينة إلى الميناء لذلك أعادونا إلىٰ غرفتنا السفلية.

بعد خمسة أيام غادرت السفينة الميناء الذي عرفنا أنه ميناء مرسيليا الفرنسية وقد كنا نسترق النظر من النافذة المستديرة القريبة من الرصيف حيث كنا نمضي الوقت بالنظر على الحركة في الميناء والشوارع القريبة منه.

قبل إبحار السفينة ليلًا أحضروا عددًا كبيرًا من المساجين مخفورين بحراسة كبيرة وقد علمنا في اليوم التالي بعد خروجنا للخدمة أنهم أودعوا في مستودع آخر كبير.

كانت الأوامر الصادرة من القبطان بأن لا نقترب من هٰؤلاء المساجين أبدًا.

بدأت أضواء المدينة تبتعد وقد ذكرتني ببيروت إذ كان الشبه كبير بينهما ما عدا مناظر الجبال اللبنانية الساحرة. عدنا للخدمة من جديد وقد أصيب بعض رفاقي بدوار البحر الشديد الذي لم يفارقهم إلا بعد أسابيع عديدة من العناية الطبية.

توالى الليل والنهار وصوت المياه ترتطم بالسفينة كموسيقىٰ دائمة لا تتوقف وقد توقفت السفينة في عدة موانئ وفي كل مرة كان يصعد

إليها فوج جديد من المساجين من المجرمين واللصوص المنفيين وقد حذرونا من الاقتراب منهم.

كان الجميع علىٰ ظهر السفينة يعاملوننا باحترام خفي يظهر في نظرتهم إلينا وطريقة التكلم معنا بشكل ودي وكأننا لم نرتكب جريمة التمرد في نظرهم.

أذكر أن أحد ضباط السفينة بينما أقدم له القهوة الصباحية وأثناء سكبها له سألني إلىٰ أي سلاح تنتسب أيها السجين؟ المدفعية قلتها بهدوء بارد، هز رأسه وتبسم وقد نظر في وجهي مباشرة وقال: أظن أنك قاتلتنا جيدًا، أليس كذلك؟

بكل ما أستطيع من القوة يا سيدي حتى انتهت الذخيرة. ربت علىٰ كتفي وقال: برافوا أيها المقاتل.

مضت أيام وليال حارة رطبة وكان هواء البحر منعشًا في الليل الساحر على السطح فكنا نفترش أغطيتنا ونغط في نوم عميق بعد الانتهاء من الخدمة. كان قبطان السفينة قد سمح لنا بحرية كاملة بالتجول والاختلاط بالبحارة بعد أن اقتنع بسلوكنا وانضباطنا، أما المساجين الآخرين فلم يسمح لهم بالخروج من السجن إلا لساعة واحدة ليتعرضوا إلىٰ أشعة الشمس تحت حراسة مشددة.

وكان من مهمتنا تقديم الطعام لهم. وفي كل مرة أدخل فيها عليهم برفقة الجنود المسلحين أرى الشر ظاهرًا علىٰ وجوههم.

دفعني أحدهم بقوة بعد أن وضعت الطعام على الأرض متحرشًا بي، فنظرت إلى الحارس ففهم ما أريد فهز موافقًا وقد هيأ سلاحه للرمي.

استدرت إليه -إلىٰ الذي دفعني- ولكمته بقوة علىٰ وجهه فانبثق الدم من منخريه بشدة ثم سقط أرضًا فوطئته بقدمي علىٰ رقبته حتىٰ كاد يفارق الحياة.

قال الجندي: يكفي لقد نال جزاءه، فتركته وابتعدت قليلًا وأشرت بإصبعي إليهم محذرًا وصرخت بصوت مبحوح من الغيظ: فليعلم جميعكم أني ورفاقي سجناء ومحكومين بالإعدام فمن تحدثه نفسه منكم بالشر سأقتله فورًا ولن يزيد ذلك في عقوبتي شيء، هل فهمتم يا خنازير يا منحطين يا مجرمين؟ صمت الجميع وعلىٰ إثر ذلك التزم جميع المساجين الذين هم من حصتي بالسلوك الودي إذ ٱعتبرونا زملاء مميزين.

أخيرًا وصلت سفينة السجن إلىٰ نهاية رحلتها وقد شاهدنا الجزيرة الجميلة جدًا تقترب حتىٰ رست السفينة في الميناء الصغير.

تلقينا الأمر بالانتظام صفًا واحدًا علىٰ سطح السفينة حيث ٱستعرضنا القبطان وحيانا مودعًا وقد أظهر أسفه قائلًا: كنت أتمنىٰ أن أعرفكم في غير هٰذا الموقف المؤسف. ولكن القوانين يجب أن تحترم وتنفذ، أتمنىٰ لكم السلامة، ثم حيانا وابتعد عنا.

أمرنا الكابتن المسؤول عنا بالنزول إلى الميناء وقال: سوف أتساهل قليلًا ولن نكبلكم بالحديد فأنتم محاربون شرفاء ولم تسيئوا إلى الشرف العسكري لذا فإن أوامري تقضي بأن أتجاوز القانون المتبع في مثل هٰذِه الحالة إذا أظهرتم الٱنضباط خلال الرحلة. وبما أنكم كنتم مثال الٱحترام للتعليمات الصادرة إليكم وأنا شخصيًا آسف جدًا عن الحرب التي نشبت في بلادكم. وكما أني أحترم مشاعركم الدينية والوطنية التي أوصلتكم إلىٰ ما أنتم عليه. وأما من جهتي فقد وصلت مهمتي إلىٰ نهايتها وسأسلمكم الآن إلىٰ حاكم الجزيرة الذي سيرسلكم إلى السجن الكبير وأرجو أن يعاملكم مدير السجن معاملة طيبة لأنه تلقىٰ أوامر بذلك. ولكن أحذركم بأن المدير من غلاة الٱستعماريين وهو ينظر باحتقار إلىٰ كل ما هو غير فرنسي وطبعًا نحن لا نوافقه علىٰ

هٰذا السلوك المتخلف. فكونوا علىٰ حذر منه وأظهروا له كعادتكم الطاعة التامة بلا ٱعتراض أو ٱحتجاج.

نزلنا إلى البر وانتظمنا في صف واحد وقد حضر ضابط صغير السن والرتبة ترافقه ثلة من الجنود وقف باحترام وحيا الكابتن المرافق لنا وأخذ منه الأوراق الرسمية المعدة لمثل هٰذِه الحالة.

فتح مظروف كبير وأخرج منه ورقة ثم بدأ يقرأ أسماءنا وكان يتوقف عند كل ٱسم وينظر في وجه صاحبه ليتعرف عليه وقد ٱستغربت منه كلمة قالها بعد الٱنتهاء من التفقد، قال بصوت خافت: يا إلهي إنهم من البيض.

جرى الٱستلام والتسليم ثم أمرنا الكابتن الصغير بالسير يحف بنا جنود عجيبو الشكل لا هم بالسود ولا هم بالصفر وإنما مزيج من اللونين.

ساقونا علىٰ مقر الحاكم الذي ٱستعرضنا ثم أمر بأن نساق إلى السجن الكبير في الجزيرة.

أما باقي السجناء فقد أبقوهم في السفينة لإنزالهم في جزيرة أخرىٰ. هٰذا ما أجابني به أحد الجنود المرافقين علىٰ ظهر السفينة قبل نزولنا إلى الميناء.

وصلت عربات تجرها البغال إلى الميناء حيث ركبناها وغادرنا المدينة الصغيرة النظيفة، دخلنا طريقًا ضيقًا في غابة كثيفة وقد عجبت من أشكال الأشجار الغريب بالنسبة لنا إذ لم نر قبل الآن ما يشبهها في بلادنا.

وصلنا بعد أربع ساعات من المسير البطيء في الغابة الكثيفة إلىٰ بناء حجري ضخم جدًا مشاد علىٰ قمة تل كبير أقرب إلى الجبل الصغير، كان البناء علىٰ شكل قلعة مستديرة. فتح الباب الضخم من

الداخل حيث دخلت العربات إلى الساحة الرئيسية.

لفت أنتباهي وجود منصة خشبية وفي منتصفها آله غريبة الشكل، سألت بولعيد وكان بجانبي ما هٰذا يا أخي؟ أتعرف ما هٰذِه الآلة؟

قال: أجارنا الله منها يا أخي فرحان. هٰذِه آلة الإعدام وأسمها عند الفرنسيين جيلوتين يستخدمونها لقص الرؤوس، لعنهم الله وكم قصت عندنا في المغرب من رؤوس إخواننا. أعوذ بالله منها، وهل يقطعون رأسًا كل يوم حتىٰ يتركوها قائمة يا أخي؟ أجابني: والله يحتمل ذلك لأني أرىٰ أثار دماء على المقصة، الله يلعن أبوهم إنهم مجرمين هٰؤلاء الفرنسيون الكفار.

توقفت العربات في منتصف الساحة حيث أمرنا الضابط بالنزول والوقوف في الصف كان صوته ناعمًا أنثويًا، نفذنا الأمر بسرعة حيث وقف الضابط علىٰ رأس الصف وكأننا لا زلنا في الثكنات جنودًا نظاميين.

سمعنا صوت البوق يضرب بنغم هادئ رتيب أقرب إلى الحزن وكأنه يودع ميتًا. فقال أحد المغاربة: لعنهم الله وكأنهم يعتبرونا ميتين بدخولنا إلىٰ هٰذا السجن هٰؤلاء الكفار لا يؤمنون بأن الأعمار بيد الله. إن شاء الله سنتخلص من هٰذِه المحنة قريبًا لا تخافوا يا إخوان وتوكلوا علىٰ الله الذي لا ينسانا.

توقف البوق عن العزف وظهرت بوادر حركة من حراس السجن، أصطفوا بسرعة كبيرة وبعد لحظات خرج من المبنىٰ جنرال عتيق يرتدي بذلة مليئة بالأوسمة وقبعته مذهبه وله شاربان كبيران قد أبيضا جدًا.

وصل أمام الصف وقد تأبط عصا صغيرة، أجاب علىٰ تحية الضابط الصغير ثم بدأ يتفحصنا واحدًا إثر الآخر، ثم زعق فجأة بصوت عالٍ مظهرًا الصرامة والشدة: أنتم الهاربون من المعركة يا جبناء، أنتم الآن

في عهدتي، لن أرحمكم وسأذيقكم الموت كل يوم حتىٰ تكونوا عبرة لكل جبناء العالم، لقد خنتم فرنسا المنتصرة. وجه صراخه إلى الضابط الصغير وقد ارتبك أمامه: كيف تسوق هٰؤلاء الجبناء بدون القيود الحديدية، أنت معاقب.

مد الضابط الصغير يده بغلاف الأوراق إلى الجنرال الأحمق، وقال بصوت نسائي: الأوامر يا سيدي الجنرال. احتد الجنرال مرة أخرىٰ: ماذا؟ أية أوامر أيها الأحمق؟ أنا هنا الآمر، أنا من يصدر الأوامر، ولا أحد غيري. قال الضابط بخوف: القيادة يا سيدي الجنرال من باريس.

هدأ العجوز قليلًا عند سماعه كلمة باريس ثم خطف الأوراق من يده وفضها متمهلًا، قرأها ثم طواها وسلمها إلىٰ مرافقه. تفرس في وجوهنا من جديد. ثم قال: أنتم قاتلتم الجيش الفرنسي، أنتم أفاعي؛ لدغتم اليد التي قدمت إليكم لقمة العيش ودربتكم علىٰ سلاحها لتقاتلوا تحت علمها.

كيف قاتلتم هٰذِه اليد الكريمة التي حضرتكم يا متوحشين، أنتم خونة وعقابكم سيكون عندي هنا أقسىٰ وأشد من أي عقوبة أخرىٰ.

حاول مراد الشركسي أن يرد عليه وكان بجانبي، قال: لك هٰذا الخنزير فنهرته بيدي بشدة وقلت: اسكت إنه عجوز يحاول أن ينفش ريشه أمامنا، فلا تسبب لنا المشاكل نحن الآن بين يديه؛ أطاع وسكت. لاحظ العجوز الحوار القصير بيننا فأشار إلينا أن اقتربوا أنت وهو.

تقدمنا حتىٰ وقفنا أمامه تمامًا، صرخ بوجهي: ماذا كنت تقول له أيها المجرم الخائن؟ قلت: أيها الجنرال العظيم كنا نحاول معرفة كم من المعارك قاتلت فيها وربحتها حتىٰ حصلت علىٰ كل هٰذِه الأوسمة؟ نظر علىٰ صدره وقد ظهرت علامات الرضا عليه قليلًا، ثم قال: ارجع

أنت وهو إلىٰ مكانكم إن رسالة القيادة تشهد بشجاعتكم في قتالكم جيوشها. أما عقابكم فهو علىٰ أفعالكم كأعداء محاربين وليس كخونة أو فارين، وتابع كلامه: إن الحاكم في هٰذِه القلعة هو أنا. هنا القانون إرادتي. أمر بتوزيعنا على العنابر، كل اثنين معًا ثم أدار ظهره ودخل في البناء الكبير.

و كان رفيقي في الزنزانة مراد الشركسي. أدخلونا إلىٰ غرفة حجرية قديمة جدًا، مظلمة إلا من نافذة عالية مشبكة بالقضبان الحديدية الصدأة جدًا، يدخل منها نور شاحب يساعد على الرؤيا الضعيفة.تحرك في صدر الغرفة رجلان كانا مستلقيان وتقدما نحونا زحفًا. وكان منظرهما مرعبًا بلحاهم الطويلة وشعورهم الكثة القذرة. كانت الأوساخ ظاهرة علىٰ كل ما يلبسونه من أسمال بالية ممزقه. لم أتمكن من التمييز بينهما إلا بعد زمن ليس بالقصير، وكانوا يحملقون بنا كأننا آتون من عالم آخر ثم تحول عجبهم إلىٰ ضحك طويل، صرخت بهم: ما لكم تضحكون، هل أنتم مجانين؟ من أنتم؟ عرفونا علىٰ شخصياتكم؟ قلتها بالفرنسية. قال مراد وقد أخذته الدهشة: يا إلهي ما هٰذا! هل هٰؤلاء من البشر ومن بني آدم؟ نطق كلماته بالعربية وأردف، بسم الله الرحمن الرحيم من كل شيطان رجيم. قفز أحدهم في وجهي ورفع يديه إلىٰ أعلىٰ فرحًا وهو يردد: الحمد لله، الحمد لله القادر علىٰ كل شيء _يا خويا قالها بلهجة أهل الجزائر_ أنتم مسلمون؟ أنتم عرب؟ مسلم عربي عربي عربي. قال رفيقه معلقًا وكان هادئًا: الله فرج، الله فرج.

عقدت الدهشة لساني من وقع المفاجأة، لم أعد أعرف ما يجب علىٰ فعله في مثل هٰذا الموقف.

نبهني صوت صليل السلاسل الحديدية حينما قفز السجين مرة أخرىٰ وهو يقترب من مراد_ إنهم مقيدون بسلاسل طويلة تسمح

لأحدهم بالتحرك حتىٰ منتصف الزنزانة.

سحبت مراد من يده إلى الداخل وقلت: مراد، قال: ماذا تريد؟ تعال لنسلم علىٰ إخواننا. اقتربنا منهم وعانقناهم بشدة فبكىٰ أحدهم وهو يحمد الله.

اجلسوا يا إخوان ولا تخافوا سنبقىٰ عندكم لوقت طويل. نحن لسنا زوارًا، نحن مساجين هنا معكم إلىٰ آخر العمر. اطمأنوا.

اقتربت إلىٰ أسفل النافذة حيث الضوء أكثر قليلًا ثم جلسنا علىٰ أرضية من القش اليابس، بدأت أتفحص رفاقنا وهم يحملقون بنا.

حدثت نفسي بأني يجب علي تغيير الموقف المحزن. خاطبتهم: عرفونا علىٰ أنفسكم يا أخوتي من أنتم، وما جاء بكم إلىٰ هٰذا المكان المنقطع عن العالم.

قال أكبرهم وكان الشيب يملأ عارضيه: أنا اسمي رشيد من الجزائر، أما رفيقي هٰذا اسمه إبراهيم من الجزائر. أجبتهم بدوري: أنا اسمي فرحان من بلاد الشام. وهٰذا أخي مراد من بلاد الشام. لا تستعجلوا فالزمن طويل جدًا سيقص كل واحد منا قصته.

وبينما نحن في هٰذا الحوار فتح باب الزنزانة الحديدي بصرير حاد. صرخ جندي بأعلىٰ صوته: فرحان مراد، اتبعوني. خرجنا من الباب وإذ بأربعة من الجنود شاهري حرابهم قد أحاطوا بنا وقادونا إلىٰ غرفة كبيرة يحرسها جندي. دخلنا وراء الكوبرال وإذ بمستودع ضخم للألبسة. قال: اخلعوا لباسكم العسكري بسرعة ثم رمىٰ أحد الجنود بصرة لكل منا مع زوج من الأحذية الثقيلة جدًا. خلعنا لباسنا أمامهم وانتظرنا. قال: الآن ارتدوا لباس السجن. فتحت صرتي وأخرجت قميصًا وسروالًا مخططين بخطوط حمراء عرضية. ارتديت ورفيقي لباسنا الجديد. قال الكوبرال: الآن لم يعد لكم أسماء، أنت فرحان رقمك ٤١٣ وأنت مراد ٤١٤ هٰذِه

أسماؤكم الجديدة. ٱتبعوني.

سرنا وراءه والجنود يحرسوننا، دخل إلىٰ مبنىٰ طويل تفوح منه رائحة الرطوبة العفنة. ٱجلسوا هنا هٰذِه قاعة الطعام، ٱنتظروا حتىٰ يحضر الجميع لتأكلوا عشاءكم ثم تركنا وابتعد مع حرسه.

طال ٱنتظارنا ونحن نتأمل هٰذا المكان، قدرت أنه بني قبل مائتي سنة على الأقل فهو قلعة عسكرية بدفاعاته ومستودعاته. قلت: مراد. قال: ما بك؟ قلت: متى ٱحتل الفرنسيين هٰذِه الجزيرة؟ ألم تلاحظ قدم هٰذا البناء إن عمره أكثر من مائتي سنة. أجابني بضحكة قصيرة: ما يهمك فرحان إن كان عمره مائه سنة أو ألف. المهم أنه أصبح مسكنًا لنا. دخل جمع كبير من المساجين بنظام الصف والجنود حولهم ثم جلسوا بحلقات كبيرة. بحثت عن رفاقنا وجلسنا في حلقتهم ننظر إلىٰ بعضنا البعض بلباسنا الجديد ونحن نضحك من أشكالنا الجديدة.

قص كل جماعة من رفاقنا ما حصل معهم، فكان الجميع تقريبًا قد ٱنضموا إلىٰ مجموعات من المساجين حبسوا في غرف كبيرة بقدر غرفة الطعام تتسع لعشرين أو أكثر من السجناء، إذًا لماذا نحن سجنا في غرفة صغيرة مظلمة؟

كان أغلب السجناء من بلاد الجزائر وقليلًا من المغرب وتونس، كما أن بعض المساجين من جنسيات أخرىٰ وهناك بعض الأوربيين والزنوج.

أخبرت رفاقنا عن السجينين رشيد وإبراهيم وقد ٱستغربوا قصتهم. قلت: اليوم سنعرف قصتهم. إنهم مأساة.

وزعوا الطعام بآنية جماعية لكل حلقة حلة واحدة، ثم وزعوا لكل واحد منا ملعقة خشبية، وبعد الانتهاء من الطعام خرجنا بصف منظم إلى الساحة الرئيسية. قرأوا أسماءنا ثم أمرونا بالعودة بنظام كل إلىٰ

مكان ٱحتجازه.

ودعنا رفاقنا وعدت مع مراد إلى الزنزانة الضيقة وأغلقوا وراءنا الباب بقرقعة وصرير.

كانت الزنزانة مضاءة بضعف شديد من مصباح كهربائي ثبت في السقف المرتفع. كنا نرىٰ بعضنا كأشباح تتحرك. جلسنا بقرب رفاقنا الجدد. وسألتهم: هل أحضروا لكم الطعام؟ قال إبراهيم: نعم أكلنا والحمد لله. قلت: كيف تقضون حاجتكم وأنتم مكبلون من أقدامكم. أشار إبراهيم إلىٰ باب صغير جانبي لم ألاحظه لعدم وضوح الرؤيا. قال: هنا وطول السلسلة كافية للدخول والخروج.

تقدمت إلى الباب وحاولت الدخول فلم أتمكن من ذلك لشدة الظلام. قال رشيد غدًا متىٰ طلع الصباح ٱدخل إليها. أما الآن فلا أنصحك لأنها خطرة عليك، ويكن أن تسقط في الفتحة الأرضية. ٱرجع علىٰ مكانك ولا تحاول.

في الصباح دخلت علىٰ غرفة الحمام فإذا بها غرفة صغيرة يكاد لا يتحرك فيها الإنسان ولها فتحة ضيقة في الجدار تشبه منافذ رمي السهام في القلاع العربية. أما فتحة الأرض فهي لقضاء الحاجة وهي من الخطورة بحيث إذا سقط فيها أحدًا فإن سقوطه إلى الأسفل كافٍ ليحطم كل عظمة فيه.

نظرت من الفتحة السفلية إلى الفضاء وإذا بهاوية شديدة يجري فيها نهر صغير إذًا هٰذا هو السر في تخلص الزنزانة من رائحة الفضلات.

سألت إبراهيم كم مضىٰ عليكم هنا في هٰذا السجن؟ أجابني: آه يا أخي فرحان لقد أرسلكم الله إلينا رحمة. نحن مقيمون في هٰذا السجن منذ عشرة سنوات، أحضرونا من الجزائر بعد الحكم علينا بالنفي مع الأشغال؛ بتهمة التمرد علىٰ فرنسا وقيامنا بالثورة. أما في هٰذِه الزنزانة

فقد مضىٰ علينا سنة وشهرين. أنظر إلىٰ هٰذِه الخطوط على الجدار هٰذا هو تقويمنا. لقد ضاع الزمن بالنسبة إلينا إنه عذاب دائم، إن راحتنا في نموت.

سأله مراد: هل هٰذِه الغرفة تختلف عن غيرها؟ قال إبراهيم: نعم هٰذِه الزنزانة مخصصة للعقوبة. وأما باقي الغرف فهي كبيرة وتتسع لعشرات من السجناء وفيها نوافذ وإضاءة كافية.

استغرب مراد وقال: إذًا نحن معاقبون، هز رشيد برأسه موافقًا قال: نعم وإلا لما أرسلوكم إلىٰ هنا، ولكن من الواضح أن عقوبتكم صغيرة وإلا لكنتم الآن في زنزانة مماثلة والحديد في أقدامكم مثلنا ولكن الله لطف بكم وبنا إذ أرسلكم إلينا للمؤانسة.

سألت رشيد: ما هي جنايتكم يا أخ رشيد؟ أجاب إبراهيم علىٰ سؤالي بعد أن فكر قليلًا: لقد أخبرتك قبلًا ولكن أنت شامي ونحن في الجزائر نعلم بأنكم تعيشون في ظل الدولة العثمانية الإسلامية فلا بد أنك تحفظ شيئًا من القرآن الكريم، وتعرف الصلاة والصوم وكل ما يتعلق بأمور الدين؛ وهٰذا ما نحسدكم عليه. يا أخي لقد أنسانا الفرنسيون الكفار كل العبادات فنحن لا نعرف كيف نصلي أو نقرأ القرآن. فهل تتفضل علينا وتقرأ لنا قليلًا مما تحفظه من القرآن الكريم. يجب عليك أيها الأخ أن تصلي أنت ورفيقك حتىٰ نصلي معكم.

أسقط يدي عند سماعي هٰذِه الأقوال، نظرت إلىٰ مراد متسائلًا إن كان يعرف؟ هز كتفيه ببلاهة.

ولحراجة الموقف تذكرت أني قد حفظت بعض الآيات عند شيخ حارتنا ومن سماعي الإمام في مسجدنا الصغير وهو يقرأ في الصلاة إمامًا، فحفظت عنه بعض ما يقرأ.

قلت: أخي إبراهيم أنت لا تعرف قصتنا؛ سأحكيها لكم علىٰ مهل

لأننا مقيمون هنا ما دمنا أحياء.

ولكن سأسمعكم بعض الآيات القرآنية: قرأت سورة الفاتحة وما حفظت عند شيخنا أو ما بقي عالقًا بذاكرتي، وقد ٱستغربت كيف تذكرت القراءة بعد الأنقطاع الطويل عن ممارسة كل ما يمت إلى الإسلام بصلة.

قرأت مقلدًا الإمام في ترتيله، فرأيت الدموع تنحدر من عيونهم ثم بدأ الشهيق والبكاء الحار. حتىٰ مراد بدأ يبكي، توقفت عن القراءة حتى ٱنقطع البكاء. قلت سأعلمكم الصلاة كما تعلمتها ولكن غدًا إن شاء الله ثم ٱستلقيت علىٰ كومه من القش اليابس. سألت مراد: لماذا بكيت معهم وعهدي بك قليل الدين؟ أجابني بجدية بالغة قال: يا فرحان نحن الشراكس والداغستان قد هاجر آباؤنا من القوقاز فرارًا بدينهم من الروس، وقد فضلوا الهجرة عن ترك دينهم أو المساومة عليه.

أما نحن أبناءهم فقد خنا الأمانة فتركنا ديننا ولم نعد إلىٰ وطننا بل وضعنا أنفسنا في خدمة الصليبيين أعداء ديننا. فأي حياة نعيشها إننا خونة يا فرحان. وتذكرت كل ذلك عندما سمعتك تقرأ القرآن.

قلت: هون عليك يا أخي سأعلمك كل ما أعرفه. نم الآن وغدًا إن شاء الله سنبدأ بالتعليم فالوقت طويل جدًا. ثم دخلنا في نوم عميق من شدة الإرهاق والتعب المتواصل منذ نزولنا من السفينة حتىٰ وصولنا إلىٰ هٰذا السجن القبر بكل معنى الكلمة .

أفقت علىٰ يد تهزني وصوت إبراهيم: يا أخي فرحان ٱستيقظ قم من نومك ٱسمع الأصوات. فتحت عيوني علىٰ ظلام دامس إلا من نور الفجر يتسلل من النافذة العلوية. ما بك يا إبراهيم ماذا حدث؟ قال: ٱسمع. أصخت بأذني وإذا بصوت إطلاق نيران البنادق يتردد صداه من الغابة المجاورة، دخلت غرفة الحمام بحذر بالغ من السقوط، نظرت

من النافذة الضيقة في الجدار فلم أر شيئًا، ولكن إطلاق النار بدا واضحًا من تحتنا.

سمعت صراخ الرجال من بعيد، ثم طقطق رشاش ثقيل من على القلعة تبعه صوت مدفع بدأ يقذف قنابله بسرعة. إنه مدفع عيار خمسة وسبعون، إنه مدفعي المفضل عدت إلىٰ جانب رفاقي الذين ٱستيقظوا مذعورين. قال مراد: ماذا يجري يا إبراهيم؟ فرحان ماذا تعرف؟ قلت: لا أعلم ٱسأل إبراهيم. قال إبراهيم: لا تخافوا إنه المجاهد علي يهجم علىٰ قافلة القلعة الله ينصره.

كنت أرىٰ شبح إبراهيم في الظلام. ولكن قدرت أنه يرفع كفيه بالدعاء. أجبته مع الباقين: آمين آمين يا رب العالمين وذلك بدون أن نسمع أي دعاء.

قال رشيد: يا أخ فرحان صلي بنا الفجر. قلت: لكن من هو المجاهد علي وهل هنا مجاهدون في آخر الدنيا؟ خبرني يا أخ رشيد ما هي القصة وبعدها نبدأ الصلاة. قال: الصلاة أولًا ثم أقص عليك ما يثلج صدرك، قم يا شيخ وصلِّ بنا الفجر ثم ندعو له بالنصر على الكفار، قم. قال مراد ضاحكًا ومازحًا وقد ضربني علىٰ ظهري: والله صدق أنت شيخنا وسيهدينا الله علىٰ يديك، ولكن كيف نتوضأ؟ قال إبراهيم: تيمموا يا إخوان لقد علمونا أهلنا في الجزائر: ٱضربوا بأيديكم على القش وتوضئوا. هل أنتم كفار أم مسلمون؟ قلت: والله يا رشيد إن كل ما يخدم هٰؤلاء الكفار الملاعين يصبح كافرًا مثلهم فقد رأيتهم يحملون الصليب في رقابهم ولكن لا يصلون ولا يرتادون الكنائس ولا غيرها.

تيممنا ثم صليت بهم الصبح وبدأنا الدعاء الحار لينصر الله المجاهد علي الذي لا أعرفه. بعد بزوغ الشمس هدأ إطلاق النار إلا من

طلقات متفرقة بعيدة، قال رشيد: الآن سيبدأ الاحتفال هيئوا أنفسكم، أي احتفال قال مراد مستغربًا: وهل هنا يجرون احتفالات وما المناسبة؟ قال إبراهيم: سترىٰ بعد قليل لا تستعجل.

انتظرنا بترقب ونحن نقرأ الفاتحة مرات ومرات وقد تعلموها بسرعة أو تذكروها فقرع باب الزنزانة بعنف، صاح الجنود بسرعة إلى الخارج. خرجت أنا ومراد وبقى المكبلون في الداخل.قال إبراهيم: مع السلامة سندعو لكم بالسلامة، ركضنا أمام الجنود والحراب في ظهورنا إلىٰ ساحة القلعة.وقفنا مع جموع المساجين المنتظمين في صفوف متراصة أمام المنصة والجنود قد شهروا وسلاحهم باستعداد.وكان رشاشًا موجهًا نحونا علي سطح القلعة.

ظهر الجنرال المجنون متمنطقًا بسفيه علىٰ حزام عريض أحمر اللون، علامة الحرب عندهم تقدم صفوف الجند ورد عليهم التحية بسيفه، ثم استدار إلىٰ صفوف السجناء. خطب خطبة طويلة مفادها أن المتمرد علي الذي تمرد علىٰ فرنسا المنتصرة هاجم قافلة تموين القلعة. ولكن قوات فرنسا المنتصرة ردته منهزمة مع أتباعه، وأن جنود فرنسا المنتصرة الأبطال قد أسرت متمردًا. وتابع الآن سترون كيف ينال عقابه الصارم جزاء تمرده علىٰ فرنسا المنتصرة. ضربت الطبول حول المقصلة، حيث تقدم أربعة من الجنود يحملون رجلًا تنزف منه الدماء بغزارة وهو فاقد الوعي ثم صعدوا به إلى المقصلة ووضعوا رأسه تحت السكين العالية، وقد ربطوا يديه إلى الخلف وقيدوا قدميه. تقدم ضابط شاب يحمل الإشارة الطبية علىٰ ياقته وكميه إلى الأمام ثم وقف أمام الجنرال قال الكابتن وقد عرفنا أنه طبيب القلعة: سيدي الجنرال إنه جريح وفاقد الوعي ولا يصح إعدامه. إن القانون لا يسمح بإعدامه.

صرخ الجنرال العجوز: أنا حاكم هٰذِه القلعة وإرادتي هي القانون

النافذ هنا. حيا الطبيب جنراله العجوز وتراجع إلى الخلف. دوت الطبول بسرعة ثم سكتت فجأة. هوت السكين علىٰ رأس الأسير ففصلته عن جسده بشدة.

حمل الجلاد الرأس من الشعر وطاف به حول المقصلة كي يراها الجميع ليكون عبره ودرسًا لكل من تحدثه نفسه بالانضمام إلى المتمرد علي ورجاله.

بعد هٰذا الاحتفال، قرأ علينا كابتن الأوامر الصادرة من الحاكم بمنع خروج المساجين إلى الغابة للعمل فيها لمدة ثلاثة أيام، حتىٰ تتم مطاردة المتمرد علي بقوات أرسلها حاكم الجزيرة علىٰ أمل القضاء عليه وعلىٰ عصابته. أمرونا بالعودة كل إلىٰ سجنه، وعلىٰ غير العادة أحضروا لنا طعامًا ضمن الزنزانة.

انقضت الأيام الثلاثة ببطء شديد وقد حاولت جاهدًا أن أفتح القفل الحديدي لأحذر إبراهيم ورشيد. ولٰكن للأسف استعصىٰ علي الأمر لعدم وجود قطعة معدنية. في اليوم الرابع فتحت أبواب الزنزانة حيث أمرونا بالخروج إلى الساحة، كان الجميع واقفين بانتظام انضممنا إلى الصف الأخير، ثم أمرونا بالسير نحو الباب الكبير الرئيسي في القلعة. وقف عدد من الجنود علىٰ جانبي الباب مهمتهم وضع سلسة حديدية طويلة تربط ما بين الساقين بحيث تمنع الركض بسرعة مع إحداث صلصله عالية تنبه الحراس إذا حاول أي سجين الهرب.

جاء دوري وأخذت نصيبي من القيد، ثم مشيت وراء رفاقي وكان مراد خلفي تمامًا مشينا بصف طويل نجرجر سلاسلنا التي تصدر صليلًا عاليًا. دخلنا في طريق ضيق يخترق الغابة الكثيفة لمسافة جد طويلة وقد وصلنا بعد سير متعب إلىٰ فسحة كبيرة ضمن الغابة يتوسطها بناء خشبي كبير.



أوقفونا في دائرة كبيرة وبدءوا بتوزيع أدوات قطع الأخشاب على المساجين من مناشير متعددة الأشكال وغيرها من عدد وأدوات لم أشاهد مثلها من قبل. جاء دوري حيث أعطوني ساطورًا قصيرًا ثقيلًا ومثله إلىٰ رفيقي مراد. وبما أننا من المساجين الجدد ونجهل طرق العمل فقد ضمونا إلىٰ فئة حاملي السواطير والمناجل لكي نتعلم منهم قطع الأغصان عن الأشجار المقطوعة. دخل فريق كبير من المساجين إلىٰ داخل الغابة يحفهم الحراس بحرابهم وبنادقهم الجاهزة لقتل كل من تحدث نفسه بالهرب، حيث بدءوا بقطع الأشجار ذات قياس واحد معلمه من قبل.

هوت أول شجرة وبدأنا باستعمال السواطير والمناجل في قطع الأغصان وتنظيف الشجرة من أغصانها، وبما أن هٰذا العمل من اليسير تعلمه فقد أصبحت ومراد من أمهر تنظيمي الأشجار. كانت أول شجرة تنظف تسحب بواسطة حبال غليظة يجرها عدد من الرجال والبغال إلى الساحة الكبيرة حيث جماعة التقطيع تحولها إلىٰ أخشاب منتظمة صالحة للبناء والٱستعمال في صناعة النجارة. شعرت بضيق شديد مع ألم خفيف من السلسلة والطوق الحديدي في قدمي، كانت الدماء تخرج من ساقي فكان الطبيب المرافق يعالج كل حالة بسرعة كبيرة. توالت الأيام متشابهة وكنا نعرف أسماء أيام الأسبوع من يوم الأحد المخصص للعطلة والٱغتسال في حمام جماعي تظهر فيه العورات. وكان الحلاق العسكري الأسود يتولىٰ ما طال من شعورنا ولحانا حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ أية شعرة. كنا ننظر بعضنا بعضًا ونستغرق في الضحك من أشكال رؤوسنا كأنها اليقطين.

في أحد أيام العمل في الغابة عثرت علىٰ مسمار حديدي بقرب البيت الخشبي، خبأته في حزام سروالي القطني حيث دخلت به إلى الزنزانة.

خاطبت إبراهيم ورشيد. قلت: ما رأيكم لو فتحت لكم الأقفال من أقدامكم؟ ضحك إبراهيم بيأس وقال: هٰذا حلم يا أخي، لن يفكوا قيدي إلا بعد مرور وقت طويل وحتىٰ أثبت لهم بأني لن أحاول الهروب والألتحاق بالمجاهد علي مرة أخرىٰ.

سأفك قيدك وقيد رشيد حتىٰ تتحركوا بحرية ثم أعيدوها عند حضور الجنود. اتفقنا.

اتفقنا ولن نخبرهم الحقيقة إذا عرفوا بفتح الأقفال ولو قطعوا رؤوسنا على المقصلة. بدأت المحاولة للسيطرة على القفل بواسطة مسماري، كانت الأقفال من النوع القديم جدًا ولٰكن الصدأ هو العائق الحقيقي.

طالت المحاولة كثيرًا بدون نتيجة، لذا بدأت بدراسة حركات القفل بهدوء ودويه، استطعت اكتشاف عمل آلية القفل البسيطة جدًا ولٰكن متينة وقوية. لذا حفظت عدد حركات القفل وإلىٰ أي جهة تكون الحركة الأخيرة يفتح القفل علىٰ أثرها، وقد كان إبراهيم يمد قدميه علىٰ أخرها بشكل مضحك.

نجحت أخيرًا بعد ساعات طويلة من العناء يجعل القفل يستجيب لحركاتي وقد حررت إبراهيم الذي لم يصدق حتىٰ وقف علىٰ قدميه وبدأ يقفز إلىٰ أعلىٰ كالمجانين. ثم أتبعته برشيد الذي انضم إلىٰ إبراهيم بالقفز غير مصدقين حتىٰ حل بهم التعب. وجهت لهم سؤالي إلى الاثنين قائلًا: الآن أخبروني كيف أستطيع الهروب والانضمام إلى المجاهد علي؟ أنتم تعرفون مكان العمل بدقة. إلىٰ أي جهة من الغابة يجب أن أدخل؟ وهل أختبئ أم أركض؟ قال رشيد سأعلمك: ولٰكن كن حذرًا لا تدعهم يقبضوا عليك أبدًا، أنت تعرف المصير ها نحن أمامك بسبب عدم الأخذ بالحيطة والسرعة في الركض. ثم فرش القش أمامه ورسم

الساحة الكبيرة وطريق الغابة للداخل أثناء قطع الأشجار. قال: أنتبه فرحان. مراد

إذا هربت فادخل بين الأشجار التي علىٰ يمين البيت الخشبي وأركض بكل قوتك ولا تلتفت إلىٰ خلفك أبدًا بعد نصف ساعة من الركض السريع غير أتجاهك إلىٰ يسارك وستجد بحيرة صغيرة من الماء. أختبئ بين الشجيرات ولا تخف لأن الجنود لن يجرءوا على اللحاق بكم لأكثر من عشرة دقائق ثم يعودون أدراجهم، أنتظر حتىٰ يأتي بعض المجاهدين الذين يرصدون كل حركة في معسكر الإشغال والقلعة.

إنهم موجودون دائمًا وسيأخذونك إلىٰ معسكرهم. سألته إذا كنت تعرف يا أخ رشيد خريطة الجزيرة فاشرح لي جغرافيتها حتىٰ أكون علىٰ معرفة نظرية على الأقل؟ أجابني: نحن لا نعرف أكثر من ذلك. أما فشلنا في الهرب فكان بسبب السلسة التي أعاقتنا عن الركض إضافة لصوتها العالي كجرس الإنذار. ضربت كتف مراد وقلت: أبشر بالفرج يا أخي مراد، أعدك بأنا سنهرب قريبًا إن شاء الله. قال متحدًا: وباقي رفاقنا. هل نتركهم يتحملون العقاب من العجوز المجنون جزاء هروبنا؟

قلت: يا أخي مراد توكل علىٰ الله وأترك الأمر للقدر، وعسىٰ أن يأتينا الفرج منه برحمته وإحسانه. دعنىٰ نصلي ونخلص الدعاء إلىٰ الله ليحسن خلاصنا.

كانت المعارك بين المجاهد علي وحرس القلعة تأتي علىٰ غير موعد محدد، فكنا نسمع صوت المعركة من بعيد. وفي كل مرة يسقط من الجنود بعض القتلىٰ والجرحىٰ، كان الغضب من العجوز يتجاوز الحد فينصب العقاب على الجميع حتى الجنود كانوا ينالون نصيبهم من التقريع الشديد ووضع بعضهم في السجن بتهم الجبن في المعركة.

كان العمل يتوقف ثلاثة أيام علىٰ أثر كل معركة مع المتمرد علي.

تنتهي خلالها المطاردة العقيمة، أما من يقع في الأسر من الثوار وخصوصًا الجرحىٰ فعقابهم قطع الرأس بالمقصلة لذا كان الثوار حريصين جدًا علىٰ عدم ترك أي جريح وراءهم إلا في حالة الضرورة القصوىٰ خوف وقوعهم في كمين أو عدم تكافؤ القوى الكبير.

في إحدى المعارك الليلية خطفوا الكابتن الطبيب ومعاونه مع أدويتهم، ثم أعادوهم بعد عشرين يومًا. كانت محاولات الهرب بين السجناء تتوالىٰ، كان بعضهم يختفي وبعضهم الآخر يقبض عليه الجنود ليوضع في زنزانة التأديب كمثل إبراهيم ورشيد ولكن عددهم قليل جدًا بسبب تهاون الجنود وخوفهم من التوغل في الغابة.

بدأت التخطيط للهرب بدراسة مسالك الغابة وثغراتها الضيقة والكبيرة فكنت أجر الجذوع المقطوعة متطوعًا بعد ٱنتهاء عملي من تجريد الأغصان من الجذوع كانت عيني تلاحظ كل شلمة بين الأشجار صالحة للركض والٱختباء، أما الساحة فلم أترك أصغر التفاصيل عن جغرافيتها إلا وحفظتها. كنت ألقن معلوماتي إلىٰ مراد ليطابقها علىٰ معلوماته حيث نرسم مخطط المكان على الأرض ونطابق ما حفظنا على المخطط.

كان إبراهيم ورشيد يشيرون لنا إلى المنافذ الأسهل والأقل خطورة حتىٰ أصبح المكان راسخًا ومطبوعًا في ذاكرتنا وفي أحلك ليالي الظلام نهتدي إلىٰ غايتنا أما وقد ٱنتهينا من دراسة المكان فقد بدأت أدرس نقاط الضعف والقوة في ٱنتشار الحراس، وأي الأماكن يضرون للانتشار فتضعف الحراسة، وكم عدد الحراس وجنسياتهم، ومدىٰ تحمسهم للخدمة بإخلاص. حتىٰ أصبحت الخطة واضحة في مخيلتي.

شرحت لمراد دراستي عن كل شيء حتىٰ أدق التفاصيل، وقد فاجأني بمعرفته لكل تفاصيل الغابة ونقاط الضعف والقوة وأمكنة

الهرب الجماعي، إذ إنه سبقني في هٰذِه المكرمة. أما وكل هٰذِه الدراسات الطويلة والعناء، كل ذلك اعتمادًا على المسمار العتيد المخبأ في حزام سروالي بعناية فائقة.

واصلت التدريب علىٰ فتح أقفال رشيد وإبراهيم، فكنت أغلقهما وأفتحهما حتى اختصرت زمن فتح القفل الواحد إلىٰ بضع حركات لا تتعدىٰ جزء من الدقيقة الواحدة وبما أن كل الأقفال المستخدمة في السجن من نوع واحد، فقد سهل ذلك مهمتي. ثم حاولت كتجربة أولىٰ أن أفتح قفل مراد أثناء العمل في الغابة، فكان النجاح هائلًا. ثم فتحت قيدي في ثلاثة حركات سريعة وأعدت إغلاقه فورًا. شرحت خطتي لمراد لإبلاغها إلى الأخوة ولكن علىٰ أن لا يبلغهم بأننا سنقوم بفتح أقفال القيود في أقدامهم، ولكن طلبت منه أن يبلغهم بطلبي بأن يجتمعوا معًا وفي مكان واحد متىٰ بدأ المطر ينهمل في الغابة.

إنَّ مَنْ لم يعرف غزارة أمطار الغابة الاستوائية فأنه لا يمكن أن يتصور الغزارة الشديدة بحيث تعيق عمل أي شيء وتحجب الرؤيا لمسافة قريبة جدًا. لذلك شرحت لمراد أنها حين تمطر ويتوقف العمل كما هي العادة حيث يركض الجميع إلى اللجوء تحت الأشجار الكثيفة للحماية من تدفق المياه.

في تلك اللحظة سأفتح قيود الجميع ولكن علىٰ مراد أن يشرح لهم طريق الهروب ووجهتها وأن يتقدمهم ليقودهم خوفًا من أن لا يستوعب أحدهم الخطة. أخطر مراد الأخوة بخطتي، أما أنا فسأتبعكم مباشرة فلا تخافوا وأرجوا أن تتجمعوا في مكان ضيق أثناء هطول الأمطار، هكذا طلبت من مراد أن يبلغهم. بعد فترة قصيرة وأثناء العمل في الغابة داهمتنا عاصفة ممطرة شديدة جدًا بحيث كان الماء يتساقط بخيوط متواصلة يحجب الرؤيا عن بعد مترين أو ثلاثة. تجمع المساجين وهم

يتمسكون ببعضهم البعض تحت أقرب الأشجار إليهم.

أما الجنود فقد أحاطونا والمطر ينهمر عليهم خوفًا من قيام أحد من الرجال بالهرب. قفزت وسط الحشد الصغير الذي يجمع رفاقنا.،ثم أخرجت مسماري وبدأت العمل آمرًا بأن لا يتحرك أي واحد منهم حتىٰ أنتهي من تحرير الجميع.

لم يستغرق فك القيود أكثر من ربع ساعة تقريبًا وكان أخرهم مراد، أشرت بيدي أن ٱستعدوا لأن الحراس ٱطمأنوا وبدأوا يحتمون تحت الأشجار علىٰ بعد أمتار من المساجين، وقد تركوا ثغرة كبيرة أمامنا مباشرًة فتحت قيدي بهدوء ثم ضربت كتف مراد ودفعته باتجاه الثغرة

انطلق كالسهم بين الأشجار الكثيفة،لم ينتبه الجنود لعدم وضوح الرؤيا ولأن السلسلة لم تصدر صوتًا ينبههم. لأبي حركة تصدر عن المساجين، دفعت ثلاثة آخرين فلحقوا بمراد، تيقنت أن الخطورة قليلة فدفعت باقي الرفاق دفعة واحدة مما أحدث ضجة لاصطدام بعض الرجال بأغصان الأشجار من شدة سرعتهم في الركض.

انتبه الجنود علىٰ مفاجأة كاملة لم يألفوا مثلها من قبل، فقد جرت العادة أن يهرب سجين أو ٱثنين وغالبًا ما يعودون بواحد منهم، أما الهروب الجماعي وبدون قيود تعيقهم فهٰذا مما أدهشهم وأوقعهم في ٱرتباك كبير أخرهم عن رد الفعل بدأ صراخ الجنود على الهاربين ثم بدأوا بإطلاق نيران بنادقهم علىٰ أثرهم. وبما أن الجنود يخافون من التوغل في الغابة تحسبًا من مفاجأة جماعة المجاهد علي فقد أداروا وجوههم إلىٰ جهة الهروب وبدأوا بإطلاق نيرانهم وقد سدوا بذلك علي طريق الهروب، لم تكن أمامي فرصة اللحاق بهم. ولكن فتح أمامي باب الهرب بالاتجاه المعاكس بسهولة، فقفزت بين الأشجار وركضت حتىٰ لم أستطيع التنفس. أما المطر فلا يزال ينهمر بشدة، إنهم لم يشعروا

بهروبي مطلقًا. قعدت القرفصاء تحت شجرة كبيرة جدًا فكانت كأنها مظلة لا يخترقها الماء وكنت ميلًا حتى العظام.

بدأت مناظر الهروب الكبير تعود إلىٰ ذاكرتي وكأنها صورة حقيقية. آه! هٰذِه أول مرة يحدث فيها هروب جماعي بهٰذا العدد. ورغم خوفي وتعبي فقد بدأت أتخيل الجنرال العجوز وهو يصرخ ويضرب الجنود وقد تهدل شاربيه ونفش شعره الأبيض كالمجانين، يالفرحي بمصيبة هٰذا المجنون إن ما قمت به هو أحسن أنتقام من هٰذا الخنزير صاحب فرنسا المنتصرة وكأنها لازمة يرددها بمناسبة وبدون مناسبة قلت لنفسي بصوت سمعته أذني: يلعن أبوه وأبو فرنسا المنتصرة، يضرب هو وفرنسا. إن شاء الله سينتقم منه حاكم الجزيرة ويعاقبه عقابًا شديدًا ، ومن المحتمل أن يطرده من الخدمة في الجيش هٰذا الخنزير الحاقد.

استمر هطول الأمطار لساعات طويلة حتىٰ خيم الظلام الحالك وبدأ الخوف يتسرب إلىٰ نفسي قليلًا قليلًا حتىٰ كدت أصاب بالرعب، لجأت إلىٰ قراءة ما أعرفه من القرآن حتىٰ عاد الهدوء والسكينة إلىٰ نفسي. فكرت لأول مرة في موقفي. هٰذِه أول مرة أحدث نفسي وحيدًا بلباس السجناء، مجردًا من كل وسائل الدفاع عن النفس إذا ألم بي طارئ من وحش وغيره.

استلقيت علىٰ جنبي لأغير وضعتي فشعرت بشيء ثقيل في جانبي الأيمن تحسست بيدي لأزيح ما أوجعني وقد ظننت أن حجرة تضغط علىٰ خاصرتي. يالفرحتي وكأني وجدت كنزًا. إنه الساطور مدسوسًا بحزامي بقوة جعلته يثبت بعد هٰذِه المسافة الطويلة التي قطعتها ركضًا ، إذ كان المفروض أن يسقط مني. آه الحمد لله على الأقل معي سلاح أدفع به عن نفسي وله منافع أخرىٰ.

توقفت الأمطار فجأة كما هطلت، حدثت نفسي ولكن سرًا خوف

ٱكتشاف مكمني: يا فرحان راحت السكرة. أين جماعتك؟ وأين علي وجماعته؟ لا حس ولا أنس.

إلا أصوات الحيوانات، أين أذهب؟ وكيف أنام؟ يا ترىٰ هل سيبحثون عني؟ أو أبحث عنهم؟ هل عرفوا أني هربت؟ أسئلة لا جواب لها عندي.

شعرت بالتعب والإرهاق. ماذا أصنع؟ يجب أن أنام ولٰكن أين؟. مددت يدي أتحسس الشجرة الضخمة، كيف أصعد إلىٰ أعلاها لأنام؟ أصابني اليأس.

لجأت إلىٰ الله أدعوه الهدىٰ من هٰذا الضياع والخوف، وقرأت كل ما أعرفه من القرآن مرة أخرىٰ.

عادت بي الذكرىٰ وأنا في هٰذِه الشدة إلىٰ شيخ حارتنا عندما كان يلقي بعض دروسه في المسجد بأنه يصيبك إلا ما كتبه الله لك، وأنه لو ٱجتمعت الأنس والجن علىٰ أن يضروك فلن يستطيعوا.

قلت: يا فرحان واجه مصيرك بشجاعة وتوكل علىٰ الله الذي سيحميك من كل شر.

نمت نومًا عميقًا بدون إرادتي حتى ٱستيقظت علىٰ شعاع الشمس المتسرب من بين أغصان الشجرة. نظرت حولي لأتعرف مكاني وموقفي، فلم أرىٰ إلا غابة كثيفة، وكانت بقع المياه تغطي الأرض علىٰ شكل بحيرات صغيرة. شعرت بالجوع ولٰكن أين الطعام؟ إذًا أملي الوحيد أن يعثر علي جماعة المجاهد علي، مشيت في نفس الاتجاه الذي ركضت فيه أثناء هروبي. خوفًا من العودة إلىٰ معسكر العمل وقد توغلت أكثر وأكثر في الغابة بحثًا عن الطعام.

صادفتني ساقية تجري مياهها الصافية، شربت حتى ٱرتويت ثم تابعت المسير حتىٰ تعبت فأويت إلىٰ ظل شجرة، وتمددت لأستريح.

فجأة سقطت جوزة كبيرة إلىٰ جانبي، نظرت إلىٰ أعلى الشجرة وإذ بقرد كبير ينظر إلي، وقد أمسك بجوزة كبيرة قطفها من الشجرة ثم رماني بها فهوت إلىٰ جانبي. أمسكت الساطور وضربت الجوزة بشدة فانفلقت نصفين بعد عدة ضربات. قرقر القرد في الأعلىٰ، نظرت إليه وإذا به قد فتح جوزة وبدأ يغرف منها ويأكل.

مددت يدي وبدأت الأكل بسم الله. سبحان الله العظيم ما هٰذا الطعام الطيب، وكأنه مزيج من العسل والسمن. جوزة واحدة كافية لإشباع جائع مثلي وقد أتيت عليها ومسحتها.

حملت معي جوزتين للمؤنة وتابعت المسير، ولما كانت الأشجار التي حولي كلها من هٰذا النوع ومنتشرة بكثرة ويتساقط منها كثير من الجوز، قد رميت حملي لعدم لزومه.

قلت أرتاح حين أتعب وآكل من مائدة الجوز عند الجوع. أما الماء فقد ٱمتلأت الغابة بالسواقي والينابيع العذبة. مضى النهار الأول وحل الظلام، حيث صعدت إلىٰ شجرة كثيفة الأغصان وثبت جسمي بقوة بين مجموعة من الأغصان الكبيرة في لأعلىٰ. ثم ٱستغرقت بالنوم مطمئنًا.

لم أشاهد أثناء سيري في الغابة من الحيوانات إلا القردة وبعض الضباع. وكنت أخاف أن يصادفني أحد الأسود أو النمور ولٰكن سلم الله القدير.

حافظت علىٰ مسيري باتجاه واحد لأيام عديدة لا أعرف كم عددها. ذلك بأن الزمن وعدد الأيام ليست لها قيمة أو معنىٰ في نظر المحكوم عليه بالأشغال المؤبدة.

تمتعت بلذة الحرية التي فقدتها بتاريخ دخولي في الجيش. تمزقت ثيابي بسبب ٱحتكاكي بأغصان الأشجار، فخلعت بذلتي اللعينة واغتسلت في إحدى السواقي الغزيرة بحرية كاملة.

كانت القرود أحيانًا، فتصدر صوت القرقرة وكأنها تضحك من هٰذا الغريب. وطالت لحيتي وشعري بحيث تدلىٰ شعر رأسي حتىٰ أصبح قريبًا من أذني.

لم أغير ٱتجاه سيري ثقة مني بأنه لا بد من نهاية لهٰذِه الغابة، وقد كان ذلك بعد أن ٱنفرج الدغل عن سهل واسع فسيح مزروع بقصب السكر يحده البحر في آخره.

أمعنت النظر في جميع الٱتجاهات فلم أر أحدًا ولمحت تلة صغيرة قريبة من البحر يعلوها كوخ خشبي. أسرعت باتجاه الكوخ مخترقًا حقل القصب في أقرب نقطة إليه حتىٰ وصلت إلىٰ الكوخ متسللًا بهدوء وخوفي من أن أجد أحدًا.

تلصصت بحذر فلم أجد أحدًا لقد كان فارغًا وبابه مفتوحًا قليلًا فدخلت بسرعة شاهرًا ساطوري.

فلم أجد شيئًا. فتشت عن الطعام أو اللباس فلم أعثر إلا علىٰ بندقية صيد مع حزام الذخيرة معلقة على الجدار فاستوليت على البندقية وتمنطقت بالحزام بعد أن لقمتها طلقتين.

فتحت خزانة صغيرة مليئة بالملابس وأخذت سروالًا وقميصًا وقبعة مستديرة كأنها طبق. ثم أبدلت ثياب السجن الممزقة بألبسة جديدة وغادرت الكوخ خوفًا من قدوم صاحبه.

مشيت بمحاذاة الشاطئ حيث دفنت بذلة العار؛ ولن يتعرف علي أحد بعد الآن. صحيح بأن منظري يوحي بأني هارب ولكن المهم أني تخلصت من شعار السجين المعروف في كل أنحاء الجزيرة.

كان قصب السكر الغذاء اللذيذ الذي أقتات به. فكنت أقطع بساطوري القصب وأتسلىٰ بمصه بدلًا عن الطعام والماء. داهمني الليل وأنا أسير علىٰ غير هدي ولكن في محاذاة شاطئ البحر وحقل القصب.

ٱستلقيت لأقضي ليلتي مختفيًا في الحقل حتىٰ أشرقت الشمس ساطعة حارة.

تابعت المسير علىٰ غير هدي إلا شاطئ البحر. وكنت ألجأ إلىٰ حقل القصب كلما ٱشتد علي الحر لأتقي في ظله الرطب من الشمس.

طال مسيري وقد أخذني التعب والجوع حتىٰ تمنيت أن أعود إلى الغابة فهي آمنة على الأقل من البشر، وكنت أحدث نفسي بالعودة إليها.

لمحت من بعيد صيادين أسودين يسحبان قاربهما المزدوج إلى البر. ٱختبأت لأراقبهم وقد حمل أحدهما سلة كبيرة وغادر بينما بقي الآخر يعتني بالشبكة ويطويها.

هيأت بندقيتي واقتربت منهم متمهلًا. نظر إلي نظرة عابرة وعاد إلىٰ عمله وكأنه لم يستغرب وجودي ولما أصبحت علىٰ مقربة منه كلمني بلغة لم أسمع مثلها من قبل. ولما لم يتلق جوابًا التفت إلي وقد عقد لسانه من الخوف وبدأ يتراجع إلى الخلف زاحفًا علىٰ رمل الشاطئ ثم رفع كفيه وكأنه يدفع بهما شيطانًا أو شبحًا. أشرت إليه بأن يتوقف وكلمته بالفرنسية أن لا تخف فأنا رجل مثلك هدأ قليلًا وكلمني بفرنسية مكسرة. قال: من أنت؟ وماذا تريد مني؟ هل أنت إنسان مثلي؟ لا تقتلني أرجوك. ضحكت من منظره العجيب ومن قلة عقله.

وأجبته: أنا إنسان مثلك لا تخف وسألته أين قريتك؟ فأشار إلى الجهة التي ذهب منها رفيقه. سألت معك طعام؟ أجاب: بالنفي وجهت بندقيتي نحوه وقلت: أتريد أن تموت؟

فأشار بيده الأثنين نافيًا وقال أبدًا لا أريد. إذًا أدفع القارب في الماء. أطاعني وساعدته بالدفع حتىٰ دخل القارب في الماء.

أشرت إلىٰ جزيرة صغيرة بعيدة جدًا. ما هٰذا هناك؟ أجابني ولا يزال الخوف يملأ عينيه قال: جزيرة صغيرة يسكنها المتوحشون. إذًا

أوصلني إليها في قاربك هٰذا وإلا أطلقت عليك بندقيتي ثم أخذ القارب، موافق أم أقتلك؟ ردد: موافق موافق، ٱركب.

جلست مقابلًا له، حيث بدأ التجديف بسرعة باتجاه الجزيرة البعيدة وقدرت أن لا نصل إليها قبل صباح اليوم التالي، لذلك طلبت منه قبل الإبحار أن يتزود بالماء وبعض قصب السكر للطعام.

بعد فترة طويلة وقبل أن تغيب الشمس توقف من شدة التعب. قلت له هل معك حبل قال نعم وأخرجه من تحت مقعده وناولني اللفافة. أمرته أن يدير ظهره ويديه إلىٰ ظهره، فأطاع المسكين.

ربطته بمتانه وقوة من قدميه ويديه ثم أوثقته في القارب بحيث لا يستطيع الحركة، ثم أخذت المجاديف وبدأت العمل محافظًا على الاتجاه حتىٰ تعبت. تفقدت رباط الرجل جيدًا ثم ٱستلقيت للراحة والنوم وأمرته أن ينام حتىٰ يستعيد نشاطه في الصباح.

بدأ القارب يتأرجح حرًا، وقد نام الرجل وبدأ شخيره يعلو من التعب والخوف. ولما تيقنت أنه نام، أخذتني سنة من النوم المضطرب.

أيقظني ٱرتطام الموج بالقارب بشدة فأفقت مذعورًا وحملت بندقيتي ووجهتها نحو الرجل بسرعة وإذ بالمسكين يبكي بصوت مسموع، قلت بنبرة شديدة: ما بك يا رجل هل أنت ٱمرأة؟ وما كنت أراه إلا كالشبح في الظلام. أجابني: إذا لم نصل الجزيرة في الصباح فسنغرق لأن العاصفة قادمة.

حررته من القيد وجلست بجانبه وبدأت أساعده بالتجديف بقوة وسرعة وكان ٱتجاه الريح يدفعنا بقوة نحو الجزيرة، بحيث أن مقدمة القارب كانت تشق المياه وتضربها بقوة حتىٰ خشيت أن يتحطم.

بدأت خيوط الفجر تظهر في الأفق مما كشف لي قليلًا عن مياه البحر من حولنا وهي تضطرب وقد علا الموج المخيف من حولنا.

اقتربت الجزيرة جدًا مع بزوغ قرص الشمس الأحمر حتىٰ أصبحنا قريبًا من الشاطئ الرملي الأحمر الناعم. دفعتنا موجه كبيرة كأنها تل من المياه إلى الساحل فقذفتنا على الرمال حتىٰ ظننت أنها رافقتنا في الهواء ثم ألقت بنا على البر بشدة حيث غاص مقدم القارب في الأرض.

قفزتُ حاملًا بندقيتي وٱستلقيت علىٰ ظهري وأنا لا أصدق بأني وصلت سالمًا ، وأما المسكين لقد بقىٰ في قاربه خائفًا أن أقتله بعد نفذ ما أردت. كلمته ببطء حتىٰ يفهم حيث شكرته علىٰ مساعدتي ، وقلت: إن بإمكانه أن يعود متىٰ أراد فتبسم بخوف وكأنه غير مصدق ونزل من القارب وٱستلقىٰ على الرمال قريبًا مني حتىٰ عادت له قوته.

أخرج من القارب صفيحة المياه حيث شربنا ما بقي منها ، وأفهمني بأنه سيملأها بالماء لرحلة العودة. سألتُه : أين الماء؟ أشار إلى الدغل القريب وٱتجه مسرعًا.

لحقته حتى الجدول الصغير الذي يتساقط من أعلى الصخور المكسوة بالأشجار حيث كان الماء يصب في البحر. فشرب الرجل وشربت حتى ٱرتويت. جلسنا نمص القصب بانتظار هدوء العاصفة القوية حتىٰ يعود إلىٰ جزيرته. ودامت العاصفة إلى اليوم التالي مع سقوط أمطار غزيرة مما دفعنا إلى الاحتماء بكهف بجانب مسقط مياه الجدول.

في صباح اليوم التالي ودعتُه مصافحًا ، وقد عثرتُ في جيب السترة علىٰ بعضِ النقود فوضعتهم في كفه ثم ربت علىٰ ظهره شاكرًا إياه مع تأكيدي عليه لأن يكتم ما جرىٰ معه ولا يذكرني أبدًا. قلت له ذلك بلهجة مهدده. بأن إفشاء السر يؤدي إلى الموت.

اتجهتُ إلى الغابة القريبة علىٰ أمل أن أجد ما أقتات به ، وقد عضني الجوع. التقط أول جوزة وجدتها ثم كسرتها وأكلتُ ما فيها.

توغلت قليلًا في الغابة وقد سحرني جمالها وخصوصًا الطيور الملونة ذات الصوت الجميل وبأشكال متعددة من الكبير والصغير، أما ألوانها فشيء عجيب فسبحان الله أحسن الخالقين.

وصلت إلىٰ ساحة كبيرة وفي منتصفها بحيرة تتغذىٰ من شلال يتدفق من أعلىٰ جبل مرتفع تكسوه الأشجار والأزهار. إنها جنة صغيرة.

قررت أن أجعل هٰذا المكان بيتي حتىٰ يأتي الله الفرج. خاطبت نفسي بصوت مرتفع: يا فرحان هٰذا بقدر الله ولطفه فله الحمد والشكر.

اغتسلت في البحيرة وفركت جلدي بأوراق النباتات لأتخلص من الأوساخ التي كست جلدي، خرجت بعدها نظيفًا كمن دخل الحمام.

بدأت بالصلاة والدعاء بأن يفرج الله كربي ومحنتي، وعلىٰ كل حال فمقامي هنا أفضل من السجن والشغل لهٰؤلاء الكفار. مضت أيام ثم تلتها أشهر وأنا علىٰ حالي، وكان برنامجي ثابت. حيث أذهب إلىٰ ساحل البحر عسىٰ أن أرىٰ سفينة أو بشرًا، ولا أنكر أني كنت سعيد بمعيشتي. وقد تنوع طعامي بما أجده من بيض السلاحف المطمور في الرمال، وقد تعلمت اصطياد السمك من البحر، ومن البحيرة ولا أعرف أيها أطيب.

خلعت ثيابي المسروقة خوفًا عليهم من التلف، وبقيت شبه عار. وكان عندي شعور خفي أن هناك من يراقبني. وقد بحثت حول البحيرة فلم أجد أحدًا.

في أحد الأيام وقد نمت علىٰ صخرة بجانب البحيرة كنت فرشتها بأوراق الشجر الطري لتكون فراشًا مريحًا. شعرت بأنفاس تترد قريبة مني، ففتحت عيوني قليلًا، لأرىٰ عددًا من الرجال شبه العراة يحملون حرابًا وقد صبغوا وجوههم باللون الأحمر وقد تحلقوا حولي يتفرجون علي بتعجب، وكأنهم يستغربون هٰذا الحيوان الشبيه بهم. لم ألاحظ

علىٰ وجوههم العداء فجلست فجأة حيث أجفلوا ومدوا رماحهم نحوي. أشرت إليهم بأن يجلسوا، حرصت أن لا ألامس البندقية ولا الساطور، وإنما فتحت يداي عن أخرهم وضممتهم إلىٰ صدري مع إحناء رأسي.

اطمأنوا ثم ٱفترشوا الأرض يحيطون بي، ثم مد أحدهم يده وجسني في أنحاء عديدة من جسمي ثم أمسك لحيتي الكثيفة وشدها قليلًا ثم تركها، وقد لاحظت أنهم بلا لحىٰ ولا شارب.

تكلموا معي بإشارات فلم أفهم مرادهم. تكلموا مع بعضهم بأصوات كأنها طقطقة خشب يابس قذف في النار، وقد طالت محادثاتهم الجماعية حتى ٱتفقوا حسب ظني، أشاروا لي بأن أرافقهم، فحملت بندقيتي وساطوري ومشيت بينهم والغريب أني لم أشعر بالخوف، بل فرحت جدًا، لوجود بشرًا أكلمهم وأستأنس بهم ولو كانوا متوحشين، ولكن الذي ضايقني أثناء المسير هو عريي الكامل إلا من بعض الأوراق أستر بهم عورتي، إذ لم يتركوا لي فرصة لأستر نفسي في ثيابي.

دام المسير قدر ساعتين بين الأدغال الكثيفة التي لا يمكن معرفة الطرق خلافها إلا لخبير متمرس بالتجربة، وإلا فإن الضياع نصيب من يدخلها علىٰ جهل.

أخيرًا وصلنا إلىٰ نهر سريع الجريان في واد ضيق سحيق، وكان جسرًا من ليف الشجر يصل بين الضفين.

مشينا متتابعين بهدوء ٱجتزنا الجسر دخلنا في غابة أخرىٰ فترة ليست بالقصيرة حيث ٱنفرج الدغل ساحة خضراء ذات أشجار كبيرة من الدلب. مزروعة بالأكواخ الدائرية الشكل، وكان الأطفال يركضون بإتجاهنا صائحين فرحين بعودة الرجال.

التفوا حولنا وهم ينظرون إلىٰ بخوف وتعجب حتىٰ وصلنا إلى القرية، حيث تحلق الرجال والنساء العراة إلا ما يستر العورة تحلقوا علىٰ شكل دائرة وقد جلس رجل من ذو هيبة ظاهرة يضع في رقبته العدد من الأطواق الخرزية علامة زعامته، وان يحف به عدد من الرجال بحرابهم.

لفتَ نظري قطع الأقمشة الملونة التي تستخدمها النساء لستر عوارتهن وأطواق حول رقابهن من الزجاج الملون تشبه أطواق الزعيم. من أين لهم هٰذِه الحضارة؟ قادوني أمام الزعيم حيث وقفت وأدوا إشارات تسألني من أنا، ومن أين أتيت؟ فأشرتُ لهم إلى الجزيرة الكبيرة وأني كنت سجينًا فهربت إلىٰ جزيرتهم.

قال أحدهم بلغة فرنسية ركيكة وكان يقف فوق رأسي الزعيم: هل أنت فرنسي؟ قلت: لا أنا غير فرنسي، أنا عربي مسلم، قال وأشار لهم بيده إشارات مع صوت يردد: إلياس سنيور إلياس. ثم أشار بإصبعيه علامة المساواة أو التشابه.

فهمت السر في الأقمشة والأطواق، إذا هناك تاجر ٱسمه إلياس عربي يأتي إليهم بحاجتهم، أشرت برأسي موافقًا وقلت إلياس وأشرت إلىٰ صدري علامة التشابه ضحك الأولاد واقتربوا مني مطمئنين وبدءوا بلمس البندقية.

أجلسني الزعيم بجانبه بينما تحلَّق الرجال والنساء بدائرة فرحين وبدأوا بالرقص للضيف حتىٰ تعبوا، ثم جاءوني بشراب وقدموه لي بجوزة هند فارغه، إذ كانوا يستعملون الجوز الفارغ أواني للطعام والشراب، فشربت وألخوف قد ركبني من أن يكون سامًا كان الشراب ذو طعم لذيذ بلون أصفر، وتكلم معي الشاب الذي سألني بالإسبانية سنيور ما ٱسمك. فرحان. فرحان. رددتها ليستوعب المنطق الصحيح وليفهم.

ردد الأسم إلى الزعيم ثم أشار لي أن يسألني من أين أتيت وماذا أريد، تكلمت مع هٰذا المتعلم عندهم وأخبرته أني هارب من السجن في الجزيرة الكبيرة (سان دومونيك). وقصصت له كل ما جرىٰ معي وقد أتعبني جدًا فهم القصة ثم بدأ ينقلها إلى الزعيم بلغته، طقطق الزعيم بصوت مرتفع وهو يكلم المترجم السيئ ثم أشار إلي.

قال المترجم: إن الزعيم يدعوك لتبقىٰ هنا في القرية حتىٰ حضور السنيور إلياس، فسألته: ومتىٰ يأتي سنيور ألياس.

أشار إلى السماء وعد بإصابعه ستة. فهمت أنه سيأتي بعد ستة أقمار. أستغربت من نفسي من أين أتاني هٰذا ألفهم في قراءة الإشارات، وفي هٰذِه الأثناء أحضرت النساء الطعام فوضعوه علىٰ مائدة مستديرة صنعت من القش أو القصب، بعد أيام علىٰ وجودي مع القبيلة تأكدت أن كل شيء مشترك بين الجميع، إذ أن الطعام كان يخرج من كوخ كبير بمعرفة أمرأة عجوز هي أم الزعيم حيث تناول النساء من داخل الكوخ في كل ما يأكل مواطني القرية.

كان الطعام مؤلفًا من الأسماك المقددة ولحم أحمر لم أستطع تمييزه بعد الشوي، أكلت من شدة الجوع رغم أن اللحم الأحمر ذو طعم كريه، أما السمك فلا زال محتفظًا برائحته، ولكن الجوع كافر يصنع العجائب.

أمر الزعيم النساء والرجال بإشارة من يده بعدًا أن طقطق بهم وطقطوا له، أطاع الجميع وانطلقوا يبنون كوخًا جديدًا بجانب كوخ الزعيم، حيث لم يستغرق العمل أكثر من أشار لي الزعيم بإصبعه ثم أشار إلى الكوخ، قال المترجم سينور هٰذا بيتك الذي أهداه الزعيم لك، نفذ إرادة الزعيم وادخل بسرعة.

شكرته بطريقتي حيث وضعت كفي علىٰ صدري وأحنيت رأسي ثم

دخلت إلىٰ بيتي الجديد وتمددت علىٰ فراشي الوثير، حيث دخلت في نوم عميق إذ علمت أني سأكون بسلام، لم أستيقظ إلا في صباح اليوم عل صوت الطبل فوق كوخي، فخرجت وبندقيت وساطوري معي متأهبًا للقتال.

تجمع جميع الرجال وحملوا سلاحهم وبدأوا بالرقص الحربي وقد صفوا وجوههم بالأحمر، بعد وقت قصير وصلت جماعة منهم وهم يحملون رجلًا ميتًا ينزف الدم من جروحه العميقة، كان الرجل أوربيًا بلباسه ولونه وشقرة شعره، وكانت السهام لا تزال مغروسة في عدة أماكن من جسمه.

جلست بجانب الزعيم مستعدًا لكل طارئ، فقد خفت أن يقتلوني ويجعلوني وليمة سهلة، فطن الزعيم لخوفي فكلم الشاب المترجم السيئ، الذي نقل لي بصعوبة أن الزعيم يقول إنك فرد من القبيلة فلا خوف عليك.

أشرتُ إلى القتيل وإلىٰ رقبتي، أجابني بالنفي وردَّد: سنيور إلياس. ووضع إصبعه في صدري تبسمت علامةً على الاطمئنان وطلبت من أن ينقل للزعيم شكري، ففعل حيث طقطق قليلًا، دام الاحتفال أغلب النهار، والميت ملقىٰ في منتصف الساحة.

حل المساء وقدموا الطعام فأكلت وشربت من الشراب الطيب اللذيذ الذي حذرني وقد عاد الرقص علىٰ ضوء المشاعل إلىٰ منتصف الليل.

دخلتُ كوخي وأنا أحمد الله علىٰ أنهم لم يقتلوني حين عثروا علي، وبدأ الشك بمصيري يعذبني، فلست أمنًا علىٰ نعشي بعد الذي رأيته.

لم أستطيع النوم حتىٰ هدأ الرقص وخلت الساحة إلا من بعض

رجل للحراسة، رأيت ذلك وأنا أتلصص من باب الكوخ المظلم.

استلقيت على الفراش وسلاحي بجانبي للطوارئ، وقد أخذ في نوم كل حسن فلم أشعر كيف غرقت في نوم عميق تخلله أحلام مرعبة.

طلع الصباح وقد أيقظني ضجة الأطفال وصياحهم وأصوات طقطقة النساء الناعمة، تحسست أعضائي لأطمئن أنهم لم يأكلوني، ثم مسحت وجهي ويدي تيممًا وصليت ثم خرجت بسلاحي إلى الساحة وناديت المترجم الذي لا يفارق بيت الزعيم ثم أفهمته أني لا أريد الاستحمام في النهر القريب.

أخذ لي الأذن علىٰ أن يرافقني، تكلم مع الرجال ثم قادني إلىٰ بحيرة صغيرة بجانب القرية فخلفت سروالي الذي لم ألبس غيره ورميت نفسي في البحيرة عاريًا، أما المترجم فقد خلو ما يستر عورته وهو ليس بالشيء الكثير ثم قذف نفسه إلىٰ جانبي وبدأ يدلك لي ظهري بورق شجرة كبيرة خشنة.

توقف عن تنظيفي واستدار بإتجاه الشجيرات وبدأ يعطي إشارات بيديه فخفت أن يكون قد تآمر علىٰ سلامتي وقبل أن أتصرف سمعت ضحكًا ناعمًا لفتيات يختبئن بين الشجيرات القصيرة المحيطة بالبحيرة، ثم ظهرن كالحبيبات قفزن إلى الماء عاريات تمامًا وأحطن بنا بدائرة وبدأن برشقن الماء علىٰ وجهي.

خجلت جدًا ولم أعرف كيف أتصرف في مثل هٰذِه الحالة، فحاولت الهرب فأحطن بي وأمسكن بي حيث ركبت إحدهن ظهري وبدأت بفرك وجهي وشد شعري بوحشية، استنجدت بمترجمي الذي لم أستطع نطق اسمه إلا بشكل مضحك، ولكنه تركني وغادر البحيرة وهو يضحك علىٰ من بعيد.

رفعت يدي مستسلمًا فتوقفن عن تعذيبي حيث بقيت التي ركبتني

ممسكة بيدي بود، وقد بدأت الفتيات، بالغناء الجميل وقد صنعن أكاليل من الزهور الكثيرة وعلقن واحدًا، برقبتي وآخر أكليلًا علىٰ رأس الفتاة.

ولطول عهدي بالنساء فقد أثارني الموقف جدًا، ولكن لم أتجرأ على القيام بأي تصرف يسيء للأدب، حيث لاحظت أن هٰؤلاء المتوحشين رغم عريهم قد التزموا بالمحافظة علىٰ نسائهم فلم ألاحظ منهم أي تصرف سيء يؤدي إلى الزنا أو الدعارة، جرتني صاحبتي لأخرج من الماء والفتيات يحطن بنا وهن يغنين، ولكن كيف أخرج من الماء، هنا الطامة الكبرىٰ لأن الماء يسترني، أما إذا خرجت معهم كيف أستر عورتي.

أشرت إلى المترجم وقد توقفت عن السير أن يقترب، اَقترب على الشاطئ قلت أريد الخروج من الماء، قال اَخرج وقد تأبط سروالي وابتعد قليلًا وهو يضحك، أشرت إلى الفتيات بالابتعاد فضحكن وخرجن من البحيرة كما خلقهنَّ الله، حيث اَختفين بين الشجيرات وبقيت صاحبتي ممكسة بيدي لم تغادر.

أشرت لها بعنف أن تلحق رفيقاتها، فتمنعت وأشارت إلىٰ صدري وصدرها، فهمت ولكن لم أتجرأ فعانقتني فأبعدتها وخرجت عاريًا ولحقت بمترجمي وخطفت منه سروالي ولبسته والضحك من الفتيات متواصل وهن يشرن إليَّ وإلىٰ منظري وحالتي، طبعًا كان هٰذا الأمر عاديًا عندهم.

أخذت سلاحي وعدت إلى القرية يتبعني الجميع وقد شبكت صاحبتي يدها بيدي رغمًا عني بعد أن سترت عورتها بقطعة القماش الملون.

دخلنا القرية علىٰ هٰذِه الحالة وقد دهشت من تجمع من في القرية

وخصوصًا النساء وبدأوا بالرقص، وقد خرج الزعيم وتصدر الاحتفال بعد أن توجونا تياجين من الزهور حيث أجلسني الزعيم بجانبه وتكلم مع صاحبتي التي التصقت بي بشدة وهي ممسكة يدي، دام الرقص طويلًا وحصر الطعام ذاق مع فواكه منوعة لم أر مثلها من قبل ولكنها لذيذة جدًا، وتابعوا الرقص والغناء وخصوصًا بعد عودة الرجال المحاربين يحملون صيدهم ومن ضمنها قرد كبير مما فسر لي اللحم الأحمر ذو الرائحة العفنة.

استأذنت الزعيم بعد تأخر الليل وقبل انتهاء الاحتفالات بالدخول إلىٰ كوخي فوافق وقام من علىٰ عرشه وأخذ بيدي ويد الفتاة ومشىٰ بيننا ثم أدخلها أولًا على الكوخ ثم دفعني براحة يده وراءها.

فهمت بلا ترجمة بأنهم قد زوجوني، وهٰذا حفل العرس وخطر لي أني الآن مطمئن بينهم إذ قد أصبحت من أهل البيت المدلل فلا خوف علىٰ بعد الآن.

ضممت عروسي العذراء وقلت يالله يا فرحان عيش اليوم وبكره يفرجها ربك، ولا أنكر أن عروسي أسعدتني بسعادة لم أر مثلها أبدًا من قبل.

وبما أني أصبحت واحدًا منهم فقد وجب عليَّ مشاركتهم في رحلات الصيد لإطعام عائلتي الرعية في القرية الإشتراكية.

قادتنا رحلاتنا إلى المرور في قري أخرىٰ فكانوا يستقبلونا بالرقص، وقد تبين لي مما رأيته أنهم لا يتحاربون أبدًا، إنما تعارفوا علىٰ حدود لمناطق صيدهم حيث كانوا يحترمونها بشكل مقدس، وقد حدث مرة أني أطلقت النار علىٰ غزال فقتلته في منقطة صيد قبيلة أخرىٰ فما كان من مرافقي الذين يحترمونني ويهابونني إلا أن حملوا الغزال وسلموه إلىٰ زعيم القبيلة الذي شكرهم وقدم لنا وليمة كبيرة.

كنا أحيانًا نصل إلىٰ شاطئ البحر ونصطاد سمكًا في أماكن متاخمة للغابة، حتىٰ إذا داهمهم خطر الغزاة الأوربيين، دخلوا الغابة.

مرت الأشهر الستة بسرعة وقد ظهرت بوادر الاستعداد لاستقبال المعلم إلياس في كل أنحاء الجزيرة حيث جمعوا كل ما عندهم من الجلود والطيور الجميلة وخامات الذهب، وأخيرًا وصل المعلم إلياس ووراءه قافلة من رجال القرىٰ يحملون صناديق الملونة، وقد عم الفرح أنحاء الجزيرة، أما النساء فهن المستفيدات أولًا وأخيرًا، إذ ليس للرجال أي زينة يشترونها.

استقبله الزعيم وزوجاته حيث صنعت صناديق البضاعة وتحلق حولها النساء والأطفال ولكن بأدب ونظام.

اقتربت من التاجر اللبناني وسلمت عليه، أهلًا وسهلًا بالمعلم إلياس وذلك بالعربية أجفل والتفت بدهشة واستغراب ونظر إلىٰ طويلًا إذ كنت صاحب اللحية الوحيد على الجزيرة وقد هاله منظري المتوحش بشعري المنفوش الطويل ولحيتي التي غطت قسم من صدري.

قال: أهلًا فيك يا عمي يخرب بيتك شو جابك لهون، شو عما بتعمل هون يا حبيبي! ضحكت بشدة غبطتني بأن أسمع كلامًا عربيًا بعد هٰذِه المدة الطويلة، قلتُ: يا حبيبي إلياس إن اسمك أنقذني إنك مقدس عندهم والظاهر أني أشبهك قليلًا إلا من هٰذا الشعر الطويل واللحية، هل عندك مقص ومشط ومرآة؟ عندي يا خيي كيف لكن..

وفتح أحد الصناديق وناولني عدة الحلاقة كاملة، قال: روح يا عمي وين كوخك؟ أشرتُ إليه، دخل الكوخ مسرعًا وقال: تعال لهون يخرب بيتك! كيف نفذت بجلدك! يا عمي هدول كل سنة بيأكلوا كثير من البشر، كيف ما أكلوك يا أزعر!! حالت منه ألتفاته فرأىٰ زوجتي وهي تصغىٰ بانتباه، أشار إليها وقال: ولكن جوزوك يا أزعر هاي

معزانيك. قلت: أي والله جوزوني، ٱنشرح وقال: هنيالك جوازه الهنا كيف لقيتهون، أجبته وقد ضممت عروستي: إنهم خير نساء في الدنيا ولا يعرفهم إلا من عاشرهم، قال: إجلس خبيبي لأقص لك شعرك، ثم كلم زوجتي بلغتها فخرجت، قلتُ: أين أرسلتها، قال إنه أرسلها لتوزع على النساء حاجاتهم ريثما ٱنتهي منها إنها وكيلتي.

قص المعلم إلياس شعري بمهارة وشذب لحيتي بشكل جميل فبانت ملامحي البشرية ولما نظرت إلى المرأة تفأجات من مظهري الجميل الجديد.

خرجت إلى الساحة ورائي إلياس وهو يقول هبيبي خلقه ربانية يخرب بيتك والله فزعتني.

أنهى المعلم مهمته في القرية وأخذ ما جمعوه ثم قال لي ٱنتظر هنا ريثما أعود من القري الأخرىٰ لنتكلم عنك ثم ودعني وقد أهدىٰ أجمل وشاح إلىٰ زوجتي التي طارت من الفرح، عاد المعلم من جولته وحط رحاله في القرية ضيفًا على الزعيم، وقد ٱجتمعنا مساءً وقال: ٱحكي يا عمي كل حكايتك، شو أوصلك لهون، وكيف لم يأكلوك، طبقًا فيك شبه كبير في ولك الحمد الله علىٰ سلامتك حظك من السماء يا أزعر، وقال: شوف يافرحان الناس طيبين جدًا ولكنهم وحوش مع الأوربيين، لأنهم يعرفون أن مصيرهم إلى العبودية والذل إذا سمحوا لهم بدخول جزيرتهم، لذلك يقتلونهم ويأكلونهم، فلذلك يخاف الأوربيين الدخول إلىٰ هٰذِه الجزيرة الغيرة الوعرة، ولا يستطيع غيري الدخول إلىٰ هٰذِه الغابات والجبال والوصول إليهم، ولكن عن رضاهم، وهم ينتظرون وصول مركبي الصغير فيحملون بضاعتي كما رأيتك بنفسك فأخذ ما عندهم بأمانة وأعطيهم حاجاتهم من الأقمشة والزينة والسكاكين وكل ما يرغبون فيه، وإن كل قرى الجزيرة تنتظرني في هٰذا الموعد من كل

سنة، طلبت منه أن أذهب معه وقلت دخيلك يا معلم بدي روح معك، ضحك فقال: لا تستطيع إن لك زوجة منهم وهم يحبونك كما سمعت منهم، ولكن أنتظر في المرة القادمة سأخذك معي إلى البرازيل ومنها إلىٰ فينزويلا فهناك بيتي وتجارتي سأربت الذي إقاضك وسأحاول الحصول لك لىٰ أوراق هوية، وإلا فأنهم سقبضون عليك ويسلمونك إلى الفرنسيين، لذا عليك بالصبر، أهد لي لباسًا كاملًا يحمله معه ليلبسه عند عودته وهي ثيابه الشخصية وقبل أن يغادر طلبت منه ذخيرة لبندقيتي لأني أخشىٰ أن تنفذ مني الطلقات المتبقية، إن كل القرىٰ تهابني طالما أحمل وأطلق منها النار على الحيوانات الكبيرة اليي يخافونها، فوعدني خيرًا وغادر المعلم علىٰ أمل العودة، مضت السنة منذ مغادرة المعلم إلياس وأنا بين هؤلاء المتوحشين كما يطلقون عليهم.

ولحسن حظي فإن زوجتي لم تحمل مطلقًا وهٰذا ما كان يقلقني جدًا فحمدت الله، وكنت أصلي دائمًا، وقد علمت زوجتي العربية والصلاة فكانت تصلي معي هي وأمها وأبيها.

عاد المعلم إلياس ومعه الذخيرة، وكنت دربت الزعيم على أستعمال البندقية في الصيد والقتال فكان سعيد جدًا.

طلبت من الزعيم أن أعود مع المعلم فوافق علىٰ شرط أن أخذ زوجتي معي لأن لا يصح ترك الزوجات لرعاية الرجال الآخرين.

ألبست زوجتي ثيابًا كاملة من بضاعة المعلم إلياس ثم أهديت بندقيتي للزعيم وحملت ساطوري معي وغادرنا القرية مودعين باحتفال صاخب.

ركبنا سفينة المعلم الصغيرة وأبحرنا إلىٰ جزر أخرىٰ مأهولة لمدة شهرين حيث أنتهت الجولة التجارية للمعلم إلياس، وكنت أغادر

السفينة خوفًا علىٰ سلامتي.

أقفل المعلم إلياس عائدًا إلى الدار ومنها إلىٰ كراكاس عاصمة فنزويلا حيث بيته وتجارته، نزلت من المركب ليلًا إلىٰ بيت المعلم الجميل.

اندهشت زوجتي المتوحشة جدًا علمت أن هناك بشرًا خارج الغابة فكان منظرها مضحكًا وهي تفتح فمها من الدهشة والتعجب، وقالت ما هٰذا؟ وكيف يعيشون بلا غابات؟ حدثتها بلغتها البسيطة لتفهم، قلت لها: يا مسكينة هنا غابات من الوحوش البشرية تأكل بعضها باستمرار وأنتم لا تعرفون، لذلك فهو أحسن لٰك ولقبيلتك الطيبة هنا الوحوش يا جميلتي، أمضيت في فنزويلا سنتينن ونصف أعمل مع المعلم إلياس اللبناني الطيب، وكان خير معلم وأب حنون، كان يسكن فوق محله الكبير، وقد عرف الناس عني بأني قريب له من لبنان وهٰذِه زوجتي البرازيلية.

مضىٰ علىٰ مغادرتي بيروت سجينًا إلىٰ أن عملت عند المعلم إلياس ستة سنوات من المعاناة والخوف، إذ إني معرض للقبض علي في كل يوم.

هاجم اللصوص ليلًا محل المعلم إلياس الذي أصبح عمي، حيث صعدوا إلىٰ منزله وجروه إلى المحل ليفتح الصندوق.

وبما أني كنت أنام وزوجتي في غرفة خلف المحل مباشرة فقد سمعت الضجة والتهديد الموجه إلى المعلم إلياس بالقتل إن لم يمثل لأوامرهم بأن يذبحوا زوجته وأولاده أمامه حملت ساطوري وتوكلت علىٰ الله ثم تسللت وراء حامل المسدس وضربته علىٰ يده بقوة فقطعت يده بسرعة بحيث لم يشعر صاحبها إلا وهي أمامه.

هاجمت الباقين بشدة وضربت يمينًا وشمالًا فأصبت آثنين منهم

بجروج قاتله وكانت المفأجاة شديدة على اللصوص فلم يتسنىٰ لهم ٱستخدام أسلحتهم بل تركو ٱ رفاقهم الجرحىٰ وهربوا وهم يطلقون النار باتجاه المحل.

حضر البوليس وضبط المصابين وأسلحتهم، وأخذوا ساطوري معهم وأخذوني للتحقيق.

دخلت السجن مرة أخرىٰ، وكانت زوجتي المخلصة تبكي بمرارة فأوصيت بها المعلم إلياس، قال: لا تخف يا ابني فهي ابنتي وبعيوني، ثم بكىٰ.

قال: لا تخاف سأفرج عنك مهما كلفني من مال أو جاه أنت ابني الغالي، ولكن لسوء حظي فقد توفىٰ أحد اللصوص في المستشفىٰ فكانت المصيبة.

وقد ٱستطاع عمي إلياس إطلاق سراحي بكفالة مالية علىٰ أن لا أغادر البلاد وبما أن هٰذِه العصابة قد أخافت الناس الأغنياء بتعديها الدائم وطلب الفدية وقد قتلت عددًا من التجار ورجال الشرطة فقد ٱعتبروني بطلًا وخصوصًا الشرطة فقد كانوا يعاملونني باحترام.

حصلت علىٰ أذن من الشرطة بتشكيل مجموعة من الشباب للتصدي للعصابات المنتشرة والدفاع عن الناس، وقد أحرزنا نجاحًا كبيرًا وذلك بمهاجمة العصابات قبل أن تهاجمنا حتى ٱختفت عن المدينة تمامًا، وقد وقع عدة حوادث قتل في أفراد العصابات.

ولكن التحقيق المستمر أثبت أني لا أحمل أوراقًا رسمية تثبت أني مهاجر شرعي، وبما أن السلاح الذي قتلت به اللص هو الساطور، وقد ختم بخاتم حاكمية الجزيرة الفرنسية مع رقم تسلسلي لذا فقد أخذوا صورتي وأرسلوها سرًا إلىٰ شرطة دومونيك، حيث تعرفوا علىٰ صورتي ورقم الساطور المسلم لي وحيث أفادوهم بأني سجين هارب، وعلى

السلطات أن تسلمني إلى الفرنسيين.

وقد ٱستمر هٰذا التحقيق السري ما يقارب من عام ونصف كنت مطمئنًا فإن الشرطة سوف تمنحني الإقامة الشرعية مع زوجتي كما وعدوا عمي إلياس بذلك.

في أحد الأيام حضر شرطيين وطلبوا مني مرافقتهم إلىٰ مركز بدون ذكر السبب وقال أحدهم لعمي إلياس: سنيور ٱتبعنا إلى المركز إذا أردت.

دخلت مركز الشرطة وإذ برجال الدرك الفرنسي ينتظروني، فلم يمهلوني لأودع أحدًا وإنما كبلوني وساقوني معهم إلى الميناء حيث غادرنا علىٰ متن سفينة صغيرة إلىٰ جزيرة السجن.

وصلنا بعد أسبوع إلى البناء حيث قادوني إلى السجن الرئيسي في المدينة، وبما أني محكوم بالسجن المؤبد فلا حاجة لحكم جديد، وإنما ٱنصبن التحقيق علىٰ دوري في هرب المجموعة الكبيرة، وقد علمت أثناء التحقيق بأن جماعتي ٱنضمت إلى المجاهد علي حيث روعت السلطات وأحدثت بلبلة في القلعة.

أما الجنرال العجوز قائد القلعة فقد مات منتحرًا من شدة العار الذي لحقه وقد منع خروج المساجين إلى الغابة للعمل خوفًا علىٰ حياة الجنود ومن فرار السجناء، أودعوني السجن الرئيسي الذي يطل على الميناء في زنزانة منفردة، وكان يأتيني بالطعام سجين من مواطني الجزيرة، وبما أني تعلمت لغة قبيلة زوجتي وهي مشابهة تقريبًا قبائل السان دومنيك، فقد توطدت صداقتي معه وخصوصًا حين جاء المعلم إلياس وزوجتي حيث عرف قبيلتها، وقد زارني وزوجتي إلى السجن.

وبما أن هٰذا السجين من السجناء الأحرار الذي يقضون سجنهم بالخدمة نهارًا، ولهم الحرية في الخروج ليلًا إلىٰ منازلهم إذ أن عقوبتهم

بسيطة لا تستوجب الحجز ليلًا ونهارًا، ٱتفقت مع عمي إلياس علىٰ أن يعتني بزوجتي وأن يسجلها باسمه تحت ٱسم مريم وإن يزوجها من مهاجر عربي مسلم إذا طال بقائي في السجن ولا أمل لي في الخروج منه، مضت سنة علىٰ عودتي إلى السجن، ٱتفقت خلالها مع السجين على الهرب في يوم الأحد، حين يكون مدير السجن وأكثر الموظفين الفرنسيين مشغولين في الصلاة والاحتفال الذي يتلوها.

نفذ وعده حيث أحضر لي لباس الوطنين السود، فلبسته بعد أن صبغت وجهي ويدي وكل ما يظهر مني بطلاء أسود أحضره معه، ثم رافقته إلىٰ خارج المدينة حيث وصلنا إلىٰ شاطئ الصيادين فتكلم مع أحدهم وأشار برأسه موافقًا، ركبت قارب الصيد مع صاحبه وأبحرنا بمحاذاة الشاطئ لمسافة طويلة ثم رسا عند شاطئ رملي وقد ٱتصلت الغابة بالبحر مباشرة، فدخلنا فيها إلىٰ مسافة طويلة إلىٰ أن وصلنا إلىٰ قرية من الأكواخ علىٰ سفح جبل يطل على البحر.

قدمني إلى الزعيم الذي رحب بي ووعدني بالحماية، فكتبت رسالة إلى المعلم إلياس أخبره فيها أني تحررت من السجن، وأريد أن يرسل لي زوجتي علىٰ أن يسلمها إلىٰ صديقي الذي تعرف عليه عندما زارني وزوجتي في أخر زيارة الذي سيوصلها إلىٰ مكان إقامتي الجديد.

وصلت زوجتي بعد معاناة ومخاطر تحملتها بصبر ورضىٰ إلىٰ مكان إقامتي أما السجين الوطني فلم يكشف عن هربي وبقي سرًا لأنه هو الذي يقدم لي الطعام في الزنزانة بشكل دائم.

اكتشف هربي طبيب السجن الذي يزور المساجين شهريًا، حيث كانت عقوبة صاحبي أن دخل زنزانتي عقوبة لمدة ستة شهور خرج بعدها حرًا.

أقمت في تلك القرية مع زوجتي ثلاث سنوات أنعم بالحرية بين

هٰؤلاء البسطاء الطيبين الذين يطلق عليهم الأوربيين ٱسم المتوحشين، وأقسم بالله بأنه لم يخلق من هم أكثر وحشية وشراسة من هٰؤلاء الأوربيين الوثنيين حتى الوحوش الكاسرة لم تسلم من بطشهم ووحشيتهم.

وبما أن السعادة قليلًا ما تدوم فقد أصبت بمصيبة مفاجأة كدت أفقد حياتي فيها، وذلك بأن لدغتني أفعىٰ سامة كبيرة عندما كنت أحاول أن أقتلها بعد أن لدغت زوجتي المسكينة التي فارقت الحياة فورًا بعد محاولة ساحر القرية علاجها بسحره، أما أنا فلم أمت مباشرة وإنما فقدت الوعي، لذلك حملوني علىٰ قارب صيد، علىٰ وجه السرعة إلى المدينة حيث أدخلوني المستشفىٰ الكبير الوحيد في الجزيرة، قام الطبيب الفرنسي بمعالجتي والعناية بمرضي لمدة ثلاثة شهور شفيت بعدها تمامًا.

كانت تشرف علىٰ تمريضي ممرضة فرنسية تسمىٰ جان، مساعدة للطبيب في الإشراف على المرضىٰ وإدارة المشفىٰ، وبما أنها ٱطلعت علىٰ أوراقي وعرفت قصتي مع السلطات الفرنسية وسجونها، فقد أشفقت علىٰ حالتي التعيسة من السجون ومصائبها، لذلك ٱتفقت مع الطبيب أن يبقيني في المشفىٰ لأطول فترة ممكنة وأن لا يعيدني إلى السجن.

كانت تسهر عليَّ بعناية وٱهتمام إذ قالت لي: مسيو فرحان إذا أظهرت سلوكًا حسنًا وحافظت على النظام فسوف أبقيك في المشفىٰ لمساعدتي، وإني بحاجة لمساعد أمين أتوافق.

قلت جاء الفرج يا فرحان من عند الله، أجبتها بأني موافق علىٰ كل الأوامر وأقسمت لها بأن ألتزم في المشفىٰ بمنتهى الإخلاص ولكن علىٰ شرط ألا يعيدوني إلى السجن.

وهكذا بدأت فصلًا جديدًا من حياتي الذي قضيت منه ٱثنىٰ عشر عامًا سجينًا طريدًا، فارًا، من غابة إلىٰ غابة ومن سجن إلىٰ سجن.

استقر بي المقام في المشفىٰ مع الرئيسية جان الفرنسية التي وضعتني تحت التجربة وكانت تراقب حركاتي وتصرفاتي بواسطة جواسيسها من المستخدمين، الوطنيين الذين ٱعتبروني واحدًا منهم نظرًا لمصاهرتهم والعيش بينهم في الغابة، في الأشهر الأولىٰ لم يكن يسمح لي بمغادرة المشفىٰ إلا برفقتها، حيث أفهمتني أنها تعهدت أمام السلطات الحاكمة في الجزيرة أنها مسئولة عن كل تصرف مخالف وخصوصًا موضوع الهرب قالت:

مسيو فرحان إذا خنت ثقتي بك وهربت أو تصرفت بما يخالف القانون فإنك ستعاقب بشدة، أما عقابي أنا فهو الطرد من عملي وإعادتي إلىٰ فرنسا لذلك أطلب منك أن لا تخون ثقتي بك أبدًا، وأن تلتزم بشرف كلمتك كرجل مسيو فرحان لقد ٱطلعت علىٰ كامل أوراقك وعرفت كل شيء عنك، وبما أن جريمتك تشرف كل مواطن يدافع عن وطنه ومعتقداته فأنا أخذتك علىٰ مسؤوليتي لإيماني بأن من لا يخون بلاده ودينه هو أهلًا للثقة والإمانة، فهمت مسيو فرحان، أجبتها وقد أكبرت فيها هٰذا الخلق الرفيع، نعم فهمت سيدتي ولن أخالف أبدًا مادامت أعامل بكرامة، وهكذا بدأت فصلًا جديدًا من حياتي بدءًا من عام ١٩٣٧، إذ كان ٱنقضىٰ من عمري أحد عشر عامًا في الشقاء غريبًا طريدًا أعيش في الغابات بين الوحوش وسكان تلك الجزر الطيبين.

استقر بي المقام في هٰذا المستشفىٰ أعمل مع الرئيسة جان الفرنسية وقد وضعتني تحت التجربة، إذا كانت تراقبني بشدة بحيث طلبت مني تقريرًا يوميًا عن كل حركاتي وما أقوم به من أعمال.

في الأشهر الأولىٰ لم يكن يسمح لي بمغادرة المشفىٰ إلا برفقتها

وقد شرحت لي تصرفها هٰذا وذلك حرصًا علىٰ مصلحتي.

انتهت مدة الاختبار بنجاح كبير، كان من نتائجه أن عهدت إلىٰ إدارة المستشفىٰ بعمل بأجر شهري لا بأس به كان كافيًا لأدخره في البنك الصغير هناك أما وظيفتي فهو شراء كل ما يحتاج له المشفىٰ من مواد غذائيه لكل العاملين في المشفىٰ بما فيهم المرضىٰ باختصار مدير تموين، أقبض مبلغًا محترمًا من المال صباحًا علىٰ أن أقدم لائحة المشتريات وقيمتها إلى المحاسب.

أعجبتني هٰذِه المهمة المسلية بسبب احتكاكي اليومي بالناس من كل الأجناس، وقد شعرت بأني ذو قيمة في هٰذِه الدنيا.

كنت حريصًا علىٰ شراء الأسماك من الصيادين الذين ساعدوني على الهرب بأسعار جيدة، حتىٰ تبقىٰ علاقتي معهم دائمة، إذ لا أعرف ماذا تخبئ الأيام لي من محن ومهالك.

بعد سنة من خدمتي بالمشفىٰ أصحبت من موظفيها المهمين، لذلك ودعتني الرئيسة قبل سفرها في إجازة إلىٰ فرنسا.

قالت: مسيو فرحان، أرجو أن تكون ذا وجه واحد، وكلمة واحدة، عادت الرئيسة بعد ستة أشهر من مغادرتها وإذ رحبت بعودتها أكثر من الجميع، إذ كانت خير أنيس لي.

قبلتني لدي مقابلتي لها في الميناء مُسَلِّمة بحرارة، وأظهرت لي اهتمامًا أنثويًا بشخصي الضعيف لم أعهده منها من قِبل.

عرفت ذلك بحاستي الرجولية وخمنت ما أنا مقبل عليه وقد صدق ظني بعد أيام قليلة علىٰ عودتها.

كانت غرفتي التي أقيم بها مجاورة لغرفتها الأنيقة المفروشة بذوق عال من الأناقة الباريسية، أما غرفتي المسكينة فهي غرفة سجين سابق فار من العدالة فليس منها إلا سرير حديدي وطاولة صغيرة ومغسلة.

في إحدى الأمسيات طرقت جان باب غرفتي بعد أن أنهت عملها، قالت: تعال فرحان لنسهر على الشرفة المطلة على حديقة المشفى.

لبست ثيابي الرسمية أحترامًا ووافيتها إلى الشرفة الواسعة وجلست بجانبها وهي تهز كرسيها بحركة منتظمة، وكان الشاي جاهزًا في الطقم الصيني الجميل أمامها على الطاولة.

وقفت بقامتها الممشوقة وقد أهتز شعرها الناعم الطويل وتدلى أمامها وهي تصب الشاي في فنجاني ثم قدمته لي بطريقة فيها أحترام خفي.

قالت: حرك السكر في فنجانك وقد لاحظت نظراتها الساهمة وتفكيرها العميق الذي فصلها عن ملاحظة ما حولها بما ينبئ عن هموم متوقعة كما علمتني تجارتي، وقد توقفت عن الحركة أحترامًا لمشاعرها، وعلى كل هي رئيسي، أستفاقت فجأة وقالت مسيو فرحان، نعم سيدتي ماذا تريدين، أجابت أريد أن أتحدث هل عندك مانع.

لا سيدتي أنت ولية نعمتي ولك الفضل بإبعادي عن السجن فأنا رهن إشارتك تكلمي سيدتي، أعتدلت في جلستها وقالت: أسمع مسيو فرحان:

إن بلادي فرنسا ليست بخير والحرب قريبة جدًا، ستغرق أوربا كلها في حرب مدمرة، وستسقط فرنسا منهزمة من الضربة الأولى في هذا الصراع القادم لأنها قصرت عن أستعداد ألمانيا الدائم.

لقد رأيت بعيني ألمانيا تعد للحرب علنًا وليس سرًا فقد سرت في جميع أنحاء ألمانيا كسائحة وزائرة المستشفيات وبعض الجامعات، وقد هالني التقدم العلمي والجد في العمل والنظام الصارم الذي يعبد الشعب الألماني.

أما فرنسا فقد أغرقت نفسها في الإنحلال والفوضى باسم الحرية

والمنازعات الحزبية العقيمة، في سبيل الوصول إلى السلطة ومنافع الحكم بهٰذا ستسقط منهزمة في الحرب القادمة القريبة، ونتيجة لهٰذِهِ الحرب سأبقىٰ هنا حبيسة سنوات عديدة إذ لا أحد يعلم متىٰ تنتهي الحرب وما نتائجها، إن الجالية الفرنسية في كل المستعمرات ستنقطع عن فرنسا الأم، صمتت طويلًا ثم قالت:

مسيو فرحان مع كل الاحترام لك، سأعرض عليك حلًا لمصلحتي أولًا ثم لمصلحتك ثانيًا فهل توافقني، أجبتها بسرعة: أوافقك سيدتي.

مسيو فرحان، ما رأيك لو عرضت عليك أن تكون زوجي، ستصبح حرًا وتنال العفو عن كل ماضيك، إذ ستكون زوجي الصالح الذي أعتمد عليه.

لم أفاجأ بالعرض فقد كنت متوقعًا ذلك ولكن ليس الزواج وإنما الصداقة كما هي عادة الأوربيين، سألتها:

سيدتي: لِمَ لا تتزوجين فرنسيًا وهم كثيرون في الجزيرة وغيرها من الجزر؟ نظرت إليَّ بعيونها الزرقاء كلون السماء الصافية وقالت بدهشة: أترفضني مسيو فرحان، فتداركت نفسي، وقلت: لا لم أرفضك وهٰذا شرف كبير لي ولٰكن أخشىٰ أن تندمي علىٰ زواجك من سجين متمرد على الفرنسيين، وهناك من الرجال الفرنسيين أصحاب المراتب العالية والضباط الشباب وهم كثير، وكلهم يتمناك، سيدتي إذا كان عرضك من باب العطف، فأنا خادمك المطيع لما قدمت لي من معروف وإنسانية وسأبقىٰ مدين لك بهٰذا الفضل إلىٰ آخر حياتي. . . . .

أما إن كان عرضك عن قناعة بأني أليق زوجًا لك. كذلك هٰذا شرف أكبر لي، إني أعتذر عن سؤالي ولكن أردت أن أتأكد حتىٰ أعرف موقفي منك مستقبلًا، أما جوابي لك، فهو أني أقبلك زوجة ومعلمة ورئيسة ولٰكن علىٰ شرط واحد، أن لا يشاركني فيك رجلٌ آخر مهما

كانت صفته أو مركزه.

ضحكت مسرورة وقد طفح من وجهها الوردي الجذل الرصين، قالت: أعاهدك بأن لا يكون في قلبي ولا جسدي أي شريك لك ما دمت أنت زوجي، أنا أعرف تقاليدكم أنتم المسلمون العرب، فالمرأة هي أثمن ما عندكم في الحياة، لذلك فضلتك لجمعك الصفتين، عربي ومسلم، إذا أنا سيده شريفة بكل معنى الشرف الحقيقي، إذا تزوجتك.

أما إذا تزوجت فرنسيًا كما ذكرت أنت فما ميزتي في الحياة.

سأبقىٰ مستقلة مثل الرجال، فلا زوجي يغير علي إذا عشقت غيره ولا أنا كذلك، أغير عليه إذا وجدته مع امرأة أخرىٰ، لذا فنحن يا فرحان أقرب إلى الحيوانات والخنازير منها خاصة، نحن فقدنا معنى العائلية الفاضلة المنظمة والمنضبطة بقيود الدين والوفاء للزوج أو الزوجة.

نحن يا فرحان ضبطنا أمورنا المادية والعلمية والصناعية وتركنا الفوضىٰ تضرب في بيوتنا ونفوسنا أصبحت الجنسية والأسرية علامة المدنية والرقي، هكذا علمنا اليهود بعد أن حطموا الكنيسة التي علىٰ رجعتها وسوء تصرفها كانت عمود الفضائل في الغرب المسيحي.

نحن الأن حمير لليهود، يعلموننا كل رذيلة تحط من قيمة الإنسان باسم الحرية والتقدم هل فهمت

إذا تزوجتك ستكون رجلي والسيد في البيت وخارج البيت، سألقي إليك بكل همومي الشخصية علىٰ عاتقك لأنك شريكي بروحي وجسدي، فراحتي النفسية التي تحقق السعادة بالأمان الذي أشعر به بكونك المسئول عن كل لحظة في حياتنا، هٰذِه هي راحة المرأة الشريفة والسعيدة بكل معنى الكلمة تحت ظل رجلها المخلص فهمت مسيو فرحان.

نعم فهمت سيدتي، كانت التعاسة واضحة في كل كلمة نطقت بها ثم تابعت: إن أتعس ٱمرأة هي المرأة الأوربية، إنها غرقت في مستنقع العبودية الكاملة، أو أغرقوها.

كانت النساء في الماضي تتمتع بحماية الرجل، وكذا نقرأ في القصص أن من شروط الفارس البطل هو حماية المرأة والضعفاء، كانت سعيدة مصونة بثوب العفة والشرف، كانت تنتظر زوجها ليخفف عنه عناء العمل والصراع اليومي من أجل أن يقدم للمرأة وأبناءهما العيش النظيف الشريف، وكان المجتمع متماسكًا، يحترم المرأة ويصونها أما وزوجة وأختًا وابنة.

لكن ذلك لم يرض لليهود وحميرهم، فجاءونا بدين جديد يحرر المرأة والرجل من عفتهما، نزعوا عن المرأة ثوب القدسية وجروها إلى العمل كالحيوانات في مصانع اليهود وأتباعهم.

المرأة الجميلة عليها أن تقدم جسدها لمقتهم بدون مقابل إلا الرضىٰ عنها، أما المرأة العادية فعليها أن تعمل في كل المجالات، أما إذا ٱحتجت فمصيرها الطرد والحرمان من لقمة العيش.

لماذا أليست مساوية للرجل وقد أخذت حقوقها كاملة في حرية التمتع الجنسي مع من ترغب فيه أو يرغب فيها، أو من يؤمن لها العمل لتأكل، إنها لم تعد زوجة رجل واحد، وإنما لكل من ترغب فيه أو يرغب فيها، باب الإغراء فتح علىٰ مصرعيه، أجساد النساء تعرض في الشوارع عارية، وفي المراقص كل شيء مباح أصبحنا مشاعًا.

صحيح أنا كامرأة حرة كالرجل أسافر وحدي وأعشق من أريد ولكن من يحميني من الوحوش البشرية؟ أصبحت أحمل العبء مزدوجًا، أنا ٱمرأة علىٰ واجبات المرأة تجاه البيت والأسرة، وواجبات الرجل في العمل ومسؤولية تأمين لقمة العيش.

ألا ترىٰ كم نحن نساء الغرب مظلومات فهمت لماذا ٱخترتك زوجًا ٱخترتك لأستعيد أنوثتي ولتحميني وتغار علي، فالمرأة مهما بلغت من القوة فهي ضعيفة في مجتمع الرجال، هكذا خلقنا الله.

أما في بيتها وتحت ظل زوجها فهي أقوىٰ من كل القوى التي خلقها الله إذ هي محور الحياة واستمرارها. ومربية الرجال وعمود المجتمع القوي، فهي التي تغزل الحنان وتضع لمسات الأنس المعطر في الليل والنهار السعادة فيها ومنها إذا كانت زوجًا وأمًا، هل فهمتني مسيو فرحان؟ لم أستطع أن أتمالك عواطفي فأجبتها برقة فهمت يا حنان، قلتها بالعربية، ثم أتبعتها بالفرنسية.

اسمك منذ الآن حنان، أتعرفين لماذا؟ لأن كل كلمة قلتيها صادرة من قلب حنون، والسعيد كل السعادة هو من بدع نفسه بين يديك لتغريه بالحنان والحب الفظيها بالعربية لفظتها بأعجميتها الجميلة قلت: الآن ٱسمعي سيدتي حنان.

أعاهدك أمام الله الواحد الأحد بأن أكون الفارس الذي يحميكي ولكن ما حيلتي وأنا سجين ٱحتاج إلىٰ من يقف بجانبي، قالت: أنا بجانبك دائمًا، إذًا قبلتك يا حنان زوجة ولكن بشرط، ما هو شرطك، وضح قلت: شرطي أن لا أعقد قراني في الكنيسة ولكن في دار البلدية فقط لأنه أقرب إلىٰ شروط عقد الزواج في الإسلام، ضحكت وقالت: من قال لك بأني أذهب إلى الكنيسة نحن الأوربيون بلا دين ولا كنيسة نحن علمانيون، أما الصفة المسيحية فهي من التاريخ وشيء تقليدي ولا صبغة أخرىٰ نطلقها علىٰ مجتمعاتنا لتعرفها فهي ٱسم فقط بدون معنىٰ حقيقي، أوافقك مسيو فرحان سيعقد الزواج في دار البلدية وأمام حاكم الجزيرة ٱطمئن غدًا سأخبر الجالية الفرنسية عن قراري ثم أقدمك لهم في حفل سأقيمه لهٰذِه المناسبة، لذلك أطلب منك أن تذهب إلى الحلاق ثم

اْعتن بلباسك واشتر ما يناسب هٰذا الحفل.

هيأت نفسي فاشتريت طقمًا جديدًا من المتجر الكبير الوحيد في الميناء، وصاحبه الفرنسي الذي ساعدني في الاْنتقاء والتجربة.

أقامت جان الاْحتفال ودعت إليه حاكم المدينة وكل الجالية الفرنسية الحاكم نظرًا لنفوذها وتمتعها بمحبة الجميع.

بعد العشاء صدحت الموسيقىٰ لرقص وكنت أجلس في غرفة جانبيه في الفندق الكبير والوحيد في المدينة الصغيرة.

أعلنت جان أنها قد خطبت وستقدم خطيبها لتتعرفوا عليه، دخلت غرفتي مع إحدىٰ صديقاتها وأمسكتني من يدي وجرتني وراءها إلى القاعة الكبيرة، اْرتبكت من هٰذا المنظر الخلاب، أين أنا من هٰؤلاء؟ هم حكام وضابط وساده أما أنا فسجين أعيش تحت ظل جان وحمايتها، ثم فجأة مرت أمامي حقيقة هٰؤلاء رجالًا ونساءً، فالرجال قوادون والنساء نصف عاهرات وضباطهم المتأنقين وحكامهم مجرمون، إن هٰؤلاء موقعهم الحقيقي هو السجون، إذا أنا أشرف منهم، إن جريمتي أني دافعت عن وطني وأهلي، أما هم فلصوص وقتله يستخدمون علمهم في اْستغلال الناس وقتلهم وسرقتهم، هٰؤلاء وأمثالهم من الأوربيين إنهم ليسوا أهلًا للاحترام، أنا من يجب أن يحترم، لذا رفعت رأسي وتأبطت ذراع خطيبتي ودخلت القاعة وعيناي مفتوحتان أنظر إليهم متحديًا.

توقفت الموسيقىٰ ونظر الجميع إلىٰ نظرة تعجب، رأيت النساء تأكلني بشهوة ظاهرة أما الرجال فلا أستطيع أن أصف معنىٰ نظراتهم.

وقفت جان ثم جذبتني إليها وأعلنت بصوت مرتفع، أقدم لكم خطيبي اليوم وزوجي غدًا، أريدكم أن تتعرفوا إليه.

صفقت النساء الحاضرات، أما الرجال فقد دهشوا فلم تصدر

عنهم أي حركة، تابعوا الاحتفال وقد التفت النساء من حولها يسألنها، من أين أتيت بهذا العريس الجميل يا جان، قالت إحداهن لرفيقتها سرًا وهي تهمس ولكن لتسمعنا، إنه أجمل من كل شباب الجالية الفرنسية، يا ليته في باريس لأتعرف عليه، وبدأت أسمع تعليقات النساء المخجلة المجردة من الحياء، ولا أستطيع أن أنقل إليكم ما قالوا، إنهم فقدوا حياء المرأة الشريفة، إنهن حيوانات جميلة مصبوغة.

بعد أيام قليلة عقدنا قراننا أمام المجلس البلدي، ثم عدنا إلىٰ بيت جان في المستشفىٰ حيث أبدلت غرفتها بجناح صغير فوق المستشفىٰ.

صدر عني عفوًا عامًا عن كل جرائمي بتوسط من حاكم الجزيرة إلى الحكومة الفرنسية حيث أصبحت حرًا وأحمل جواز السفر الفرنسي.

بعد عام من زواجنا وصلتنا الأنباء بأن الحرب مع الألمان قريبة جدًا وقد وصلت بوارج حربية فرنسية إلى الميناء لحماية الجزيرة والتجارة بين الجزر وفرنسا، وأصبح الموقف عصيبًا.

في إحدى الأمسيات علىٰ شرفة المنزل، أذاع الراديو بأن الألمان قد احتلوا بولونيا، نظرت إلىٰ زوجتي وقد أصفر لونها، وقالت: أتذكر حديثي معك قبل زواجنا عن الحرب جاء دور فرنسا انتظر وسترىٰ.

بعد مدة وجيزة من الهجوم علىٰ بولونيا، أذاع الراديو خبر الهجوم علىٰ فرنسا بعد أن أعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على الألمان.

سقطت فرنسا بعد ثلاثة أسابيع من الهجوم الفرنسي بسهولة عجيبة تحت أقدام الألمان.

قلت لزوجتي: إن الجزاء من جنس العمل، لقد دخلت جيوش ألمانيا فرنسامحتلة غازية كما دخلت فرنسا بلاد المسلمين محتلة غازية، عسىٰ أن قادة فرنسا يشعرون بطعم الهزيمة والقهر من المحتل ليكونوا

عبرة لهم ولغيرهم من أعداء الإنسانية في أوربا وغيرها، اللهم لا شماتة.

بعد عامين من بدء الحرب وصلت برقية إلىٰ حاكم الجزيرة، تنبئ بصدور عفوًا عامًا عن كل المحكومين بتهمة التمرد علىٰ فرنسا من الجنسيات فرنسية، أذاع الحاكم القرار فأطلق سراح المساجين في القلعة.

كلفوني بمهمة إيصال قرار العفو إلىٰ جماعة المجاهد علي الذي سيطروا علىٰ قسم كبير من الغابة، وبما أني لا أعرف مكان تواجدهم، فقد حملوني في عربة وأوصلوني إلى القلعة.

ركبت جوادًا من القلعة مع جندي له معرفة بتلك المنطقة حيث بدأنا بالبحث عن الجماعة ولما توغلت في الغابة بدأت أطلق النار في الهواء ليسمعوني.

التقينا مع الجماعة ويا فرحتي لم أصدق نفسي، الجميع بخير عانقت مراد وشامل والبقية عناقًا حارًا.

أخذوني إلى المجاهد علي وتعرفت عليه، قال: أين كنت يا رجل، لقد مزقنا القلعة والجنود بحثًا عنك، كم من المرات خطفنا الجنود والمساجين، وقد ٱعترف الجميع بأنك مفقود، أين كنت قالوا: إن الحرب توقفت تقريبًا إلا من هجمات بسيطة ذلك لأن سلطة السجن منعت المساجين من الخروج للعمل في الغابة فكانت الهجمات مقصورة علىٰ قافلة التموين من حين لأخر.

قرأت عليهم قرار العفو الذي يشترط أن لا يغادر المحكومون الجزيرة ويبقون فيها أحرارًا وعلى الدولة الفرنسية تأمين معاش شهري لإعانتهم بشرط أن يدافعوا عن الجزيرة إذا دعاهم حاكمها لصد أي ٱعتداء يقع عليها، وعلىٰ كل محكوم أن يسجل ٱسمه في ديوان الحاكم

في أول فرصة تسنح له.

فرح الجميع وعانقوني فرحين بسلامتي إذ طلب رفاقي أن يعرفوا قصتي بعد هربهم وكيف هربت وأين أختبأت هٰذِه السنين الطويلة حتىٰ ظنوا أني قد فارقت الحياة.

ونزولًا عند شوقهم الشديدة لمعرفة قصتي فقد شرحت لهم كل الحوادث التي مررت فيها من ساعة هربهم حتىٰ وصولي إليهم.

أخلوا المعسكر وحملوا أمتعتهم، وتوجهنا إلى المدينة يحملون سلاحهم خوفًا من غدر السلطات بهم.

مروا بالقلعة الفارغة إلا من بعض الجنود للحراسة ثم ودعوها إلى الأبد، وصلت الجماعة إلى الميناء بنظام يقودهم قائدهم علي.

خرج الحاكم وضباطه لإستقبالهم حيث خطب فيهم بما معناه أن فرنسا بحاجة لكل أبنائها وعليهم نسيان الماضي والاستعداد للدفاع عن الجزيرة لأنها معرضة لهجوم الأسطول الألماني، وأن فرنسا تقدر لهم تعاونهم معها لذلك فقد منحتهم جنسيتها ليصبحوا من رعاياها، وقدما لهم بناءً كبيرًا كان يستعمل لتخزين البضائع ليكون مكان إقامة مؤقتًا إلىٰ أن بتدبروا أمورهم.

الآن والحمد لله أصبح لي أصدقاء بجانبي فزادت فرحتي بهم وهٰذا مما خفف علي وحشة الغربة الطويلة.

عشت مع زوجتي جان التي غدت المسئولة عن المستشفىٰ، وأنا مدير التموين إلىٰ نهاية الحرب العظمى الثانية وانهزام ألمانيا وقد ٱحتفلت الجزيرة بالنصر ليلة كاملة حتى الصباح.

أما السنوات التي قضيتها مع زوجتي جان فلن أنساها إلىٰ آخر يوم في حياتي، فقد كانت نعم الزوجة المخلصة المتفانية في خدمتي وتخفيف وطأة المنفىٰ والبعد عن أمي وأهلي ومدينتي، إن صورة

ٰحارة كانت تراودني في اليقظة وفي الأحلام، كنت أتخيل مثلًا عمكم محمدًا كيف أصبح الآن وفلان وفلانة أما صورة أمي فكانت دائمًا أمامي لا تفارقني، كنت أقدر كم تعاني من المصيبة الكبرى التي ألمت بها. ولهٰذا فكنت أشعر بقوة، كم كانت زوجتي تحاول أن تنسيني هٰذِه الذكرىٰ وذلك بأن تحاول أن تجعلني أمارس مسؤوليتي كرجل تجاه زوجة مخلصة، وكانت تدللني دائمًا وتناديني بزوجها الحبيب، أو رجلي وسيدي، كانت متعطشة للشعور أنها أنثىٰ وليست نصف رجل ونصف آمرأة.

كانت أحيانا تعاكسني وتثير غضبي بشدة فأضربها ولٰكن بلطف لأني أعرف هدفها أرسلت عدة رسائل لوالدتي مع مبلغ من النقود كانت تحوله زوجتي مع مبلغ محترم من المال تضيفه عندها بدون علمي وذلك بواسطة الصليب الأحمر الدولي.

ولا أعلم كم من النقود حولت مع أصراري علىٰ معرفة ذلك ولكنها أنكرت وغضبت إذ وبختني بشدة قائلة إنها أمها كذلك ولها الحق بأن تعاملها كما تشاء.

انتهت الحرب وبقيت أوضاع المساجين كما هي يمنع عليهم مغادرة الجزيرة رغم أنهم يحملون الجنسية الفرنسية، ولٰكن المعاش الشهري بقىٰ يصرف لهم مع الحرية في العمل في أي مكان في الجزيرة.

وقد تزوج الجميع تقريبًا بفرنسيات وأصبح لهم بيوت وأولاد، أما أنا فكنت عقيمًا ولم أرزق من زوجاتي الثلاث بأي مولود، وهٰذا من حسن حظي، آستمر عملي في المشفىٰ مع زوجتي حتىٰ عام ١٩٥٠ وبما أن هٰذا المقام لن يدوم إلىٰ نهاية حياتي وخصوصًا بأني لم أرزق بأولاد، إذا فما معنىٰ لإقامتي في آخر الدنيا.

طان شوقي لبلادي أصبح قويًا يؤرقني ليلًا ويتعبني نهارًا، لذا فقد

طلبت من زوجتي أن تراسل أهلها في باريس ليراجعوا السفارة السورية بشأني عسىٰ أن يعيدوني إلىٰ بلادي، ولا حاجة بي إلى الآنتماء إلىٰ أمة أخرىٰ معادية، ولا يحق لهٰذِه الدولة الآحتفاظ بوجودي تحت سلطته أنا ورفافي، كتبت عدة رسائل أرسلتها إلى السفارة عن طريق والد زوجتي ولكن للأسف لم يأت جواب.

عهدت زوجتي إلىٰ محامي من أصدقاء والدها بملاحقة قضيتي مع الحكومة الفرنسية والسفارة السورية، وبعد عام ونصف وصلتني رسالة من الحكومة الفرنسية بأني لست ملزمًا بالبقاء في الجزيرة، وأنا حر في التنقل والذهاب إلىٰ أي مكان أريده وذلك بموجب حقي كمواطن فرنسي وسوري الأصل، وقد أرفقت مع الرسالة الوثائق اللازمة التي تسمح لي بمغادرة الجزيرة إلىٰ أي دولة أخرى.

حزمت أمتعتي ورافقتني زوجتي بعد تقديم آستقالتها ورحلنا إلىٰ فرنسا وطنها.

وصلنا إلىٰ باريس في القطار فاستقبلنا والدي جان حيث رحبوا بصهرهم الجديد، فأقمت في باريس أراجع السفارة السورية يوميًا للحصول علىٰ جواز سفر سوري.

وبعد تعب وصبر طويل وأخذ ورد مع الخارجية الفرنسية والسورية سلمني السفير السوري جواز سفري السوري، مع بطاقة سفر بالباخرة المغادرة إلىٰ بيروت.

طلبت من زوجتي أن تختار إما مرافقتي إلىٰ بلادي أو البقاء مع أهلها، وقد حاولت إقناعي بشتىٰ وسائل الإغراء بالبقاء معها في فرنسا علىٰ أن تحصل لي علىٰ عمل مرموق ومركز محترم في المجتمع الفرنسي.

رفضت بشدة كل عروضها لأني كنت أشعر أني سأموت إذا لم أَعُدْ

إلىٰ أهلي، إن الوطن قتال كما يقول المثل.

في إحدى الأمسيات ونحن نناقش موضوعي، قلت لها، عزيزتي جان، لماذا أبقىٰ مواطنًا في بلد آستعمر بلدي وقتل أهلي وضرب بيوتهم أفقرهم، لماذا أبقىٰ مواطنًا لبلد حكم علي بالشقاء والسجن، والهرب من غابة لغابة بين المتوحشين كما تصفونهم، ليس هناك من مبرر واحد للبقاء في بلدكم هٰذا سوىٰ أننت الزوجة الحبيبة.

لذلك طلبت منها أن تقيم مع أهلها لأن والديها عجوزان ولا ولد لهما غيرها إذ قتل أبناؤهم الذكور في الحرب مع الألمان، لذلك فلا عذر لها بترك والديها، وخصوصًا بعد مفارقتهم لها هٰذِه المدة الطويلة في الجزيرة.

حان وقت الرحيل فرافقتني إلىٰ مراسيليا مع والديها.

صعدت إلى السفينة بعد عناق طويل ودموع تجري من العيون الزرقاء المحملية ثم دست بيدي منديلها الزهري المعطر الذي لا يفارقها، وقالت هٰذا للذكرىٰ أجمل أيام حياتي وحتىٰ لا تنساني.

أطلقت السفينة صفارتها وبدأت تتحرك للمغادرة، وقفت علىٰ شرفة السفينة أودعها بمنديلها الزهري، وإذ بها تلوح لي وهي تجفف دموعها بكفيها بالمنديل الذي أهديتها إياه في ليلة زفافنا ولم أدر أنها محتفظة به حتى الآن.

وصلت بيروت ليلًا وقد رست السفينة الضخمة في الميناء.

وفقت علىٰ ظهر السفينة ونظرت على المكان الذي غادرت منه إلى المنفىٰ والسجون مدة ستة وعشرين عامًا من الشقاء والعذاب لولا أن تداركني الله بلطفه وعنايته وأحاطني برحمته وعطفه، فأسعدني في دار الشقاء بزوجتين أحاطتاني بالعناية والحب الذي فقدته بفراقي والدتي وزوجتي فوزية.

نزلت بيروت ليلًا وبدأت بالتجوال في شوارعها القفرة الرطبة، كانت أنوار الجبل القليلة تومض من البعيد كعين العاشق تغمز إلىٰ من يحب.

وبما أني أنا المحب المشتاق إلىٰ أهلي وحارتي لم أذهب إلىٰ فندق لأنام فيه وإنما جلست علىٰ شاطئ البحر أرنو إل الضفة الأخرىٰ حيث تركت حبي وسعادتي.

وبما أنه ليس في اليد حيلة فإما وطني وإما حبي وزوجتي فقد شدني الشوق إلىٰ بلادي وتغلب علىٰ حبي الأجنبي.

إن الوطن ومن لم يذق طعم البعد عن الأهل والوطن فلا يعرف أبدًا كيف يعاني الغريب وكم يشتاق للعودة في كل لحظة من حياته.

قمت من مكاني أتابع تجوالي في الشوارع حتىٰ بدأت الحركة تدب في المدينة.

سألت أحد المارة أين أستطيع أن أتناول الأفطار وهل هناك مطعم في مثل هٰذا الوقت المبكر.

أشار إلي أن أذهب إلى الزاوية للشارع الرئيسي وقال أسأل هناك عن مطعم مروش تجد الذي تريده.

وفعلًا فقد وصلت إلىٰ مروش وإذ الآزدحام علىٰ أشده فدخلت مع الناس حيث أخذت مجلسي.

استغربت من الطريقة التي يقدم بها طعامه من الفول إلىٰ زبائنه لقد أحضر طبقًا من الفول مع توابعه بدون أن أطلب منه ذلك.

سألت النادل الذي يخدم المطعم عن الوسيلة التي أسافر فيها إلىٰ سوريا.

أجابني، يا عمي أيها بلد بلدك من سورية، قلت: حماه. مدينة حماه، قال: بسيطة يا عمي، تعال معي، وأخرجني إلىٰ خارج المحل

وأشار إلىٰ ساحة كبيرة وقال: أسال هناك سيرشدونك إلى السيارة التي ستوصلك ودخل إلىٰ عمله.

تابعت تجوالي لأتفرج علىٰ بيروت مدينة الأحلام حتىٰ حانت الظهيرة فصليت فليس مسجد هناك.

سألت مرة أخرىٰ عن محطة القطار الذاهب إلىٰ مدينة حماه فأرشدوني إلى المحطة حيث ركبت عربة قطار صغيرة بولمان أوصلتني إلىٰ مدينتي، نزلت علىٰ رصيف المحطة، قلت وقد عادت بي الذكرىٰ.

ألله لقد غادرت هٰذا الرصيف الذي قادني منذ ست وعشرين سنة إلى المنفىٰ إلىٰ بلاد لم أكن أصدق وجودها رغم قرائتي كتب السندباد البحري ومغامراته في البحار.

ألله، لم يتغير فيه شيء كما تركته آخر مرة، لازال الٱسم بالفرنسي والعربي، والساعة الكبيرة بجانب باب الصالة الرئيسية هي ذاتها، كل شيء كما كان.

نظرت إلى المعسكر فإذا هو كما كان لم يتغير فيه شيء إلا ألوان العلم المرفوع على السارية الأمامية.

حدثت نفسي يا ترىٰ من يعرفني، هل يا ترىٰ والدتي علىٰ قيد الحياة أم توفيت.

دخلت المدينة سيرًا على الأقدام، أحمل أمتعتي القليلة، المدينة كما تركتها إلا من بعض البناء الجديد وقليلًا من التوسع.

وأخيرًا وصلت إلى الحارة الحبيبة، وصلت إلىٰ من ٱشتد شوقي إليه، المنبت الأصل، مدراج الصبي بحلوها ومرها.

لم يعرفني إلا عمكم محمد، الذي فتح عينيه لما رآني أقف علىٰ باب المسجد ٱسألوه لقد فرك عينيه وقال: هٰذا حلم أم حقيقة، فرحان، أنت حي، وبدأ يبكي وقد ضمني إلىٰ صدره بقوة.

صاح عمك محمد إلىٰ كل من في الحي، أن تعالوا شوفوا المعجزة أخي فرحان، ابن حارتنا فرحان، والله هٰذا فرحان لقد عاد حيًا آنظروا إليه.

كانت مفاجأة كبيرة إلىٰ من يعرفني من أبناء جيلي أما أنتم الجيل الجديد فلا علم لم بما جرىٰ في هٰذِه البلاد إلا ما يدرسونه عنها في الكتب.

انظر يا بني إلي، ها أنا أمامك الآن أعاني من شقاء جديد أشد وطأة علىٰ نفسي من السجون عند العدو.

النسيان والنكران والإهمال لكل من خدم هٰذا الوطن من أمثالي، لقد سألت عن المجاهدين وما حل بهم.

إنها والله لمأساة أن يهمل أو يحارب كل من ضحىٰ في سبيل هٰذا الوطن إن قتل فقد ترك أولاده أيتام، ومن بقىٰ حيًا فهو نكرة.أنا لست نادمًا علىٰ عودتي، إذ هنا جذوري وراحتي النفسية ويكفيني بأني سأموت مرتاح الضمير لأن موتي سيكون بين أهلي ورفاقي، سيصلي علي الناس، وتضمني الأرض التي ولدت فيها بجانب والدتي وجيراني، سيذكرني بعض رفاقي بعد موتي حتىٰ يلحقوني إلى العالم الآخر، بعدها سنقطع ذكري وخصوصًا بأني لم أرزق بولد يحمل آسمي هكذا أراد الله، فله الحمد والرضا في الأولىٰ والآخرة.

وهٰذا هو الفداء لنفسي الفداء الأكبر.

يا بني لقد قصصت عليك كل ما جرىٰ معي، طالبًا منك أن تفي بوعدك وتسجل كل ما سمعته مني بأمانة عسىٰ أن تذكرني أنت ورفاقك بالخير.

وعسىٰ أن يقرأ ما كتبته أحد من الجيل الذي يرثكم من أبنائكم حتىٰ يعرفوا أن هٰذِه الأمة عانت وقاتلت في سبيل الحرية والكرامة

وقدمت كل ما تستطيع في هٰذا الطريق.

تذكروني بعد موتي بالخير مع دعائكم لي.

حفظكم الله يا أولادي وجنبكم كل ما يشقيكم.

ثم تركني مودعًا.

أما أنا فقد عكفت علىٰ كتابة قصته العجيبة لما تنطوي عليه من العبر والمعاني.

لم يجد فرحان أحدًا من أقربائه، وفقد معظم أصدقائه، تزوج بعد عودته بفترة طويلة ولكنه لم يعقب ولدًا ولا خليفة بل بقى وحيدًا مع زوجته الرابعة.

ولكن كان له ما أراد وما تمنى.

صحيح أنه قضىٰ بقية حياته صامتًا حزينًا صابرًا ولكنه ظفر بالعودة إلىٰ وطنه الحبيب، حيث عاش، ومات، ودفن في الأرض التي نبت فيها، بجانب والدته أم فرحان التركية، رحم الله فرحان وأسكنه فسيح جناته، ورحم الله والدته التي أنجبت رجلًا لا كالرجال.

انتهت بعون الله تعالىٰ.